AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01116 8428

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

03-B4251 Put

BJ
1582
.R612
1927

معارج الفلاح

كتاب عصري

يرشد القارىء الى الفضائل التى يتم له التوفيق والنجاح في الحياة
اذا استمسك بسببها المتين ويهديه الى الوسائل التى
تصون بدنه وعقله وتكفل له الهناءة والسعادة

أبرزه الى اللغة العربية

محمد مسعود

العنوان: برياسة مجلس الوزراء تليفون رقم ٤٢٣
وبالمنزل تليفون رقم ٧٢٠٢

(ثمن النسخة ١٠ مـ)

طبع بالقاهرة فى سنة ١٣٤٥ هجرية
الموافقة سنة ١٩٢٧ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصلياً

اما بعد فقد دعت الحاجة فى عصرنا هذا ، عصر السعى المبكر لتحصيل القوت والتسابق الى حفظ الذات والتناحر فى ميدان الحياة بأن تكون كتب الاخلاق والسير والسلوك أقرب الى بيان الحقائق العملية منها الى تقرير القواعد النظرية ، وأسرع وثبة بالطالب الى غمار المعركة الحيوية منها الى ايقافه على حفاف ميدانها طلباً لمجرد السلوى بالنظر اليها كمن يقطع الوقت فى عرض السابلة من نافذة أو من مستشرف . فكم بين كتب الاخلاق والسلوك التى يخرجها الينا المعاصرون وما تركه لنا السلف الصالح فى تراثهم الادبى والعلمى من فارق بل وهوّة سحيقة فى طريقة معالجتها لطائفة من أمهات الصفات والخصال النفسية وتقديرها اياها وحكمها عليها ! ألا ترى المتأخرين من المصنفين في ذلك الباب يعدون الطمع فضيلة والحياء رذيلة بينما تواليف المتقدمين ملأى بما يناقض هذا النظر فى الحكم عليهما ؟ نعم ان هذا التباين لا ينعى على المتقدمين حكمهم على الاشياء والصفات بما يخالف حكم المتأخرين لأن ما يكون محموداً بذاته فى عصر قد يجعله مذموما فى غيره تبدل شروط الحياة وتطور الصفات النفسية بطورها كما قضت به طبيعة الوجود وسنة الخالق فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولقد كان من المصنفات القويمة التى أخرجت الى القراء فى فجر هـذا القرن العشرين باحثة فى ذلك الموضوع كتاب العلامة الخلقى سيلفان روديس الموسوم « السير فى طريق الحياة »

ولكثر ما قرأت من مصنفات مجيدة لعلماء النفس فى الاخلاق فما رأيت مصنفاً منها أجمع لشتات الموضوع ولا أوفى بحاجة الشباب في هذا العصر من كتاب سيلفان روديس لانه لم يطرق بحثا من ابحاثه وتركه فى حاجة الى المزيد فيه . قرأت ذلك الكتاب فخرجت منه غيرى قبل أن ادخل فيه وعلمت منه مالم أكن اعلم ، على كثرة ما طالعت من نوعه ، بما أرشد الى صواب وقرر من حكمة تملك على القارىء رأيه فينزل على حكمها ويخضع لسطوة بيانها فهو السحر المبين لا بالرقي والتمائم ولكن روح المؤلف الفياضة الجذابة لا تدع سبيلا لحركات المشاعر دون الدائرة التى حصرها فيها وحسن تصوره للمعانى يقربها من النفس حتى تلتصق بها فكأن قوة مغنطيسية تستنزل العقائد من بروجها وتضعها حيث يريد .

ما أرشده ناصحا وأصدقه واعظا وأقدره كاتبا حين شبه السعادة بطائر يستخفى تارة بين الادغال ويظهر طورا فوق الاغصان وجعل طالبها صياداً ينبغى أن يكون ماهرا لا يفوته طائرها مهما صابره وراوغه . فلقد احسست وأنا اقرأ ذلك أن السعادة قريبة المتناول ، وخيل الىّ أنى ذلك الصياد . ومعنى هذا أن كل انسان يستطيع أن يكون سعيدا اذا تعلم كيف يكون صيادا .

وليس ذا على ذى همة ببعيد ، فقد قرب المؤلف الحياة الهنيئة لطالبها وحمله تبعة ما يفوته من متاع العيش وزينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق . وما أحسنه مبدعا وهو يذم الحياء — وقد مدحه الناس جميعا — وما زال ينحى عليه حتى جعله مرضا كالجبن وعده معطلا للمواهب وقاضيا على ما فى النفس من التطلع الى المجد وفرق بينه وبين أدب المعاملة قولا وفعلا فهو قد جعل للحياء موضعا حيث لا يبعد عن دائرة الادب وحسن المعشر .

ولست ادرى بماذا أصفه وقد كتب في طول العمر فجعله ممكنا متى وفق الانسان وقاية صحته ما لم يحدث له ما لا طاقة له بدفعه من الحوادث الفجائية ولم يرض أن يكون مر السنين طريقا للهرم بل جعل طريقه الامراض الناشئة عن ترك التوقي . وليس قوله هذا بدعا فكم من صبي قشيب الحياة قد اخترمته الامراض حتى قذفت به الى آخر مراحل الحياة . وكم من شيخ أبلى جدة السنين طول العمر ولم يزل جديد الجسم قويه قادرا على معاركة الاحداث . وبعد أن عرف ماذا يجب للجسم من وقاية عرف ماذا يجب للروح من صيانة .

قرأت ذلك فخيل الىّ وأنا في حدود الشيخوخة انى اقطف ازهار الشباب ، وشعرت أنى سأعيش مائة السنة ما عملت بنصيحته الرشيدة التي هى منى النفوس وهواها .

وما أنا والتخصيص فكل موضوعات الكتاب معجب

مونق وكلها حقائق بالغة قربها المؤلف من الأذهان حتى أوشكت أن تتناولها الايدي قبل العقول ، واسترسل فى كل ما طرقه من الموضوعات من غير إملال وحلله تحليلا دقيقا واحاط به من جميع نواحيه فلم يذر شاردة ولا واردة الا افرغها فى قالب سهل ممتنع منسجم يراه الخاصة آية البلاغة ويراه العامة ناصحا أمينا غير متعسف ولا بعيد عن مستوى عقولهم . فالكتاب اذاً كالمرآة يري كل فيه صورة نفسه وعقله وهو كاللبن غذاء ودواء وكالشهد تفكهة وشفاء لايستغنى اديب عن مسامرته ولا يضن معلم بمسايرته ولا يضيق سياسى بمدارسته. وهل يستطيع اديب ان يجمل قوله مصادفا المحزّ إلا اذا عرف طبائع النفوس وارتاد مرابض الاخلاق ليعرف كيف يستثيرها للخير والشر ؟ وهل يستطيع معلم ان يفرغ رحيق علمه في قلوب تلاميذه إلا من جامات علم النفس ليروض جامحها ويلين نافرها ويهتاج ساكنها وهل يستطيع سياسى ان ينزل منزلة من أمة إلا إذا أخذ بها الى مناحى ميولها ؟

تلك هى بعض مزايا الكتاب سردناها لا للتشويق بل لتقرير الحقيقة اعترافا بفضل مؤلفه وتنويها بصدق أثره فى نفوس الآخذين بقواعده . ولما كانت مصر فى نهضتها الحديثة بحاجة الى تلقين ابنائها من المباديء ما يمهد لهم الطريق لمسابقة الأمم الحية فقد حفزتنى تلك المزايا لترجمته ونشره بين القراء راجيا من المولى القدير ان تجيء مطالعته بما يتجاوز المأمول من النفع والفائدة .

القسم الاول

الفضائل

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

الاعتماد على النفس

إذا قل عدد السعداء فى هـذا العالم فما هو إلا لأن الكثيرين ممن فى قدرتهم تحصيل السعادة قد أغفلوا التذرع بما توافر عندهم من الفضائل العالية التى أهملوا ممارستها ، فكان شأنها شأن النبت الكريم إذا لم تتعهده بوسائل النماء ذَوَى فلم يعد صالحاً لغير الألقاء فى أتون النار أو على قارعة الطريق

السعادة لا تأتي اليك منقادة أيها الجادّ فى أثرها الخاطب ودها . بل هي مثل أعلى يجب أن تتجه نحوه عامداً وأن ترنو إليه صاعداً . فاذا كان بين الناس من ظفر بها من غير أن يحمل نفسه عناء طلبها ولم يجهدها فى سبيل الوصول إليها فانما شأنه من الشؤون النادرة التى لا حكم لها والمعجزات الجديرة بأن يبهت الانسان أمامها دهشة وعجبا

السعادة طائر سريع التحفز للطيران . إذا تعمدت أن تصيده لتحتازه سمعك ثم راآك تهرول نحوه فيتركك حتي إذا

دنوت منه لم تكن إلا غمضة الطرف ويختفى فى الأدغال أو يتوارى بين الغصون الكثيفة المتلاحمة المتشابكة أو يتغلغل فى أحشاء الطرقات والوهاد والنجاد، طائراً فترة من الزمن يلوح بعدها بجوارك ليختفى مرة ثانية عن نظرك، فاذا تتبعته بجهودك لتوقعه فى فخك وأمضيت زمنا فى مواصلة الجد والتعب فلا يتم لك قنصه إلا وتكون قد صرفت الكثير من الحيلة والصبر والمثابرة لبلوغ هذا القصد وإصابة هذا المرمى

اللازم لكى يبلغ المرء أمنيته من اقتناص طائر السعادة أن يتأهب لها تأهب الصياد لقنص قنيصته فيتسلح بالسلاح البعيد المرمى الذى لا يخطىء الغرض، ويلبس الثياب الجيدة المصونة التى لا يؤثر فيها الأعصار إذا هبّ، فضلا عن متانة أساطين ووثوق أركان يستطيع بها الصعود فى الجبال والربوات وتسلق المرتفعات والجدران، ورضى نفس ورحب صدر يمكنانه من مغالبة خور العزيمة وثبوط الهمة ويأس النفس، ورشاقة حركة وجودة نظر تعاونانه على الترصد والمراقبة وسرعة الحركة من مكان إلى مكان. فاذا توافرت فيه هذه الشرائط على جملتها وهي متوافرة مع صدق الارادة ومضاء العزيمة امتطى صهوة السعد وسار اختيالا على رقاب النظراء والانداد المنافسين

الاعتماد على النفس أس الفضائل المطلوبة للنجاح فى الحياة

ولتحصيل السعادة المرموقة من جميع الناس . فكن دائما عند حسن ظنك بسعادة جدك وطلوع نجمك على أفق الفلاح وراقب المستقبل بثبات الجأش وقوة الأمل ، إذ المستقبل مستودع لصنوف السعادة التى تهيؤها الحياة للمصطفوين من بنى الانسان بفضل الاعتماد على النفس والثقة بها .

أما إذ قارنت نفسك بغيرك وحكمت عليها بأنها دون نفوسهم همة وإقداماً وقدرة على حل المعضلات فانك تصبح من الأخسرين أعمالا الذين إذا أراد غيرهم تسخيرهم في مصالحهم تقدموا إليهم مختارين وتحملوا بغض التسخير صاغرين وأصبحوا فى أيديهم آلات لأهوائهم ووسائل لشهواتهم ، وشبوا وشابوا بالأعمال الحقيرة قانعين وعند أفقهم حتى منتهى الأجل واقفين

فرض عليك نحو نفسك أن تروّضها على طلب العلا والتماس المجد وأن تعودها قول ما يأتى صباحَ مساءَ حتى يصير لها خلة وديدنا : « إننى إنسان أي كائن مفكر عاقل قدير على مواجهة المشكلات بالحلول الصحيحة وتذليل العقبات بالعزم الماضى والنظر الصادق . إنى أميز بين الطيب والخبيث والصحيح والكاذب وأفهم معنى الحسن ومعنى القبح ، ولى من الفهم والذكاء ما هو أقوى وأحد مما لغيرى منهما ، وليس عقلى دون عقولهم بل أنه إذا لم يعدلها فهو حتما أرجح منها عند الموازنة . وبالحجر الفاتن

يعرف الذهب وبالاحتكاك يظهر خبث الحديد . ثم إن لى من قوة الابتكار وبعد النظر ما يكفل النجح لاعمالى فأنا لست إذن بحاجة إلى قائد ولا مرشد وإنما أنا قائد نفسى ومرشدها والقادر وحدى على منازلة من يرومون تسخيرى فى أعمالهم واخضاع قواى وجهودى لاحكامهم ليبتزوا منها الفوائد دونى لأشخاصهم وأظل انا من المحرومين »

فليلهج لسانك بهـذه الجمل مراراً وتكراراً ولا تخش تعبا ولا مللا ، فانك لا تلبث ان تقدر نفسك قدرها . ومتى قدرتهـا قدرها فقد اعتمدت عليهـا واعتددت بها واتخذتها سلما تتوقل به إلى الغايات السامية والمقاصد البعيدة

العقبة الكؤود فى سبيل الاعتماد على النفس هي : الحياء . والحياء آفة نفسية تجب المبادرة بعلاجها وهي تصيب بالشلل أقوى الحركات وأبعدها مدى في ميدان الصلوح والفائدة . وتقتل قوة الابتكار قبل أن تنقف عن المشاريع الصالحة وتكسر جناح الهمة إذا انبعثت إلى المقاصد الشريفة والغايات السنية . فقمين براغب التوفيق للسعادة فى الحياة أن يقاوم بكل قواه المادية والأدبية الأضرار الفادحة التى تنشأ عن تلك الحالة النفسية

ومن أيسر وسائل العلاج لها ، إذا منيت بها أيها القاريء معاشرة الأصحاب المعروفين بسلامة النفس من فتك جراثيمها .

فلا تختلف إذن إلا إلى من تعتقد أنهم من الثقات والأساطين فى الاعتماد على النفس، الذين لا تزعزعهم الحوادث ولا يأخذهم الحياء فى حضرة من لم يألفوا رؤيته أو محادثته. وبمثل هذا الاختلاف وهذه المعاشرة ينطبع خلقهم الجريء فى نفسك شيئاً فشيئاً بطريق العدوى الخلقية التى هى بعبارة أوضح حب الاقتداء فلا تلبث أن ترى أنك قد تحولت من الحياء والاستكانة إلى الجرأة والاندفاع وأن نفسك انطبعت بطابع نفوسهم الجريئة المقدامة وأنها اكتسبت منها بتأثير القدوة فضائل الجد والثبات والاقدام.

ومن ثمّ تستطيع أن تكون قوى الجأش ثابت القدم إزاء الناس فى حالتى مقابلتك أو استقبالك إياهم، وأن تذود عن مكانك ومكانتك بينهم، وأن تدعو منهم إلى احترامك من تبدو منه نحوك لفتات عدم الاهتمام أو سوء التقدير، وأن تدافع على الجملة عن حقوقك المفروضة الأداء منهم إليك وأن تدفعهم إلى اعتبار أنك إذا لم تكن أعلى منهم قدراً فلا أقل من أن تكون من أندادهم ونظرائهم. وصفوة القول أن التعلم بالقدوة والمثل الصالح هو خير الوسائل لتهذيب الأخلاق وتقويم النفوس، لأن القدوة والمثل تتلخص فيهما معنى الحياة ولأنهما يغنيان عن الدرس والبحث الطويلين.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

وإنك لترى في الناس طراً ، إما لسبب فطرى أو لنقص فى التربيـة ، نزعة مخجلة وميـلا مؤسفاً إلى الخضـوع والخنوع للمظاهر الباطلة والشارات الخارجية ، ولو لم تكن ذات قيمة فى الحقيقة . بل أنك لتراهم عبدة الصور الكاذبة والاوضاع المبنية على التصنع بل هم يذهبون إلى تقديس الجمـادات التى لا حول لها ولا حيلة ، يتساوى فى هذا التقديس الحجر الأصم والبردة القذرة والمسمار الذى علته طبقات الصدأ . إذا نزل أحدهم فى فندق أو دخل عيادة طبيب أو انساب فى بيت غاب عنه أصحابه وجدته يتـأثر بعوامل مختلفة : فسذاجـة أمتعة الطبيب ومنظرها الذى يدل على الهيبة والجد يزجي إلى نفسه أثراً غير الذى يزجيه منظر الأمتعة فى الفندق ، فتراه يمشى في دار الطبيب متعثراً متردداً يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، بخلافه فى غير هـذه الدار حيث لا يعمل حساباً ما في سـيره وتجواله بداخلها لما يصادفه فيها ، حتى أنه ليمشى حيث شاء مشدداً وطأ الاقدام على الأرض بعكسه متحسساً متلمساً في دار الطبيب

فواجب عليك أن تعتق رقبتك من نير ذلك التأثير الذى لا معنى له ولا مسوغ ولا يهتك شيء من المرائى الفتانة والمناظر المدهشة . فلا يكن لعقد اللؤلؤ منوطا بجيد الحسناء ولا لسيارة الغنى أو السرى تنهب الأرض نهبـا تأثير ما في نفسك بل أطل

التأمل فى الأشخاص والأشياء التى تعرض لك حيث تكون وضع كلا منها فى مكانه اللائق به فأن وضعك الأشياء فى مواضعها وإيقافك إياها عند حدودها يستأصل من نفسك جذور الخوف والوجل والحياء ويغرس فى مكانها الاقدام وقوة العزم

وسواء أكنت من أهل الحياء أم لم تكن فلا تقبلن آراء غيرك قضية مسلمة ، ولا تأمن إلى اللفظ المبرقش الذى يخفى الكذب والتصنع تحت طلائه الفتان والتفت الى الجمل التى تعلو فيها نبرات الصوت فربما كانت تستر أغراضاً خاصة وشهوات سافلة . وعلى الجملة لا تأخذ بكل ما يلقي عليك من القول اعتباطا بل قسه بمعيار التأمل الصحيح ثم احكم على الغرض الذى يرمي قائله اليه أشريف هو أم لا يتفق مع الكرامة

ولا تعتمد فى استظهار صواب الأمور وخطأها ، صدقها وكذبها إلا على بصرك وبصيرتك بالنظر الصادق والفكر الثاقب . واعلم أن لا حق لأحد فى احترامك إياه إلا بقدر ما يمتاز به من العلم والخلال الفاضلة ، وإلا فلا تعره من اهتمامك إلا بقدر ما يستحق . فلك أن تؤمن على قوله ولك أن لا تأبه له وإنما بشرط أن تبنى حكمك فى الحالتين على النزاهة وصدق الرأى وحسن القصد بعد الروية وإمعان النظر

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

وقمين بك إذا جاءك امرؤ ليؤثر فيك بقوة من قواه الخلقية ويحاول أن يخضعك له ويسيطر عليك أن تفحص أمره بالدقة لعله يكون مخاتلا يعالج أن يخدعك . فاذا لم يكن كذلك فاستطلع كل أحواله حتى إذا بدا لك مكان ضعيف أو ثلمة صغيرة فى الدرع اللامع المتين الذى لبسه لمصاولتك فبادر بمقاطعته والبعد عنه وإظهار عدم الثقة به ، وبالغ فى ذلك كل المبالغة إذا لاح لك فى خلقه ضعف حادث أو ثلمة جديدة . فأنك لا تلبث أن تحس بقوة تتولد فى نفسك وتذهب بك صعداً إلى الغايات العليا ، بل لاتلبث أن تشعر أنك بحاجة إلى رفع رأسك وإعطاء نظرك قوة الثبات والشخوص فى المرئيات وجعل صوتك جهورياً وأوضاع جسمك بحيث تؤدي معنى الهمة والحزم والوقار

اذا أنس فيك ذلك المرء هذه الفضائل فانه لايلبث أن تأخذه آخذة الدهش منك والحيرة فى أمرك . فلا يلبث أن يكبر شأنك وينصاع لارادتك أو أن يتقهقر من حضرتك مقراً بالعجز عن مصاولتك في ميدان الحياة ، غير مترفع عن احتمال الضيم بتسخيرك اياه فى عملك على وجه ما من وجوه التسخير ولا متمنع من اتخاذ أوامرك دستوراً لأعماله

كتب الكاتب المعروف (ليون دوديه) فى مقال نشرته جريدة (الجورنال) الباريسية فقال : « مما ينبغي للمرء أن

يناجى به نفسه ويذيعه بين الناس أنه لا فضل لأحد على الآخر ولا فرق فى المبدأ بينهما . فرئيس مستشارى محكمة الاستئناف لا فرق بينه وبين بائع الكستنة المنزوى فى منعطف الطريق ، وأى رجل له أن ينتحل لنفسه مكانة يسمو بها عليك لمجرد أنه مكتس بكساء التشريف ومزين الصدر بالشارات والأوسمة ؟ »

ولا تنس ما يترتب على ترددك فى القول والحركة من حمل محدثك على عدم الاقتناع بقولك . فواجب عليك اذا أردت أن تنال منه مبتغاك او ان تحمله على التسليم بقولك ان تراعي السمت والتؤدة فى قولك وفعلك . فقد قيل إن المرء الذى بز الاقران فى العلم والعرفان لا يساوى الصفر فى مظاهر الاجتماع ما دام عاجزاً عن التعبير عن مراده

واعلم ان سهولة التعبير تكتسب بالمران . والمران لا يتم لك الا اذا كان محفوظك من الكلم كثيراً غزيراً لتستطيع الانفاق منه على حاجتك من التعبير . واذا كان لك من الوقت متسع فعليك وانت تطالع الكتب ان تستخرج منها الألفاظ والجمل التى يروقك حسنها ومنطقها وان تقيد اوابدها فى مذكرة ثم تكرر تلاوتها حتى تستقر في حافظتك وتنتقش فى ذهنك بلا تكلف . وثق بعد هذا ان الفكرة اذا حفت بها جموع من الألفاظ والتعابير المختارة المنتقاة كان الأفصاح عنها فيضاً وعفو الساعة

واعتبر بالخطباء ، فانهم اذا تدفقت التعابير من افواههم بلا تردد ولا خوف فما ذاك الا لأنهم يستمدونها من مستودع محفوظاتهم التي اتخذوها رأس مال مدخر عندهم ينفقون منه عند العوز . فاذا أردت أن تتشبه بهم فعليك أن تملأ خزائن حافظتك بالألفاظ الرنانة والتعابير الممتعة والصيغ الدقيقة والنماذج المحكمة يفلح سعيك ويثمر جهدك اصابة الغرض ونيل المراد

وقد عني الافرنج بجمع الألفاظ الخطابية والتعابير المساعدة على حسن الألقاء فى كتب عقدوا لها العناوين لذلك الغرض نذكر منها على سبيل التمثيل كتاباً للعلامة (أميل أميت) نشره الكتبي (هـ . جون) بعنوان : « كيفية العلم بأساليب الكلام على مسمع من الجمهور والبحث بالكتابة فى الشؤون اليوميه » فقد جمع فيه ١٩٠٠٠ تعبير رتبها بحسب حروف الهجاء وجعل لها مقدمة ممتعة ضمنها قواعد تهيء المتعلم للتحرير والخطابة من غير مرشد ولا معلم (١)

ومتى اجتمع في حافظتك ما يفى بحاجة التعبير بالقول والتحرير فروّض نفسك على الالقاء . وخير وسائل الترويض أن

---

(١) ولقد فطن في مصر الى فائدة اختيار الالفاظ والتعابير صاحب « تقويم مسعود » فى تقاويمه الثلاثة التى أصدرها من سنة ١٣٣٣ : ١٣٣٥ الهجرية اذ أورد فيها من القرآن الكريم وباقى كتب الادب والتاريخ آيات وجملا تقوى حجة المتكلم والكاتب وتفتق عبارتهما

تعمد إلى كتاب فتفتحه حيث شئت وتشرع فى التلاوة فاذا وقفت عند جملة مفيدة فاقرأها بتأن وتؤدة ثم أعد تلاوتها ثانياً وثالثاً ثم اغلق الكتاب واشرح تلك الجملة بصوت مرتفع حريصا على ترتيب الأفكار وصون العبارات من آفات التعقيد والتكرار والتردد مجانبا التكلف والمبالغة والمجون وواضعا كل لفظ وجملة فى المواضع اللائقة بهما . فأذا لم توفق بعد هذا لأن تكون خطيبا مصقعا فلا أقل من أن تصبح ذلق اللسان، لا تجد فى المجتمعات صعوبة ما فى التعبير عن مرادك

ومن الواجب فى الألقاء خطيبا كنت أو محدثا أن تملك عنان القول وتمسكه من ناصيته وأن يشعر سامعه بأنه من ابتكارك. فانك بتصرفك فيه على ما تشاء وتهوى تجعل السامعين لك يحسون بالفارق العظيم بينك وبينهم . قال أحدهم : قصدت رجلا من ملوك الكلام المشهورين بالبلاغه والفصاحة فرأيته وقد حف به فى كوخه الحقير الوزراء والعظماء كأن على رؤوسهم الطير فبهت لهذا المنظر وعجبت لسلطان العقل كيف يستعبد النفوس والقلوب .

فثابر أيها القارىء الكريم على العمل في سبيل العلم فأن العلم يرفع من شأن المرء ويحط من قوة الحظ والطالع ، لأن طريق العلم مشروع معلوم وطريق الحظ ملتو مجهول . وفرق بين المحجة

الواضحة والتيه المضل ، وفرق بين الأمن والسلام فى الأول والخطر والضرر فى الثانى . فمل إلى طريق العلم وسر فيه بقدم ثابتة وثقة من يزدرى بالفخاخ والكمائن المنصوبة ولا تعتمد إلا على نفسك فان الجمهور قد فطر على سرعة التصديق . فاذا سلكت ذلك السبيل فأنك لا تلبث أن تراه موقناً بايمانك مؤمناً بمذهبك ملتمساً منك أن تكون له خير مرشد ومعوان على الوصول إلى أوج الجاه والسعادة

ضبط النفس

الخصلة الثانية من الخصال التى يجب أن يتحلى بها طالب الفوز فى معترك الحياة ضبط النفس والهيمنة على تصرفاتها . وهي من أمهات الخصال التى لأهميتها وصدق أثرها فى حال المرء ومستقبله عقد لها الدكتور (تولوز) جملة فصول فى تواليفه التى صنفها فى الخصال والفضائل الباعثة على النجاح

إذا تأثرت نفس المرء بعامل طرآني كالفرح والخوف والحب والغضب فشعورها بأحد هذه العوامل سرعان ما يتحول إلى ظاهرة فسيولوجية عضوية هى الحركة . فالفرح والخوف والحب والغضب يعبر المرء عنها بحركات لا تسيطر الارادة عليها ولا للنفس عهد سابق بها ، إلا أن الحركة المنبعثة عن الفرح منها لا تشبه على وجه ما الحركة الناجمة عن الخوف ، وهكذا الشأن بالنسبة لما يترتب من الحركات على الشعور النفسي بأحد العوامل والمؤثرات الطرآنية

فخليق بمن توافرت فيه خصال أبطال الأعمال الموفقين بها للنجاح المتواصل فى مشاريعهم وتصرفاتهم أن يكونوا من قوة الارادة بحيث يهيمنون علي تلك الحركات ويضبطونها في كل مظاهرها المحسوسة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

قال الدكتور (تولوز) : « فى قدرة المرء أن يصرف همته نحو أمر ما وان يفرغ لاتمامه كل قواه ليكفل النجاح المرجو له ، ولكنه لن يحرز الفوز التام فيه إلا إذا ضبط نفسه وامسك بعنانها حتى لا تنطلق إلى ما لا يليق . وهذا يستدعي حتما ان لا يكون لانفعالها بالمؤثرات الخارجية أثر فى تصرفاته المبنية على الادراك »

وقال الدكتور (فريدو) الباحث الخلقي المعروف فى كتابه (الشهوات والميول) : « لما كان أول شروط الهمة والنجاح فى العمل أن يهيمن المرء على شعوره فقد صار حقاً عليه أن يجعل رائده فى تصرفاته السيادة المطلقة على هذا الشعور ولما كان الشعور أصلا وتأثر النفس بالمؤثرات المختلفة فرعاً عن شعورها بها فأول ما يجب على المرء لضبط حركاته التى هي النتيجة الملازمة لها أن يروض شعوره على الطاعة لأوامره والخضوع لحكمه »

إن الرجل الغضوب المستبد القاسي ، إنما هو الضعيف الذى يجعل من ضعفه منفذاً يسلك منه المناظرون والمنافسون إلى سبقه فى حلبة النجاح ، والتفوق عليه فى ميدان نيل المقاصد وإصابة الأغراض . والرجل الذى من هذا الطراز ، هو الذى تتحكم فيه الأعصاب تحكما يقرب من الاستعباد ، وتنطمس عنده معالم الفهم والادراك . ذلك الرجل لا يلبث أن يصبح مقيداً بأصفاد

الشهوات والميول النفسية ، وعبداً خاضعاً خانعاً لنقائصه الخلقية ورذائله الطبعية ، إذا وقع حادث من تافهات الحوادث دان له صاغراً عن اعتقاد وسلم به تسليما اعمى ، وإذا نزل عليه وحي من أحد ولو بمحظور آمن به وصدق ودعا إليه دعوة المحبذ المثوب ، غير مبال من أين نزل عليه هذا الوحي ولا بمحكم إدراكه فى صواب ما جاء به أو خطأه ، إذ لا إدراك عنده يفهم به حقائق الأشياء ، ولا تمييز يميز به الغث من السمين ولا الضار من النافع .

أمثال ذلك الرجل كثيرون تعرفهم بسيماهم ، فاتهم هم الذين لا يأبون الضيم ، ولا يترفعون عن الدنايا ، بل يرضون بذلة الاستكانة والاستعباد فى أخلاقهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية . ذلك الرجل إذا تقمصت به نفسك ، فحاذر وبادر بأن تشهر عليه حرباً عواناً . وكن ثبت الجنان مكيثاً فى مصاولته ، فانك لن تتغلب عليه إلا بالثبات والشجاعة والاقدام

واعلم أن المرء أو بالحرى خلقه ، يتنازعه صنفان من العوامل المؤثرة فى النفس : عوامل جائرة متحكمة كالخوف والفزع والكدر . وكل منها يذل النفس ويخضعها للتأثير السارى اليها من العوامل المؤثرة ، وعوامل مهيجة مثيرة ترتفع بنشاطها وقوتها فوق هذا العامل . لذا قال الحكماء الذين ذهبوا إلى هذا

التقسيم ، إن العوامل الأولى تجعل المرء فريسة لما تنتجه من الأضرار والآفات ، بينما الثانية تصونه من أذاها . ومن ثم كان لزاماً على البصير بأمور نفسه ، أن يلابس للعوامل الأولى جلد النمر وان يكشر لها عن انيابه ، وان لا يدع لها منالا منه ولا ملتمسا وأن يستفيد من مزايا وفور الثانية له ، فيحكم العقل والذوق فى تسييرها على النهج الذى إذا لم تحد عنه قيد أنملة ، تكن من مقومات إرادته ومعززاتها بالقوة والبأس .

إذا وقع حادث ما ، كأن التقيت فى طريقك بأحد ، أو سمعت كلمة من محدث ، وأثر هذا الحادث فى نفسك تأثيراً جعلك تشعر بخوف أو بحزن أو بكدر ، فما هو خليق بك أن تعمله إزاء ذلك أن تمسك فى الحال بعنان شعورك ، فلا تدعه يجمح فى ميدان التأثر ، والتمس بكل ما توافر فيك من قوة عقل وسلامة فهم امراً واحداً ، وهو اعتبارك الأثر الطارىء على نفسك كأنه لم يكن ، أو كأنه من همتك بمنزلة الثرى من الثريا وأنه من سرعة الزوال بحيث لا يخرج نفسك من سكونها وتؤدتها اذاً يحق لك أن تناجى نفسك بقولك : « ما هي إلا ساعة حتى يزول كل أثر للطارىء الذى طرأ وتعود المياه إلى مجاريها ، وما هى إلا هنيهة حتى استأنف عملى بالهمة التى عاقنى عن اطراد السير فى طريقها ذلك الحادث الفجائي ، ويزول ذلك الاضطراب

الوقتى الذى حاول أن يغشاني ، ويسيطر على إرادتى ويستبد بى ويصدفنى عن السداد فى أمرى . إننى لا أحب التطوع فيما يدفعنى اليه الانبعاث النفسي ، ولا الرضوخ لحكم الشهوات الجائرة والميول المتحكمة ، ولا مناص لى من العمل المتعاقب ساعتين لكي أنسى ذلك الحادث التافه ، وأدرجه فى الاكفان وأجر عليه ذيول النسيان ، فلا أعمل »

ولك ، إذا شعرت بعقارب اليأس والقنوط وقد دبت إلى نفسك ، ان تثير فيها ذكرى الخصال المناقضة لها : كالأمل والهمة والاقدام . واصرف كل خاطرك إلى هذه الخصال ، غير مفكر فيما عداها ، وقلبها على وجوهها المختلفة ، وحللها تحليلا دقيقاً فى ذهنك . فاذكر كيف تتولد فى النفس ، وكيف تشتد وتنمو ، وكيف تستحيل إلى قوة فعالة تكتسح امامها الصعوبات وكيف تساعد المرء الذى ملك زمامها على القيام بالأعمال الجليلة فى هذه الحياة .

تفكر فى ذلك كله ، لا يثنك عنه ثان ولا يصرفك عنه صارف . فأنك متى تحولت من الأفكار المثبطة ، ومن الخصال الميئسة إلى الخصال المشجعة بالأمل ، لا تلبث ان ترى هذه وقد حلت محل تلك ، قبل ان تبدل من سكونك او تؤثر فى تؤدتك وطمأنينة نفسك

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

الفرح والحماس والحب ، وغيرها من العوامل المثيرة للنشاط ينبغى أن توضع تحت ضابط ، وأن لا يطلق لها العنان إلا بحساب . نعم ان هذه العواطف تدخل فى باب المنشطات التى لا بد منها للنفس ، وانها الجذوة التى تضطرم بها الهمم والحلية التى تتزين بها الأعمال ، وأن من الواجب الاحتفاظ بها والحرص عليها ، كينابيع تستقى الهمة منها ماء القوة والنشاط ، غير أنه ينبغى ابادة جراثيم مظاهرها الخارجية من افراط فى الحركات وتكلف ومبالغة فى القول . إن لك أن تثور وتحمس لفكرة ما من الفكر ، وهو أمر لا مفر منه لكل امرىء ، ولكن احرص الحرص كله على الاحتفاظ بما ينجم عنها من قوة فعالة ، وأثر يدفع بك الى التهور فى الحماس ، لأنك اذا لم تحتفظ بهما لنفسك ، ورجحت أن تنفقهما فيما لا يجديك نفعاً من حركات لا ضابط لها ، وكلمات لم تعمل لها حساباً ، فأنما تكون كمن يقطع الجسر ، فيغمر الأرض بماء لم تكن فى حاجة اليه لريها واصلاحها

فكن على عواطفك وعوامل نفسك سيداً لا مسوداً لها وكن تجاهها حراً طليقاً ، لا عبداً أسيراً .

واعلم ان كل حركة فى العالم تقتضي اضاعة جانب من النشاط والقوة ، وان اقتصاد هذه الحركة ذاتها داع الى توافرهما ، وان هذا التوافر مما يحسن تعهده بالزيادة وتوسيع النطاق . ذلك

لأن القصد في القوة والادخار من النشاط ، كالقصد من المال ، يفيد فى ظروف كثيرة من ظروف هذه الحياة .

قال الدكتور فريدو : « النشاط هو عين القوة ، ولا غنى لامرىء عنه ويكتسب بالتوفير والقصد . وصاحب النشاط اذا تهيأ لأداء عمل أعد له ما يلزم من القوى وبذل فى سبيل القيام به ما يدعى بالقوى الطبعية ، ولكنه اذا ظل وهو يأخذ للعمل أهبته ، واقفاً عند حده وبدا للناظر كأنه قد شرع فى العمل وهو لم يشرع فيه بعد وجعل القوى تتراكم بعضها فوق بعض ، كان أشبه شيء بمرجل الآلة البخارية ، يتراكم البخار فيه ويزداد بهذا التراكم حرارة ، ثم لا يستطيع نفوذاً الى الخارج فتزداد فيه قابلية الامتداد والانتشار . وهكذا المرء المتحمس السريع الاندفاع ، ينفق قواه كلما انتجها ، فيكون نشاطها ضعيفاً وان اندفعت فى باديء الامر بشدة ، بخلاف المرء الذى يريد ان يكون قويا فعالا ، فانه يوفر ما يحصل له من القوة شيئاً فشيئا ، ولا يتفق مما يتوافر له منها ذرة واحدة لأول فرصة تلوح له ، ولكنه يلم شعثه ويجمع متفرقه ، ويتحفز عند سنوح الفرصة الملائمة للوثبة عليها ، بنشاط وهمة يناسبان ما عنده من القوى. وهذا هو السر فى أنك ترى رجلا يبدو لك أول وهلة أنه ضعيف خائر العزيمة ، لا يستطيع القيام بعمل ما ، فاذا هو لما

أدخره من القوة ، وأبرمه من التدبير لانفاقهما فى اصطياد الفرص السانحة ، قد لاح لك وكأنه من الجبابرة الاشداء » .

إن انتصار الأرادة بهـذا المثال على الميول والـنزعات والشهوات ، وتغلبها على الغرائز الفطرية ، تقوّم فى المرء معوج تميزه وحكمه ، وتنقذه من استبداد مشاعره ، وتؤذن له باعتزام الامور ، على علم وبينة من أسبابهـا جاعلا رائده في ذلك كله العقل والعدل .

فعليك أيها القارىء بالقصد فى حركاتك ، بحيث لا تكون فيما تؤديه منها كالمأخوذ بنوبة الأعصاب ، لا يكف عن إفناء قوته فيما لا يفيد من الحركة ، ولا تدفع بذراعيك ولا بقدميك إلى الامام ، ولا تنفض يديك ولا تصفق بهما من غير باعث ، لأن مظاهر الهيبة التى تدعو إلى احترامك تتوقف كلها على السكون والاستقرار وحسن السمت ، ولا تغمز بعينيك ولا تحرك جفونك ولا ترفع حاجبيك فأن إحدى هذه الحركات قد تخلك هيئة تدعو إلى السخرية بك والانتقاد عليك ، ولا تضرب بقدميك الأرض تعزز بذلك أدلتك وتؤيد قولك أو تعلن ما يخامرك من الجزع وقلة الصبر ، فلا أدل من هـذا على ضعف حجتك وقلة ثباتك .

وتوخّ الاعتدال فى قولك والاتئـاد فى ايراد الـكلمات

وتعقيب الجملة بالجملة . وتجنب الغضب والتهور فى الحديث ، إذا سمعت من محدثك ما يدل على انحرافه عن جادة الصواب أو على تخطيه حدود الأدب اللائق . ولا تجعل من غضبك مسرباً إلى بذىء القول أو عنيفه ، فربما فرطت منك الكلمة فى ساعة الغضب والتهور فتأسف فى ساعة السكون وحساب النفس لصدورها من مثلك . وكسور اللفظ لا تجبر وكلوم الكلام لا تؤسى ، كما نبه على ذلك الحكماء . وحقيق بك إذا سمعت من خصمك أو مناظرك ، القول الفاحش أو الزعم الباطل أو الرأى الفائل ، أن تتلقاه بالفتور ، وما هذا الفتور إلا السكون فى استهتار واحتقار . وحافظ على صوتك أثناء الجدل مع محدثك الذي هذا شأنه معك ، فلا تجعل شيئاً منه ينمّ على مايخامر نفسك من التأثر ، بل قل ما شئت أن تقوله فى رفعة لا تهبط منها اليه فى دركه الأسفل الذى تنكس فيه . عليك أن تفعل ذلك واحرص عليه كل الحرص وعضّ عليه بالنواجذ . فأذا بذلك الذى حاول أن يلوثك بقذر القول قد اضطر أن يعترف لك بالسيادة والفوق عليه ، وإذا بك قد أدركت أنه لم يلجأ إلى ما لجأ اليه من التهور والجهر بفاحش القول وهرائه إلا ليخفى ما أصابه من ذل الهزيمة أمامك . والحذر كل الحذر من حمل الضغينة على أحد ما بين جنبيك ، فليس بين الأعباء ما هو أثقل من هذا العبء .

فاهت بهذه الحكمة المأثورة الكاتبة المفكرة مدام دى سيفينييه ولقد أصابت بها شاكلة الصواب والحق .

وأحر بك ألا تجعل للضجر والسأم سبيلا إلى نفسك لأن للضجر والسأم من سيء الأثر ما يذهب برونق الجسم وهيبته . والواجب عليك أن تتخذه مثالا ماثلا لك على الدوام ، أن لا يرى الناس من هيئتك إلا ما يدل على السكينة والاطمئنان والسمت ، لما تلقيه هذه الخلال فى روعهم من رفعة شأنك وسمو مقامك وفوقك عليهم ، وأنك منهم على الجملة مناط الثريا .

وجانب فى حديثك معهم ما يفيد مداخلة الشك لك فيما تقوله ، بل ليكن قولك مصوغاً في قالب اليقين والتأكيد ، ولا تدع أحداً يستشف من خلال كلامك ان شيئاً من القنوط أو خور العزيمة قد تطرق إلى نفسك . ذلك لأنك إذا أبديت شيئا من التردد والخنس فى عزمك ، أو جهرت بما يفيد فزعك مما اعترض لك أو يعترض من المصاعب ، أيقظت في نفس الغير عدم الثقة بك وفقدت بغفلتك هذه صولجان الامر والنهى الذى كنت قابضا عليه بيدك .

ومفروض عليك فرض عين أن تجهل الخوف بأن تنفيه عن نفسك ، وبأن لا تجعل الجبانة والجزع يتسربان اليها . فأن الجبانة رذيلة مرذولة وفضيحة ممقوت صاحبها . ونقيض الجبانة

الشجاعة التى ما تحلى بحليتها امرؤ إلا وكان موضع الاعجاب ، قال (لوك) الحكيم الخلقى : « تسطير الكلم على الورق المضطرب بالريح أيسر من تثبيت البديهة في النفس المضطربة بالخوف » .

وإذا كنت تريد أن تقطع مفازة الحياة إلى أقصى مداها فلا تجعل لشيء ما ، حتى الموت ، سبيلا إلى نفسك . فقد قال الحكيم سنيكة الأندلسى : « من خاف الموت فلن يقوم بعمل الرجل الحي » .

كن إزاء النكبات وأثناء عصف الدهر بك صبوراً خليّ القلب من أثر الحزن والابتئاس ، واثبت لحملاته ونوازله ثبات قوىّ الايمان بالظفر ، بل قابلها بالاستخفاف وعدم المبالاة ، لأنك إذا أزعجك هول الموقف فلجأت إلى الشكوي ، أثرت فى النفوس عاطفة الحنان عليك والرثاء لك ولكن الحنان والرثاء لا يسيران فى طريق واحد مع تسليم صاحبهما لك بحق الرياسة عليه ، ولن يتفقا مع هذا التسليم أبد الدهر . واعتبر بأمثال المجربين وحكمهم البالغة في بيان ضرر الشكوى والصياح من البلوى ودلالتهما على ضعف إرادة صاحبها وخور عزيمته . وثق كل الوثوق أن من يشكو بثه لا يرى المشكو اليه فيه سوى أنه رجل فائل الرأى ضعيف الأرادة والعزيمة لا يستطيع أن يكون أبداً من المتفوقين ، وأنه إذا أتاه الحظ فارتفع عن الطبقة الدنيا

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

زاحمه بالمناكب، حيث يرتفع ،الأنداد والنظراء

لا تفتح مغاليق صدرك ، إلا للأخصاء من الأهل والأصدقاء . وكن مؤدباً بلا تنطع ، لأن التنطع ينم على ضعة الخلق وجفوة الطبع وفساد الذوق . وكن لطيفاً مؤنساً فى رفعة وهيبة . ويقضي اللطف أحياناً ، أن تكون كالبئر التى لا يسبر لها غور . واجعل نصب عينيك حكمة فولتير الفيلسوف الكبير: « كن ممن لا يحزر لهم سر ولا يتكأ كأحولهم المستطلعون والمتسقطون » وهذا الخلق بصاحب الوظيفة فى الحكومة أليق ، لا نه إذا تكتم الأسرار وحرص على الأخبار ، وإذا جعل الأناة والتؤدة رائدين له فى عمله ضمن لنفسه المهابة والنفوذ وصعد في مدارج النجاح والفلاح

عود نفسك ، حين التأمل فى غريب الحوادث ، اعتبار أنها النتيجة الطبعية لما أودعه الله من القوى العاملة فى الحياة ، واملك قياد نفسك حتى لا يكون للدهش أثر فى وجهك أو فعل فى حركاتك . وعليك بالتأمل لترى أنه لا شيء فى هذا الكون إلا وهو خارق للعادات ، وأنه لا شيء إلا وهو مدرج فى كفن من الأسرار ، وأن ما تعلمه من الحقائق البدهية ما هو إلا قطرة من بحر ما تجهله . سل نفسك لِمَ يفوح من الوردة عبيرها اللطيف ؟ وَلِمَ هى ذات ألوان زاهية باهرة ؟ سلها لِمَ بعض الطيور

يحتوى ريشه الألوان كلها ، على تباينها وتفاوتها . ثم سلها لم الأنهار لا ينضب معينها ، وسلها لمَ حجر الماس متألق السناء ؟ وسل لمَ اللهيب فى الشمس ، والخفقان فى القلب ، والنغمات المطربة فى صوت المغنية تستهوى الأسماع وتأخذ القلوب . بل سل لم هذا الكون ولمَ هذه الحياة !

سل هل انحراف الأشياء عن نظامها الموضوع وخروجها عن النواميس المألوفة ، أشد غموضاً من هذا النظام وهذه النواميس نفسها ؟ كلا ثم كلا . إن كل شيء فى الوجود خارق للعادات ، خارج عن النواميس . فخليق بنا أن نندهش من كل شيء ، وأن لا ندهش من شيء . غير ممكن بقاء الدهش حتى الأبد ، ما لم يكن صاحبه أبله أو مجنوناً ، لهذا كان خليقاً بنا أن نشهد تمثيل الرواية الكبرى لأسرار الكون ، وأن نستفيد بما نستكشفه فى غضون حوادثها من العبر والعظات .

وليعلم أن ما ألفه أهل الزمان من دوران أعمالهم على محور السرعة ، وأن ما انغرز فى طباعهم من حب الظهور فى مظاهر البذخ والنعيم ، وما نراه فى الطرقات من دوام حركتى الذهوب والجيئة ، بما ينشأ عنهما من الضجيج والعجيج ، وما إلى غير هذا من آثار التقدم العمرانى ، قد أهاج العقل البشرى إهاجة عاجت به عن قصد السبيل ، وجعلتنا نعتقد أن هذا الهياج السطحى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

مظهر من مظاهر النشاط والهمة ، وما هو والحق يقال فى شىء منهما . إن اهتمامنا بما لا يفيد من الأمور ، اهتمام فى غير موضعه فمن إضاعة الوقت والنشاط في العبث والباطل ، بل ومن استنزاف ينابيع السكون والأناة اللازمين لنجاحنا فى الحياة أن تثور منا الثائرة وتهيج الأعصاب دفاعاً عن رأى أو هجوما على مذهب ليسا من الآراء والمذاهب العالقة بنا ، أو الواجب علينا أن نأبه لها

إن من صواب الرأي للمرء ، أن ينجمع فى نفسه ويتحفز للوثبة ، أو كما قال العرب فى تعابيرهم القديمة «أن يخرنبق لينباع» فدع عنك الاسترسال فى القول العقيم ، والزم العزلة زمنا مفكراً مدبراً فيما يجب أن تحتاط به لعملك الذى أنت عليه مقبل . فأن الثائرة العصبية لا تلبث أن تنصرف عنك ، فيسكن جأشك ، وتشرع فى عملك بثقة الناجح فيه ، المتخذ له خير الأهبة وأتم العدة

قال بول آدم الضليع فى التربية الخلقية : « من خير الرياضات العقلية وأفضلها : الصمت . فأننا إذا أمسكنا عن فضول الكلام عودنا أنفسنا أن لا نواجه محدثنا إلا بطيب القول ونافعه ومختاره ووقيناها شر السقوط في الغيبة الذميمة الممقوتة ، وعلمناها ألا تفرط فى أسرارها ، ونقشنا فيها آية ـ أن كنوز الأسرار

والأفكار تغنى ضمائرنا من فقر، وتجعل لها ذاتية لا يستهان بها»

لا شيء أجل ولا أجمل من تأثير السكوت، في إعادة العقول الشاردة إلى صوابها، وتبديد الخيالات الباطلة، واسقاط الجاه القائم على غير أساس

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

الارادة

إرادتك الشيء قدرتك على امضائه ، كذا قال الحكماء . ولكن يشترط أن لا يكون المراد فوق طاقة البشر ، أو قريباً من المستحيل ، كأرادتك القمر مثلا فان إنفاذها غير ميسور ابداء . إن ترد شيئاً أرد الصحة ، أرد الثروة ، أرد معاليَ الرتب فأن الصحة والثروة والرتب السنية من الممكنات التى لاتستعصى على الأرادة القوية والعزيمة الماضية . وإن ترد شيئاً أرده بثبات واستمرار فى الأرادة ، لا يعتورهما كلل ولا ملل ، واعمل له بغير وناء ولا خور مقتفياً فيه الخطة التي رسمتها لك إرادتك ، فأن المقاصد التى ترنو اليها لا تلبث أن تجيء اليك منقادة تجرر أذيالها . ولقد قالوا : القصد مغناطيس الأرادة . ويصح أن يقال أيضاً : الأرادة مغناطيس القصد . وما ذلك إلا لأنهما ينجذبان كلاهما بتأثير الآخر

ترى ، وأنت فى الطريق ، رجلا مهيباً فى بزه حسنة وهيئة هيئة ، فتسأل عنه فيقال لك : هو فلان صاحب المصنع الكبير أو المتجر العظيم النافقة في سوقه صنوف البضاعات . تراه مارًا فيقف الناس له إجلالا ويتنحون عن طريقه توقيراً وإكباراً ويستجلون طلعته حباً وإعجاباً ، ويظهرون له من آيات التعظيم ما يطمح لمثله أصحاب الرتب العلية ، والمقامات الشريفة . فاذا استقصيت عنه وتحريت ماضيه منذ نشأته تبين لك أنه إنما كان مع كثير غيره كأستان المشط ولكنه حاز قصب السبق عليهم جميعاً بارادة مرتكزة على دعائم ثلاثة : الصبر ، الاستمرار ، الثبات .

إن فى قدرتك أن تبذل بعض الجهد فى اليوم لكى تكون مريداً ، فاذا فعلت فليس فى فعلك ما يتجاوز طاقتك بوصف أنك إنسان ، بل ربما كان دون قدرتك ، ولكن تراكم الجهود الجزئية اليومية بعضها فوق بعض يتمم الارادة ويعززها بالقوة فتكون أشبه بالحاصل العام لضرب عددين ، يتكون من مجموع الحواصل الجزئية لضرب كل من أرقام المضروب في المضروب فيه .

وقوة تأثير الأرادة لاتتوافر إلا بانساق أجزائها وتناسقها واتباع الخطة المرسومة ، وإخضاع المواهب العقلية والنفسية

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

لمقتضى القواعد والأصول التى وضعها المريد ليبلغ أقصى المدى مما يريد . وغنى عن البيان أن ذلك الرجل الخطير ، صاحب المصنع الكبير ، قد اتبع هذا النهج حينما تصدى لتكوين إرادته . فلما أنشأ يطلب مراده ويطارد قنيصته لم يثن عنانه عن هذا الطلب ثانٍ ولم يصرفه صارف ، بل أخذ سمته اليه لا يحيد عن الجادة قيد أنملة ولا يجور عن القصد يمنة ولا يسرة ولا تسترعي نظره الأسباب الملهية التي تحف به فى طريقه ، بل ظل سائراً بخطوات واسعة ثابتة حتى ظفر فى نهاية الامر بمراده ، وعثر على طلبته التى آلى على نفسه الظفر بها .

إرادة الانسان ، إذا كانت ثمرة العمل والجد ، أشبه شيء بقذيفة المدفع ، لا تعوقها العقبات والحوائل عن الانبعاث دائما إلى الامام ، فاذا اصطدمت بأحدها نفذت فيه . فاذا لم تنفذ وتجاوزته إلى ما بعده فنيت ولكن بعد الايغال فيه . هذا إذا كان الاندفاع بسرعة وعنف . أما إذا كان فى مهل وضعف فأنها لن تضيع ولن تفنى أبداً ، بل يكون شأنها شأن موجة البحر تتراجع إلى الخلف لتندفع ثانياً إلى الأمام بقوة تأكل الحديد وتفنيه .

ان أحوال المرء وأطواره تتغير بدافع من العادة التي ذكروا عنها أنها لا تلبث أن تصبح طبيعة ثانية . فكما أن

القوى البدنيـة تزداد وتتوثق بالرياضـة التدريجية المستمرة ، كذلك القوى النفسية لا تتوافر إلا بترويض النفس عليها . فعليك إن أردت أن تتغلب على نفسك وتسود على غـيرك ، أن تروض نفسك على الأرادة » (راجع كتاب : أصول وقواعد السحر السامى : تأليف إليفاس ليفي)

« لا شيء بمستحيل على وجه الأرض ، إذ أن في الوجود مسالك وطرقاً تؤدى إلى كل غاية . ويكفى أن نكون على إرت من الأرادة لتتوافر لدينا الوسائل » (لاروشفوكو) .

« الأرادة قوة تتسلط على جميع القوى ، إذا وجهت التوجيه الحكيم ، وأرسلت في الطريق القويم » (بوفون)

« الأرادة التى لا تنثنى تعلو كل شيء ، حتى الدهر »

(شانوبريان)

« السر كل السر فى أن تريد بقوة واستمرار ، فان الأرادة الثابتة القويمة تصلح الفاسد وتقمع الشر وتمهد للعمل الصالح ، وعلى قواعدها الوطيدة استقرت الاختراعات والديانات . إذا انبعث خاطرك بفكرة نافعة وأردت الدعوة إليها فكن رب هذه الفكرة ورجلها ، روجها فى سوق الأفكار بكل ما يعن لك من الوسائل ولو صدعت بعملك الناس . وقد يتفق أن تموت قبل أن تثمر فكرتك ثمرها الشهى ، وقبل أن تبصر نتائج ما أحرزت من نجاح

ولكن ثق بأن جهودك لن تذهب بدداً. فأن من صدعتهم بالأعلان عن فكرتك، لسوف يقيمون لك نصبا يخلد ذكراك على مر الأيام » (راجع مقال لوبونوم كريزال في مجلة «الحوادث السياسية والأدبية » الصادرة بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٩٠٥) .

ولقد أجمع الفلاسفة والمفكرون والكتاب، في كل زمان ومكان، على الأقرار بفضل الأرادة ومزاياها التى رفعتها على سائر الفضائل . وكفي بالأرادة فخراً أنه لم يشتهر فى العالم رجل إلا وكانت الأرادة أس صفاته وملاك فضائله . ولا عجب فأنك لن تظفر بأمانيك فى هذا العالم، إذا لم تجعل تلك القوة القاهرة رائد جهودك وقائد أعمالك إلى ما تصبو إليه نفسك من النجاح.

ومما يدعو إلى الأسف أن الذين يعرفون ماهية الأرادة قليل ما هم . لأن سوادهم يخلطون معناها بما يفيد استبداد الرأى والتعسف والتحكم، وكلها نقائص لا تتفق مع الأرادة ولا تماشيها فى طريق . فأن المستبد المتعسف لا يملك العنان الذى يكبح به جماح النفس، ولا يستطيع الدرجان على خطة مرسومة من قبل، ولا يزن الأعمال قبل القيام بها. وإذا خيل أن فيه إرادة فما هي إلا شظايا إرادة مبددة لا جامع لها ولا ضابط . إرادة لا تكاد تبدو آثارها حتى تختفى بسرعة البرق الخاطف فى فحمة الليل. إذا اندفعت فى مضمار، فلا تترك من ورائها سوى غبار

الفشل واليأس. لا تعد الأرادة من القوى الفعالة إلا إذا انضبطت مظاهرها بناموس ثابت ونظام معين، وتوازن سيرها فلم تجُر عن قصد السبيل .

لا ينبغي أن تكون الأرادة وليدة ظروف وقتية أو أسباب زائلة ، ومحتمل أن تكون فى بادىء الأمر ضعيفة ، شأن كل شيء فى بدايته ، غير أنها لكي تكون فعالة صادقة الأثر وقابلة للتحول إلى قوة لا يستهان بها ، لا غنى لها عن النمو الذى لن يتم إلا إذا استمدّ باغتنام الفرص النافعة والنهز الجليلة

ليست الأرادة هبة الطبيعة ولا وحي المصادفة والجزاف بل ولا فطرة يفطر المرء عليها وإنما هى كالأدب والنظافة والصدق وغيرها من الفضائل المكتسبة . وطريق اكتسابها ممهد ممدود لا تعترضه عثرة ولا مزلق ، إذ يكفى للبلوغ إلى مداه الأقصى أن تعتزمها وتصر على تحصيلها . وخير الوسائل لذلك الأيحاء الذاتى أى إيحاء النفس إلى النفس . وهي الطريقة التى جربها الكثيرون فى التبديل من أخلاقهم وأمزجتهم بأخلاق وأمزجة غيرها ، فبانت عن نجاح باهر فى التوفيق للمراد .

خصص لنفسك ساعة من النهار ، ولا نريد بالساعة هنا الزمن الذى طوله ستون دقيقة بل وقتاً ما بذاته ، تنجمع فيه عن الناس وتلزم الوحدة ، بعيداً عن لغط الطريق وأصوات المحدثين

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

ثم اصرف خاطرك كله إلى الأرادة ، وعالج فهمها واستطلع أسرارها وتعرف مزاياها ، حتى يتجلى لك تعريفها بأنها : « القوة التى تحمل المرء على اعتزام أمر أو تركه » وناج نفسك بقولك : « ستكون لى إرادة ، إرادة قوية اكتسح بها الموانع وأزيل العقبات ، إرادة لا تنثنى ، تسمو بى إلى شرائف الرتب ، وتجعلنى من الناس مناط الثريا » . وحذار ، إذا ألقيت بنفسك على فراش النوم ، أن تغمض الطرف قبل إمعان التأمل فى تلك الفكرة وإمرارها بخاطرك مرة تلو أخرى ، حتى يتكيف بها مخك وتمتزج نفسك ويتشبع يقينك ؟ فأنك لا بد مستشعر بانصرافك شطر الغرض الذى ترنو اليه .

وعليك أن تعزز تلك الوسيلة ، وسيلة الأيحاء من النفس إلى النفس ، بأن تعمد إلى ورقة بيضاء فتسطر فيها بخط مجوّف جملا مختلفة من طراز ما يأتى :

١ (لقد ملكت الأرادة من ناصيتها)

٢ (اني لمنفذ ما تأمرنى به إرادتى)

٣ (كلا لن أترك ما اعتزمته بقوة إرادتي)

٤ (إني لمتم كل ما بدأت به نزولا على إرادتى)

٥ (على قوة إرادتى يتوقف نجاحي وظفرى بمرادى) الخ !.

ثم ضع تلك الورقة فى مكان بارز للعيان : أمامك وأنت

جالس إلى مكتبك ، أوفى سريرك وأنت عليه مضطجع . أمعن التأمل فى معانيها كلما التقى بها بصرك ، ولاتحتقر هذا العمل ولا تمله إلى أن تنطبع تلك المعاني فى حافظتك ، فأنك بعون الله وحسن إمداده حاصل على مرادك ، ظافر بحاجتك من استقرار الأرادة فى نفسك ، وصيرورتها طبيعة ثانية فيك .

وعلماء النفس يذهبون إلى أن للعواطف أثراً فعالا فى بروز الأرادة وتمتينها . فأن العواطف تحركنا فنخضع لعواملها المحركة وتندفع بقوتها فننصرف نحو الغاية التى ترسمها والتى تتطلب منا ، بحسب ماهيتها ، القيام بأعمال قد تثمر الفوائد الجزيلة لنا وقد تعقب أيضاً الضرر والفساد سواء ، إذا لم يكن رائدها حسن التصرف في قوتها الكامنة فيها

لا بد لك إذا اعتزمت أمراً أن تجيل فيه النظر وتطيل التأمل قبل أن تهم بأبرازه إلى حيز الفعل ، أى أنه يجب عليك إذا عنّ لك أمر تريد قضاءه ، أن تقف عنده طويلا مقلباً إياه على وجوهه ، وأن ترسل الطرف إلى الغرض المقصود منه وتطيل البحث فى الطريق الذى يؤدى اليه . فأن الأمر الذى تعتزم إمضاءه ، تنبعث به عواطف خاصة وتهش له نفسك ويتحرك به وجدانك . لأنك إذا نويت هذا الأمر وهممت بامضائه فما هو إلا انصياع العامل نفسى كالطمع أو العشق أو الكبرياء أو الحقد ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

إما تزلفا لذات أو إكباراً لها ، وإما لجر مغنم أو للسبق على مناظر وإما لدرء عداوة أو التغلب على خصم ، وإما لاستكشاف خيانة أو القضاء على مؤامرة الخ .

فنبه فى نفسك العاطفة المحركة للعزيمة بعد أن تسبرها بمسبار التأمل والتبصر ، وعزز سلطانها بأدمان التفكر فيها ، ذاكراً أن القول والحركة يضعفان قوتها ويكسران حدتها . فأذا ما بان لك صريحها فاشرك الأرادة فيها ، فأن الأرادة إذا انضافت إلى العاطفة كبحت جماح القوة الدافعة لك ، وصارت لها سياجاً يقيها شر الانحراف عن الجادة المؤدية إلى الغرض المطلوب .

وهاك على ذلك مثلا : تنتوي البدء بعمل من الأعمال الوعرة التى تتطلب جهداً متواصلا . وإنك لعلى يقين بالعقبات التى تعترض طريقك وينبغي التبصر لتذليلها والعلم بما يحف به من الآراء المضادة والنزعات المناوئة ، لحداثته واعتبار الناس إياه بدعة مستحدثة ، ولما يستلزمه هذا الوصف من مكافحة عادات ، ومحاربة تقاليد . غير أنك تكون في الوقت نفسه قد أدركت ما وراء النجاح فى مشروعك من المزايا ، وما يستتبعه من انتشار صيتك فى الخافقين وايصال المنافع إلى الناس من قرابتك ومواطنيك بل من سكان الأرض طرّاً ، إذا كان عملك شامل الفائدة . وحسبك أن تثير كوامن هذه المسرات ، وأن تتخيل ما سيؤثر

عنك من الفعال وما سيقال فيك من الأقوال لتضاعف همتك فيما على إرادتك فى بلوغه تعتمد . ولا يعزبن عنك أن من محاسن الشيم أن يعمل الانسان لخير بنى نوعه ، وأن الشجاعة والمثابرة من أسمى الفضائل التى يتحلى بها المرء . فعليك ببذل جهودك لتنمية تلك العواطف فى نفسك وتعزيز قوتها . واذكرن دائما أن الأرادة هي القوة التى تعتمد عليها فى انجاح مشاريعك وإنجاز أعمالك . فأنك لابد مستشعر بازدياد قوة إرادتك على نسبة جلال ميولك وجمال نزعاتك إلى الخير والاحسان . إن هذا الجلال وهذا الجمال يعززان الأرادة ، فلا يمضى عليها يوم من غير أن تكسب فيه قوة وتشبثا واندفاعا ، وتصبح الأرادة باعثا منشطا لك على العمل ، محببا اليك المثابرة عليه ، ومؤذنا لك باتمامه على مقتضى رغبتك فى أيسر زمن .

وقد يتفق لك ، مع حدة ذكائك وسعة إدراكك وقوة عقلك ، أن تبقى متنكسا فى حضيض أحد الأعمال الدنيئة زمنا طويلا ، إما لظروف وقفت لك الدهر فيها وقفة الخصم العنيد اللدود ، وإما لاجتنابك مخالطة الناس وإيثارك الوحدة على معاشرتهم ، وإما لترفعك عن التزلف لمن يشفق عليك ويستطيع أن يزوّدك التواصي إلى أرباب الشوكة والنفوذ . أنت فى هذه الحالة مضطر إلى معاناة عمل لا يجديك نفعاً ولا يجلب ربحاً ولا

يحقق أمنية لأنه حائد عن طريقك ومناف لفضلك، ومسوق إلى أن تهضم نفسك كل يوم بالاذعان لقوم تعتقد أنهم أولى بالتصاغر أمامك والتمكين من أيديهم لك ، فتشعر فى بدء الأمر بشيء من الذلة والاستكانة يتسرب إلى نفسك ثم لا يلبث أن يتحول إلى استنكاف فاحتجاج فمخالفة فاستظهار بالمعصية . غير أنك لما كنت في شظف من العيش ، وحاجة إلى سد الرمق ، لاتلبث تلك النفس الطامعة فى الحياة أن تحدثك بضرورة الانصياع لمقتضى الحال والرضوخ لحكم الضرورة . وتصدع أنت بأوامر هذا الوسواس فينتهي الأمر بك إلى قبول الذلة والاقامة على الضيم فتخبو نار تلك الثورة التى أضرمها هنيهة خفقان القلب بعامل الأضغان المستكنة فى الصدر . عندئذ تتلاشى المقاومة شيئاً فشيئا بتأثير هذه الأسباب الطرآنية وتندثر معها معالم الأرادة ولا تمضى سنوات ، وإن شئت فقل أشهر ، حتى يصير العالم صاحب المواهب النادرة والفضائل العالية خلواً من الأرادة ، بل خاضعا كالآلة فى يد محركها . يقوم من غير ريب بجملة طيبة من الأعمال ، إلا أنه فى أدائه إياها لا يكون الا منفذاً لأرادة الغير الذي يستغلّ قوته استغلالا ، بما استفاده من استكانته للذل ورضائه بما يسام به عير الحيّ والوتد عليك ، إذا كنت تصبو إلى الآماد القصية والغايات

العلية أن لا ترضى لنفسك السقوط في ذلك الحضيض . وهو ما لا يتيسر لك وتلك حالتك ، إلا إذا رفعت جبهتك وشمخت بأنفك وأنت راضخ للضرورة . واعلم أن فيك استعداداً كامنا للجهاد ، وقابلية للتجدد والارتقاء ، فلمَ أنت معرض إذاً عن استخدام هذه المزايا لأصلاح شأنك وخلاصك من ورطتك ؟

إن شعور الذلة الذى تتعذب به نفسك في بادىء الأمر ، ينبغي أن تتعهده بالتنمية . لا تدعه يموت أو أن ينخمد ، بل ناج نفسك بقولك : « إن نفسي لفى وصب مدنف لجهل الناس بكرامتى وهم متلف لاضطرارها إلى قبول اللوم والتعنيف بشارات الرضي والاحترام مع ما تحس به من النكاية والظلم والاجحاف ، وإلى التسليم بالرأى السقيم وتزكيته مع مناقضته ما اعتقد به من رأى حكيم . نعم إن نفسي لموجعة بهذه الآلام وما سبب آلامها إلا ضرورة قضت عليها بالكد فى العمل ، مقابل جزاء هو الخزى مجسما والعار ممثلا والسقوط فى هاوية لا قرار لها من الذل والاستعباد . لقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبى ! إنى لأريد الخلاص من هذا المأزق المخجل ! إنى لأبغي الحياة الطيبة بأن أكون رجلا رفيع القدر تؤدى اليه فروض التوقير بين صفوف المجتمع » .

ها قد رأيت أن الغضب قد أصبح ينبوعاً تتفجر منه

الأرادة، إرادة مؤهبة بوسائل الكفاح والنزول فى معترك الحياة فلا يبقي عليك ، لتحتفظ بقوتها الفعالة الكفيلة لك بالخلاص من عناء ما أنت فيه ، إلا أن تحرص الحرص كله على شعور الذلة الذي انبعثت منه هذه الارادة ، وعلى غيره من العواطف التى لا يبعد أن تحل محله ، وعلى أن يكون لها فى نفسك قوة التدفق بالانبعاث الذى يدفع بها إلى الأمام . واتخذ لنفسك من بينها سبيلا ، إذا أنت سلكته أفضى إلى تحسين حالك ورفعة شأنك .

سموك إلى قنن المعالى وسعيك نحو المقاصد الشريفة والغايات البعيدة يبثان في نفسك الاستعداد للتحلى بالفضائل العالية ، ويوقظان فيها مواهب الابتكار والابتداع وبواعث الاقدام على انجاز المشاريع الجليلة . فحري بك أن تتربص بالفرص الملائمة وأن تجس المخاضة قبل الخوض وأن تلتفت يمنة ويسرة باحثاً فيما حولك عن الممكنات والممهدات وأن تستفيد على الجملة من الحوادث التى لو وقعت فى وقت آخر لما حسبت لها حساباً وأن تتوخى أكثر الطرق ملاءمة لاستعدادك ، فأنك مهتد بعون الله وحسن توفيقه إلى تقدير كفاءتك الذاتية ، وتبين أهبتها لمناهضة العمل الذي أنت مقبل عليه . بهذه المثابة يكون لك من سلطان عقلك على إرادتك ، في صونه اياها عن الضلال ، ما

يقيك السقوط فى ورطة التعبد لغيرك .

أضف الى ما تقدم ، أن الأعمال التى تخالها حقيرة تافهة ، كثيراً ما تكون صالحة لتربية الأرادة وتنميتها . على أنه لا بد ، اذا اعتزمت امراً ، من المضي فيه الى النهاية . لأنك اذا وقفت فى طريق تنفيذه أو أجلت امضاءه إلى أمد ، فلا تنتظر أن تجنى منه غير الخيبة والفشل ، دع تضعضع إرادتك وتداعي أركان همتك .

يتفق أن تحتاج إلى وضع حساب طويل ممل ، يقتضي إنجازه الرجوع إلى أوراق كثيرة والدقة فى تطبيقها . وقد ينفسح لك الوقت لعمله ، فتحدثك نفسك بأرجائه إلى أحد الأيام الاخيرة من الشهر . فمن الغفلة وسوء التدبير أن تطيع فى ذلك وسواسك ، إذ الواجب عليك أن لا تفلت الفرصة السانحة لاتمامه وأن لا تتركه فى غير تمام على مكتبك لأول عذر يتاح لك انتحاله ، مجتهداً فى دفع ما يناوشك من عوامل الملل المثبطة لعزيمة التمام . وقاوم بما تستطيع من جهد كل ميل يصدفك عن المثابرة واستصرخ فى ذلك بقوة الأرادة ، فانك بارادة الله متم عملك على ما يرضى نفسك ورؤساءك ويلائم مصلحة الجميع .

واذهب إلى أبعد من ذلك ، بأن تكافح ما يساورك من الدعة والخمول ، وتوقي نفسك شر العثرة فيما يميل الناس اليه من

الاستكانة والانجماع . فاذا كان لك صديق لا يكترث بحقوق الصداقة وواجباتها وعنّ لك أن تزوره فزره ، لاسيما إذا كنت تخشى منه عتابه أو إعراضه لتقصيرك فى حقه . ولك ، إن أردت ، أن تعفي نفسك من أداء تلك الحقوق ، ولو أفضى فعلك إلى إغضابه مادام أن الأغضاب لا يعقب خطراً يخشي منه ، ولكن يحسن أن لا تتردد فى زيارته ، بل ينبغي أن تهيء نفسك لها خير تهيئة وأن تبادر بلقائه للقيام بها .

وإذا كنت تاجراً ، وكان من بين زبائنك العديدين من تعهد فيه التشديد والتصعب والمساومة ، وقد لاحت منه الرغبة فى اشتراء سلعة وردت اليك مؤخراً ثم أردت ، لاتقاء تشدده وتصعبه ، الكتابة إليه بما تطلبه ثمناً لسلعتك ، فمن الواجب عليك فى هذه الحالة أن لا تتناول ورقاً ولا قلما وان لا تسطر له حرفا ، بل اقصد اليه من فورك وحاول إقناعه بصوت جهورى ، تعززه الأدلة الساطعة .

وإذا بدا لك وأنت بدارك ، فى حالة من أحوال الأنس بأهلك وولدك ، والسماء ممطرة والجو هائج العناصر والبرد قارس ، أن تشتري حاجة من مكان بعيد فلا تتلكأ فى تنفيذ إرادتك بل عجل من فورك بالذهاب إلى هذا المكان واشتر منه حاجتك ولو كانت تافهة ، فأنك بذلك تقمع في نفسك نزوعها الفطريّ إلى

الدعة والتوانى ، وتضيف إلى قوة إرادتك قوة جديدة .

ولكي تعالج تربيـة الأرادة فى نفسك وتتعهدها بالنماء ، ينبغي أن تربط سلوكك فى الحياة بتأدية فروض معينة لايعترض العمل بها معترض. ناجِ نفسك بما يلى: «استيقظ من نومي الساعة السادسة من صبيحة كل يوم بالدقة» ثم عود نفسك الاستيقاظ في هذه الساعة بدون أن تقدم دقيقة أو تؤخر مثلها . وتناول كتابا وافرض على نفسك قضاء ربع ساعة في تلاوته ، قبيل تناول طعام الفطور أو الغداء أو العشاء أو قبيل هذه المواعيد كلها ، ثم افرض عليها حفظ جملتين أو بيتي شعر منه يوميا ، واعمل بهذا الفرض مثابراً لا تتخلف عنه يوما واحداً . وناجها أيضا بقولك : «لا بد لى أن أبرح دارى فى الساعة الثامنة من مساء كل يوم ، مهما يكن الجو حاراً أو بارداً غيما أو مطراً ، وأن أسير فى طريق كذا وأقف فى ميدان كذا وأن التقط من هناك حصاة ثم أعود قافلا إلى دارى من طريق كذا ، وأن أقضي فى هـذه الأعمال كلها ساعة كاملة . ثم نفذ هذه المناجاة بدقة وتؤدة وسعة صدر

يخطر لك أول وهلة ، أن التوصية بالتقاط حصاة من حصى الأرض إحدى السخافات المضحكة ، وهي لم تكن عن هوى من أهواء الخيال ولا سخرية من سخريات مبتدع . كلا ! فقد وردت هذه النصيحة على لسان العلامة بابوس الضليع فى علوم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

الاسرار الخفية . وقد أردفها بقوله : « هـذه الحصاة هى الرمز الدال على الجهد الأرادى الذى تبذله ، عملا بما رسمته لنفسك من الترتيب ، بل هى الطلّسم الذى يفوق تأثيره تاثير الطلسمات والأحجبة والتمائم على مختلف أنواعها »

بهذا الاعتبار لم تعد الحصاة ذلك الحجر الذى تدفعه السابلة بأقدامها ، بل الشهادة الناطقة بهمتك وقوة إرادتك والتذكار المحسوس لعمل ترى أنه من الأعمال الخطيرة المهمة المذكرة لك بما يجب عليك ، بل الأرادة المجسمة الحاضة على متابعة السير فيما رسمته من المثابرة والعزيمة لنفسك

أنت أيتها الحصاة الحقيرة التى لا يميزك عن غيرك من الأحجار بهاء ولا لألاء ، أنت التى انحدرت نحوك نفس رجل تلتمس الكمال الخلقي ، إنك لأسطع ضياء وأبهى سناء من الجوهرة المتألقة فى تيجان القياصرة والملوك . أنت نفيسة أيتها الحصاة ولا تقوّمين بثمن . لاتدرك شأوك الأحجار الكريمة لأنك الرمز الدال على أكرم الجهود وأشرفها ، وهل أكرم أو أشرف من جهد يعين المرء على قمع ميوله وامتلاك عواطفه والسيطرة على نفسه ؟ أنت لا تقومين بثمن ، لأن الفكرة المعبرة عن إرادة الاستيلاء عليك قالت للجسم : أطع أمرها فأطاع

إن الرياضة التي أوردنا منها فيما تقدم صنوفا مختلفة ، وكل

ما يمكنك أن تستنبطه من نوعها ، سيكون لها أقوى أثر فى نفسك ، إذ تنسيها التردد لتعوض عنه الحزم والعزيمة على متابعة إتمامه حتى النهاية ، وتطرح عنها الكسل والتهاون والملل . ومتى لاح لك القيام بأمر خطير أو عمل يتوقف عليه مستقبلك ، وجدت لمساعدتك وتعزيزك وإرشادك إلى النجاح إرادة منظمة يقظة فعالة لا تزعزعها الكوارث ولا تثنيها الحوادث ، تمضى على خط مستقيم نحو غاية واحدة هى : تحقيق المراد وإنجاح الأعمال والمشاريع

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

اختيار المهنة

من الواجب بداهة على المرء ، إذا أحبّ أن يتقن عملا ، أن يستوعبه بحثاً حتى يلم بأطرافه ويطلع على أسراره . أما إذا مضى فيه بلا هادٍ من العلم يهديه سواء السبيل ، فانما يكون كالأعمى الذي يسير متخبطاً في الطريق ، تعترضه المعاثر فتزل فيها قدمه ويعود من شوطه الضال في طريق الحياة بصفقة المغبون في ماله ووقته ، والوقت أعز من النقدين الكريمين في عرف العقلاء . فواجب عليك إذن ، قبل البدء بمشروع ما كتأسيس حرفة أو تجارة أو تعلم صناعة أو فن ، أن تنظر في الأمر فتختبر نفسك لتعلم أي المناحي تنحو اليه وأي الأغراض تريد أن تقرطس فيه سهمها ، وتمتحن بعد ذلك كفاياتها وما فطرت عليه من الذوق والاستعداد ، وتثق من قواك ومواهبك أهي كافية للنهوض باعباء المهمة الشاقة التي اليها تصبو وإلى مقامها الأرفع ترنو ، وتوقن أفي قدرتك من الأمر والنهي وحل

المعضلات ما ينبغى أن يكون لصاحب العمل تجاه عماله ، وتأنس من خلالك إذا كانت على ما يجب أن تكون خلال التاجر ، لينَ ملمسٍ وبشاشةَ وجهٍ وإحكامَ تدبيرٍ ، وتعرف إذا كنت رب ابتكار وابتداع ما يلزم للمبتكر والمبتدع من حضور الذهن وسعة العلم وسرعة الشعور . وواجب على الجملة أن تجس نبضك وتفر ميولك ونزعاتك فرارك الجواد تريد اقتناءه ، وتكون فى ذلك صبوراً متريثاً ، تزن بأحكام ودقة ما يقر عليه رأيك ، تر التوفيق رائدك والنجح قائدك إلى خير ما تريد لنفسك وذويك وبنى جنسك .

إن الأشياء كالأشخاص ، فيها ما نميل اليه وفيها ما ننفر منه ومنها الجاذب اليها نقف أمامه مبهوتين ومنها الدافع عنها نفر منه فرار السليم من الأجرب . فمن أشنع الغلطات وأسوأها عقبى وأفشها ضرراً ، أن تكره نفسك على مباشرة حرفة ما ، فأن مزاولتك ما تكرهه وتنفر منه تضطرك إلى إهمال العنايه به ، فيبرز ناقصاً غير متقن . دع أن نفورك وإهمالك يفسدان على مرّ الزمن ذوقك ويذهبان بغيرتك ونشاطك ويطفئان فيك ضرام الحماس والابتكار . إن فى مزاولتك ما يلذ لك من الأعمال باعثاً على الأجادة فى صنعه والنشاط فى إنجازه ، وداعياً إلى تحملك فى سبيله التعب الشديد وإلى اغتباطك بنفسك ورضائك عن

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

الناس . إنك بمزاولتك العمل الذى يروق لك القيام به لاتضن بما فى طاقتك من الوسع للسير به إلى غاية التمام . بخلافك إذا تصديت لمباشرة ما لم تكن موفقاً له باستعدادك ، فانك لن تنجح فيه أبداً والفشل ملاحق لك فيه ومتأثر لخطواتك .

يتفق أن تقيم فى مكان أو تعيش فى وسط لا يلائمان استعدادك ، ولا يماشيان نزعاتك فى اتجاه واحد . تقيم بالريف مثلا ، بينما استعدادك يتطلب منك أن تكون ملاحاً تجازف بنفسك فى خضمات البحار ترفع عليها راية وطنك ، أو تفتح لأبناء جلدتك أبواباً جديدة للارتزاق ، أو تحمل إلى الأطراف النائية من المسكونة ثمار حضارة أمتك .

ويتفق أن تعارض قرابتك القريبة أو من يعيش فى محيطك من الأصدقاء ما تبتكره من المشاريع التى أنت موفق لها باستعدادك ويحاولون الزيغ بك عن الجادة التى تسير عليها وصرفك عن الفكرة التي أنت مواطىء لها لترددها دوماً على بالك . فأذا كنت تشعر أنك موفق لأداء العمل الذى انتويته وتأنس من همتك القدرة على إدراك الغاية الشريفة التى تسمو اليها وتحس فى قلبك حرارة النشاط والعزيمة فاقطع كل صلة تحول دون مضيك فى التيار المؤدى إلى غايتك وخلص عنقك من ربقة التأثير الضار السارى اليك من أهل وسطك الذين يرجون أن يروك

يوماً محجماً عن نيتك نا كصاً على عقبيك . إنك إن تكسر هذه القيود مباشراً عملك بما توافر فيك من الاستعداد والميل ، يكن التوفيق رائدك وتهيأ الوسائل لتعيش فى وسط صالح لتنمية مواهبك وتتصل بنظراء ومنافسين يستدعى مقامك بينهم مضاعفتك الهمة فى تحصيل العلم وتطبيقه على العمل فتحيا حياة طيبه تلائم ذوقك وطبعك .

ومن المقبلين على جلائل الأعمال من تصدهم عنها فى الساعة الأخيرة أسباب واهية كالتصعب من مفارقة الأهل والوطن . أولئك هم الضعفاء واهنو العزيمة ، تصدهم عن تحقيق أمانيهم هذه البواعث المضحكة فلا يكون مصيرهم هم وأمثالهم ، بعد نكوصهم الشائن المخزى على أعقابهم ، إلا أن يعيشوا عيش الكسالى والبطالين ، عيش الخاملين المرموقين بعين الاحتقار والامتهان ، عيش من يضطرهم الضجر من الحياة إلى ارتكاب المناكر ، عيش الذين خمدت فى نفوسهم الجذوة التى كانت تستفزهم قبل إلى جلائل الأعمال ، عيش من يؤلمهم العجز فى الحياة ، فتكون عقباهم الموت فى تعاسة وشقاء ، ضحية إصغائهم للنصائح الفاسدة ساعة الاقبال على جلائل الأعمال

إن الفكر والعمل ، على انفراج ما بينهما من خلف ، مرتبطان بصلة وثيقة من المستطاع إلى حد ما الاستدلال بها على حقيقة

ماتصبو اليه النفس . فارقب هذه الصلة وتعهدها بعنايتك لا تلبث أن تهديك فى طريقك وتبصرك بأمرك تبصيراً . يتفق لك وأنت تتصفح كتاباً أن يستوقف نظرك شكل حروفه أو أي شيء آخر منه كنعومة ورقه أو حسن تبويبه أو دقة نقوشه وصوره ، فهل يبعد أن يكون تأثرك بهذه العوامل آية من آيات ميلك لفن الطباعة واستعدادك الفطري لأتقانها . إن ترد استكشاف هذا السر ، فكاشف بأمرك بعض المتفرغين لهذه الصناعة المشهورين بالأجادة فيها وشاورهم واستنصحهم قبل أن تلقي بنفسك فى تيارها .

ويتفق وأنت سائر فى الطريق أن تمر ببعض مخازن التجارة من غير أن تهتم بأمرها ، بينما غيرك لا يتمالك أن يقف طويلا أمامها لاستطلاع معروضاتها ، ثم تندفع نحو غيرها منجذباً بما تراه به من البضاعات ، فتطيل تأملها والفحص فيها وإن خلت مما يفيدك . فى هذه الحالة ، يتعين عليك أن تستقصي أسباب اهتمامك بها دون الأولى وتستخرج من المقارنة بينها نتيجة يحسن الوقوف عليها .

أى أصدقائك تحب وتؤثر لقاءه والأنس به ؟ وماذا هم يعملون أو يقولون ؟ إن أحدهم يعمل فى مصرف مالي فيميل ، كلما اجتمعت به ، إلى مناقشتك فى صعود الأسعار وهبوطها

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

وأسرار المضاربات وتدابيرها ، ويعمل الآخر عند أحد تجار الحبوب بالجملة فيخبرك ، كلما لاحت الفرصة ، بالأسعار ويطلعك على أسباب البوار ووقوف الحركة فى الأسواق ويسرد لك أسباب تعرض المحصول القادم لكيت وكيت من الأخطار والآفات ، وثالث عند أحد المهندسين كاتباً له ، فيسألك مرافقته إلى العمارة التى نيطت به مباشرتها وهناك لا يلبث أن يوافيك بمعلومات فنية جمة عن تشييد العمارات ويسوق لك الأمثال تعزيزاً لبيانه فلا تستشعر بملل من شرحه لك ما لم يسبق لك به علم ولم تعهد من نفسك اليه ميل. فأى الأصدقاء الثلاثة اهتممت ببيانه وأعرت سمعك لأقواله أكثر منك لغيره ؟ أذلك الذى وجهت اليه السؤال تلو السؤال منقبا ومستطلعاً فجاوبك مرشداً إياك بمعلوماته إلى حقيقة مهنته ! أجل هو هو الذى سوف تقول له يوما : « اذكرنى عند صاحب العمل الذى تشتغل عنده ، واسع سعيك لأدخالى معك فى عمله »

لما كنت بالمدرسة طالباً بسيطا ، كنت تميل بخاصة إلى تعلم الكيمياء وكان لهذا العلم المكانة الأولى فى نفسك . وكنت تحب الاطلاع على أسرار تركيب الأجسام ، وتحفظ عن ظهر قلب النواميس المهيمنة على اتحادها . وكان استاذك ، لما أنسه فيك من هذا الميل ، يقرظك ويخصك فى ختام العام المدرسي بالمكافأة

السنية التى خص بهـا المتفوقون على الأقران . إذا كان ذلك كذلك ، وإذا كنت قد ختمت دروسك ، فلا تغفل العناية بمـا أنسته فى نفسك من الاستعداد لعلم الـكيمياء ، وأقنعها بضرورة العمل لـكي تصبح صيدلياً قانونياً . لأن نجاحك فى هذه المهنة أصبح مؤكداً

واصل البحث ، على هـذا النسق ، عن كل ما يكفل لك الهداية فى الطريق . ومن البدهي أن الميول والنزعات إن هي إلا الأولى من مراحل عديدة مديدة كثيرة العقبات والمعـاثر شديدة المشاق على السائر . فعليك قبل اعتزام السير ، أن تتبع النصائح السالفة وتحـذر التهور الدافع إلى إمضاء أمر ما قبـل الأوان المناسب . واعمل بنصيحة العلامة البحاثة باستور لطبيب تلقى عليه العلم ، إذ قال له فى رسالة : « واحذر الحذر كله من أمر واحد ، وهو التعجل فى الاستنتاج . والواجب أن تنصب من نفسك لنفسك مناظراً يقظاً عنيداً ، تتوقع منه التخطئة والأفحام . . » الخ

ولا يهولنك قضـاء الأشهر والسنوات معالجاً صنوف المتاعب في تمهيـد السبيل لميولك ، فأن استقبالك المستقبل بمـا اعتزمته من الهمة والثبات ، يستدعي اطراح الخوف والتردد ومواصلة السير دائما إلى الأمام .

ولا يكفى فى اختيار المهنة التبصر والتربص بالمصادفات إذ لا بد من الاستمداد بكفاءتك في الملاحظة والنقد ، دع القدرة على تحليل العمل الذى تقبل عليه وتشريحه ، إذا صح التعبير ، كما يفعل الجراح بالجثة لتبين مزاياه وتقديرها أو لاستطلاع أضراره واتقائها . اعرض على نظرك تفاصيله واحداً تلو آخر واسبر بمسبار البحث ماجل من جزئياته وقل . ولا تنس أثناء ذلك ما يكون للجمهور من الحاجة اليه أو المصلحة فيه ، وما ستلقاه من مناظرة المناظرين ، أو تعانيه من المصاعب فى جلب البضاعات وتصريفها أو اختيار الأعوان وتوزيع الأعمال عليهم واحسب حساب الخسارة الممكنة إما لبوار السوق أو عطب البضاعة بحادث ليس له من دافع ، ولا تغفل مع هذا حساب الأرباح المأمولة أو ما صار اليه عملك من الرواج الذى يحملك على التفكر فى توسيع نطاقه . وعلى الجملة لا تدع شيئاً يرتبط به فلاح عملك بدون أن تقلبه على وجوهه ، وتستقصيه لاستطلاع طلع الحقيقة فيه .

وحاذر ما استطعت الاتكال على الحظ . إن الحظ أحد العوامل التى تسوقها المصادفة العمياء والاتفاق الطيروري . وهو إذا آتى المرء مرة ، خانه وتخلى عنه تسع مرات . ولا تخدعنك الظواهر ، فقد قال مونتسكيو : « ينبغى أن تمزق قناع الأشياء

كما تمزق قناع الأشخاص » . وارتفع دائماً فوق السطح بحثاً وتنقيباً ، وغص على الحقائق فى قيعانها واستخرجها من اصدافها ، فلا شيء في العالم يجوز أن تقول عنه إنه تافه لا قيمة له أو أنه مما يلقى فى زوايا النسيان أو في سلة المهملات ، فكثيراً ما أعقبت الأسباب الصغيرة نتائج كبيرة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر

وليس من الصغائر التى يستخف بها اهتمامك بالدقائق والجزئيات فى مسئلة ما . والذين يلقون فى روعك أن فى اشتغالك بالجزئيات والدقائق حطاً من شأنك وغضا من كرامتك إنما هم الناقدون السطحيون الذين يهمهم القول دون العمل . وخير الوسائل للتعزى عن ملاحظاتهم الفائلة الأخذ بآراء العظماء والاقتداء بهم . قال شيشرون مفسراً معنى التبصر : « هو مواجهة الحوادث الممكنة واتقاء عواقبها قبل وقوعها » . وكتب تاسيت : « تعرف قدرة الرجل على عظائم الأمور ، بالتفاته إلى صغائرها »

ولسنا ندرى أيقام ، بعد هذه الحكم العالية ، وزن ما لأقاويل المنتقدين وتخرصات الساخرين وسخافات قصار النظر والمخدوعين ؟

إن عليك أن تستند إلى شيء واحد هو الحقيقة المجردة والأمور المحدودة المعدودة : أما الأحصاءات المبهمة والتقادير التقريبية القائمة على الآمال الخداعة والأمانى الخلابة فاعرض عنها

بجنبك ، فأنك لا تلبث أن تتأكد فسادها وبطلانها . ولو أنك انخدعت بسرابها ، فقادتك من فشل إلى فشل ، لانتهى الأمر بك إلى الارتياب فى ذاتك ، وأسلمت نفسك إلى اليأس القائد إلى السقوط فى هاوية الذل والفقر .

على أننا لا نريد فيما نحضك عليه من الأخذ بالبصر فى أمرك ، أن تذهب فيه إلى حد الحياء . وإنما الواجب عليك ، وقد وقفت على حقائق العمل الذى تصديت له وأخذت بأطرافه ووزنت بميزان النقد الصحيح الأسباب المرغبة فيه والمرغبة عنه وقدرت مزاياه وحسبت حساب أضراره ، ثم أضفت إلى هذا كله اليقين بالنجاح فى النهاية ، فلا يصدنك عنه تردد أو خوف ، بل أقدم عليه إقدام الجندى الواثق بالظفر فى ميدان الكفاح ، وكن مع ذلك حاضر الذهن سريع البديهة سديد الرأى ، واجعل هدفك الذى ترمى اليه أن تفوق فوقا عظيما على مناظريك ، وأن تدعهم خلفك فى حضيض التخلف متنكسين . قال جريفو : « يفقد المتردد نصف حياته ويمد المقدام حياته بقدر الضعف »

ومما لا خلاف فيه أن نجاحك المؤكد لسوف يقف الخائفون والمترددون والمتخلفون أمامه مبهوتين . فدعهم في تخبطهم يعمهون وفى ميدان المباراة الحيوية متقهقرين ، فأنك لا تلبث بعد حوزك على قصب السبق أن تلفت إلى شخصك أنظار

الذين يسيرون مع التقدم وتفوز بأيثارهم إياك على غيرك .

وكن جسوراً مقداماً ، فأن السعادة لا يفتر ثغرها إلا للشجعان الذين لا يهابون الخطر الذين تحلوا بحلية الكمال العقلى لا أولئك المجازفين الذين يعتقدون أن الجسارة فى مناطحة الصخور والوثب فوق المهاوى العميقة ليس غير .

ليست الجسارة الحمقاء إلا الخيلاء مقنعة والزهو مستتراً برداء الأقدام على عظائم الأمور . ومن آياتها استجداء التصفيق وهتاف الاستحسان من المغرورين والنوكى ، لا سبب لها يعرف ولا غرض يوصف . ولكنها تتعرض لصعاب الأمور لكونها من صعاب الأمور ، وتكون لهذا الباعث من أقرب الصفات إلى الجهل البهيمي الذى يدمغه العقلاء بطابع الاستهجان والمقت. إلى جسورى هذا الصنف من الجسارة نسوق الحكمة الآتية التى فاه بها العلامة (لامنيه) ليقوموا بها من خلقهم ويصلحوا من نفسهم إن شاءوا : « لا تخدع نفسك بالزمن ولا بالأشياء ، وجانب التفكر فى المستحيل الذى لا يمكن أن يكون ولن يكون أبد الآبدين ، فأن لم تفعل فأنك لن تستطيع لمصائب دهرك دفعاً ، وربما زدتها بفعلك عدداً وخطراً »

أما الجسارة الرشيدة فهي التى لا يندفع صاحبها فى ميدان الأعمال، إلا إذا أمن العثار وتزود الصبر والهمة ـ والمال أيضاً ـ

بما يكفى لأفساد تدابير الحظ العاثر . وهو لا ينطلق فى طريق إلا إذا أرسل نظره إلى غايته ، وجس صلابة الأرض تحت مواطىء قدميه ، واشتبك في المعركة الحيوية بمنافسيه متخذاً من حسبان العواقب أمتن درع لصون هنائه هو وغيره من عبث العابثين . تلك الجسارة حقيقة بالتشجيع والأعجاب من شهودها الذين يعرفونها ويقدرون قدرها .

لا تقل أبداً : « ليتنى فعلت كيت وكيت » أو « ما أجملها نهزة فاتنى انتهازها » إلى غير هذا من الحسرة على ما فات . والمفروض عليك ، إذا أفلتت الفرصة من يدك ، ألا تذكرها قط وأن تقتفى أثر غيرها وتستثيره من كمائنه ، مهتدياً فى طريقك بنور التجربة والاختبار فى سابق أيامك . ومتى عنت لك واحدة منها ، انقضّ عليها انقضاض البازي على العصفور ، واقبض على نواصيها وأمسك بتلابيبها بيدين حديديتين ، ثم ابتز منها ما استطعت ابتزازه من الفوائد والمزايا . حقاً إن الدنيا قد شابت وهرمت ولم يعد فيها من « بِرّ » ولكنها ما برحت فى سن تستطيع أن تلد فيها من الخيرات والمنافع ، ما هو جدير بأن امل أرباب الهمة والجسارة إن تمتد لاقتطاف ثماره الشهية الثمينة .

المثابرة

قال جول كلارتى فى أحد مصنفاته : « لم يكن عصرنا عصر الضعفاء وفقراء الدم ، بل عصر المسرفين ,, المبعزقين ،، »
ولقد أصاب شاكلة الحق بقوله ، فأن من أفضح عيوب الرجل الحديث مباشرة خمسة أعمال مختلفة أو ستة أو عشرة معاً . تراه يجمع إلى إدارة الشئون المالية الاشتغال بالسياسة والفنون ، ويطرق أبواب المباحث والتجارب جميعاً محاولا أن يصير إلى صدره العالم برمته .

الواجب على مريد النجاح ، إذا رام الوصول إلى بغيته ، اطراح هذا الأسلوب المعيب والنأي عنه بجانبه ، وأن لا يمثل لناظره ، حين السعي إلى النجاح ، سوى غرض واحد لا يحيد قيد شبر عن الصراط المؤدى اليه . إن المجال المنفسح لمطامع الانسان بعيد المدى لا يحده أفق ، ولكنه لن يستفيد من التقلب فى أرجائه الفسيحة ، إلا إذا اقتصر على عمل واحد لا ينتقل إلى غيره إلا إذا بلغ به غاية التمام

حارب جول بايو فى كتابه : (تهذيب الأرادة) النزعة المشهودة اليوم فى طلاب العلم من مباشرتهم أموراً شتى فى آن واحد حيث قال : « النشاط الصحيح الجم الفوائد في الجهد المعتدل المتواصل فكل نشاط لم يتوافر فيه هذا الشرط حقيق بأن يوصم صاحبه بوصمة الكسل والتهاون . وبدهي أن استمرار العمل، كفيل باستمرار انصرافه نحو غاية واحدة وغرض معين ، لأن مظهر عزيمة الأرادة ليس بتعدد الأعمال وتضاعف الجهود ، بل بانصراف قوى العقل نحو غاية واحدة . واليك مثالا من أمثلة الكسل الذى يظنه صاحبه نشاطاً واجتهاداً وهو شائع يقع تحت النظر كثيراً فى هذه الأيام . ترى الطالب لا يكاد يبدأ عملا مدرسياً ، حتى يتنقل إلى غيره كالذبابة التى إذا طارت لا تلبث أن تحط على شيء ، ثم تطير ثم تهبط على شيء غيره إلى أن قال : فى النهار الواحد يتنقل ذلك الطالب من النظر فى طائفة من المصنفات الباحثة فى علم طبقات الأرض إلى تصفح مقال أدبى أو انتقادى من قلم أحد مشاهير الكتاب ، ومن التقاط بعض أخبار الصحف السياسية إلى مراجعة مذكراته في أحد الابحاث الاستطرادية ، ومن ترجمة أسطر أو صفحات عن اللغات الأجنبية إلى استظهار نخبة من الأبيات الشعرية . ولا ينظره أقرانه إلا مجدّا فى البحث والتنقيب دائباً على العمل ، فلا

يسعهم إلا الأعجاب بجده واجتهاده ، والثناء عليه لمثابرته وتنوع أعماله

„ أما نحن ، فلا نقف فى صفوف المعجبين بذلك الطالب ، بل نقبح خطته ونفندها ونرميه بوصف الكسول الخامل ، لأن الباحثين فى الأحوال النفسية يرون في تعدد الأعمال وتنوعها دليلا على أن شيئا من الالتفات ،لم يتكيف بالعزيمة وقوة الأرادة ولم يخرج عن كونه شبه اجتهاد لا اجتهاداً صحيحاً ، متوافر في ذلك العامل المجدّ . ولكنهم يحكمون على أمثاله بضعف الأرادة وخور العزيمة وانهم ، على مذهب علماء النفس ، نموذج الكسالى الذين إذا هموا بعمل ما بثروا جهودهم وفرقوها على أعمال أخر متباينة . فباءوا منها بالفشل والخسار

„ نعم إن النفس جبلت على حب الأحماض واستطابة التنقل من شجرة إلى شجرة لتجنى من هذه ثمرة ومن تلك ثمرة ، إلا أن صاحبها لا يعدو أن يكون طالب رياضة يلتمس بها تزجية الوقت في غير فائدة دنيوية أو أدبية . وما كان الجد والاجتهاد يرميان إلى مثل هذه النتيجة العجفاء „

فلا تكن من ذوى العقول الذبابية ، أولئك الذين يسرفون جهودهم فى غير جدوى . وعليك بعمل واحد هو الذى تعتقد فائدته لك وموافقته لمواهبك وترى أنه لايخرج عن قدرتك

القيام به على أتم وجه وأحسن أسلوب . ومتى استقر رأيك على العمل الذى اجتمعت فيه هذه الشرائط ، تعلق بأهدابه ولا تغفل عنه حتى تتمه ، ولا تبال بما يعرض لك من الأسباب الصارفة عنه ، ولا بما تثيره الحياة فى طريقك من بواعث اللهو والانصراف ؟

وليس معنى هذا القول أن تظهر بمظهر الواجم المكروب المبغض للضحك السليم والدعابة الحسنة . ذلك لأن الناس — كما قال الكاتب هنرى ماريه — « قد أيقنوا أن كل عمل ينبغى القيام به من غير ضجر ولا ملل . والواجب على العامل أن يحب عمله ، والحب ينافى الحزن والوجوم . إن الخطر كل الخطر أن يصرف المرء عنايته إلى الهنات التافهات . فالوقت المصروف فى الثرثرة والتخرص والأقاويل التى لا فائدة من ورائها وفى الجلوس على القهاوي والاختلاف إلى الحانات خسارة لا تعوض . وما نتيجة تضييعها فى تلك السفاسف إلا إخفاء المقاصد النافعة والغايات المطلوبة وتضليلها بحيث يتعذر الاهتداء إليها. كن رضيّ النفس منشرح الصدر ، وشارك الفضلاء والأدباء فى مطايباتهم ، وتحرّ أسباب الفرح والسرور فى مظانها الشريفة ومعاهدها العالية ، واغش مجالس الأدب للاستفادة بما يدور فيها من الأحاديث الرشيدة والمناقشات الفاضلة ، ولكن حذار حذار

من التخلف فيها كل وقتك ، فانما هي رياضة تأنس إليها النفس للتعلة ، حتى تنشط لاستئناف العمل بانبعاث أشدّ وهمة أسمى .

لا تفتح صيوان أذنك لمن يحاول أن يصرفك عن عملك ، فغالبا ما يجهل ناصحوك ميلك ومطمعك الذى تعمل لنيله . واعلم أن الناس لا يشتركون فى النظر إلى الشيء الواحد والحكم عليه لاختلاف أمزجتهم وتباين أذواقهم وتناقض ميولهم . فزيد يري في الشيء الفلانى ما لا يراه فيه بكر ، كما أن عمراً يحكم عليه حكما يناقض حكم خالد . وبالجملة فكل يذهب فى تكوين رأيه مذهبا يلائم التربية التي شب عليها والميول والصفات التى تميزه عن غيره . إن الفطرة التى فطر الناس عليها تدفعهم ، بغير علم منهم ، فى سبل متناقضة ومذاهب متعاكسة . فبينا الواحد منهم يرى من الجهد الذى يبذله أنه أضعف أثراً وأقل جدوى ، إذا نحا به نحواً معيناً ، يرى الآخر غير هذا الرأى . ذلك لأنهما كلاهما يبنيان نية العمل على ما يأنسانه فى نفسهما من الكفاءة الذاتية والاستعداد الطبعي له . وحقاً فمن أين للغريب أو القريب منك ، وهما ينظران إلى الأمر الواحد بنظر مختلف ، إذ يبنيه كل منهما على رأيه وميله ويحسب له حسابا يتفق مع مذهبه ، أن يلما أحسن منك بما شرعت أو تريد أن تشرع فى عمله ؟ إن الغريب والقريب لا يعلمان من حقيقة أمرك إلا سطحها الظاهر

للعيان ، وهما بلا ريب جاهلان مقدار ما أنت متصدّ له ومنازلة المنافسين لك فى ميدانه ، دع عجزهما المطلق عن الحكم بعدل ومن غير تحيز على قوة مقاومتك . فالأولى بك إذن ألا تعتمد إلا على نفسك وألا تصغي إلا إلى ما يوحي به اليك وجدانك . تلك هى الطريقة المثلى ، وهى أشرف الطرق وآمنها عاقبة لتسجيل اسمك أول وهلة فى ديوان الرجال . ولا تساوم فى ثمن التجاريب فانك لن تأسف فى نهاية الأمر لما تكون قد أنفقته فى سبيلها من المال .

وخصّ همتك بجملة معينة من العمل هى التى يسميها العمال بالمقطوعية ، وألق على المهمة التى أنت على القيام بأعبائها مقبل نظرة تحيط بأطرافها ، واستخرج النسبة بين الزمن الذى يقتضيه أداؤها وبين ما فى مقدورك من الذرائع الادبية والمادية للنهوض بها ، ثم ارم المستقبل بنظرة ثاقبة تستكشف بها الطريق الذي تتخذ الأهبة لسلوكه . ورتب جهودك الترتيب الحسن وأعدّ همتك للقيام بها ، وزن أمورك وزنا دقيقا حكيما ، فأذا تم لك ذلك كله على أحسن وجه وأتمه ، فخذ سمتك الى الغاية التى اليها تقصد بقدم ثابتة وقلب جرىء ، واجتنب العجلة والتهور وقاوم مايعترضك من مثبطات العزيمة ، فأنك لسوف تقف باهتا حيال العاقبة المحمودة ، عاقبة النجاح والتوفيق التى ستواجهها فى نهاية طريقك

وخاتمة مطافك واعتبر بالحكمة الفارسية التى جاء فيها مامعناه : « الصبر شجرة مرة الجذور حلوة الثمار » فلتكن إذن من ثبات الفؤاد بحيث تستطيع الصبر ، حتى تنضج الثمار التى ستسعد يوما ما باجتنائها

ويقول بايو فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ، إن الفرص التى تتيح للمرء القيام بجلائل الاعمال نادرة ندرة الكبريت الاحمر ولكن المجد العامل يجد فى العمل المتواصل ، ولو كان قليلا ، خير معاض عنها . فأن العمل القليل إذا حصلت المثابرة عليه ، أفضي الى النتائج الجليلة والعواقب الخطيرة . وليس الشجاع من الرجال هو الذى يأتى بمعجزة ما من معجزات الأعمال ثم تقتصر همته عليها ويقف نشاطه دونها ، وإنما هو ذلك الذى يؤدى أعمال الحياة على تباينها جلت أو حقرت . هو الطالب الذى بالرغم مما يأنسه في نفسه من التمنع والأحجام ، يلزم نفسه مفارقة مكانه للبحث عن معنى كلمة فى معجم اللغة ويمضى فى مهمة عمله حتي التمام بالرغم من ميله الى الدعة والتماس الراحة فى التهاون ، ولا يضجر من استيعاب تلاوة صحيفة أو كتاب ، ولو لم يرقه ما يتضمنانه من المباحث . هذه الاعمال الصغيرة الحقيرة خير محك للارادة ، بل هى منها بمثابة الحجر الفتان للذهب . وخليق بطالب النجاح ، اذا أخذت عليه آفاق الاعمال الجليلة ألا يصده شعور الكبرياء والغرور

عن مزاولة الأعمال الصغيرة وأن تكون مزاولتـه إياها بشغف وإتقان . فأن الأسلوب الحكيم والقاعدة المثلى فى مزاولة الاعمال مهما صغرت ، أن تخلص الهمة من ربقة التوانى والكسل ، وأسر الشهوات والمؤثرات الطرآنية .

كن صاحب ترتيب وتنسيق فى تقسيم عملك وإنجازه ، فأنك بذلك تمد فى أجل الوقت إلى الضعف أو الضعفين بحسب مايبدو من همتك . وبعبارة أوضح أنه إذا عهـد اليك بعمل وعهـد إلى غيرك بمثله ، وراعيت فى انجازه النسق الحسن والأسلوب المحمود دون زميلك ، فأنك إما أن تنجز عملك فى نصف أو ثلث الوقت الذى ينجزهو فيه عمله ، وإما أن تنجز أنت فى الوقت عينه ضعف ماينجزه هو أو ضعفيه ، وتحيا بذلك الحياة الطيبة الوافرة الثمار ، أو تلك الحياة التى وصفها الرئيس روزفلت بالقوة والشدة . يتساءل عندئذ أصدقاؤك وجيرانك ، كيف أتيح لك القيام بأعمالك الوافرة من غير كدّ ظاهر ولا خاطر قلق ولا نفس منزعجة ، بل وأنت على ما أعتدته من صفاء ذهن وانشراح صدر وخلو قلب من أثر الهموم . ولا يبعد أن يظلوا زمنا طويلا معجبين بك متحـدثين بأمرك ، قبل أن يهتدوا إلى الحقيقة ، ويكونوا أثناء ذلك خاضعين لأمرك راضخين لسلطانك عاملين بنصيحتك مقرين بفوقك عليهم الفوق العظيم ، معترفين بمواهبك التى وضعت فى قبضة يدك

صولجان السيادة عليهم والتحكم فيهم .

بدهيٌ أن دون فوزك فى هذا المعترك صعوباتٍ وأهوالا ، ولكن صاحب العزيمة الصادقة لا تقف أمامه الصعوبات ولا تثنيه عن طلب قصده الأهوال . وله متى وصل الى القنة التى تسمو اليها همته ، أن يلتمس عندها الراحة التى هو جدير بها ، فأنه سيجزى عن حسنة الجد والاجتهاد والمثابره بعشرة أمثالها ، ويذوق ، والأفق مترام أمامه الى أبعد مدى والطبيعة مزدهية بثوبها القشيب ، لذة الواجب منجزا والأمانى موفورة محققة .

الفراسة والتوسم

الفراسة هى الاستدلال بالأحوال الظاهرة، على الأخلاق الباطنة. واشتقاقها من فرس السبعُ الشاةَ، فأن فرسه إياها، داع إلى ولوغه فى باطنها ووقوفه على حقيقة أمرها. وقد جاءت الأشارة اليها في أكثر من موضع من الكتاب الكريم، قال تعالى: «إن فى ذلك لآية للمتوسمين» وقال: «تعرفهم بسيماهم» وقال: «سيماهم فى وجوههم من أثر السجود» وقال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فراسة المؤمن فأنه ينظر بنور الله».

فالفراسة، من حيث إن الأنسان لا ينفك عن مخالطة الناس، تفيده معرفة أخلاقهم فى الخير والشر، فالمنفعة بها جليلة والمزايا الناجمة عنها جزيلة.

إذا تأكدَتْ عندك هذه الفائدة، فروّض نفسك على معرفة الناس، بتبين أحوالهم واستجلاء طباعهم واستكناه حقائقهم، فأنه لا بد لك قبل أن تختلط بهم اختلاط عمل، أن تقف على حقيقة أمرهم بأعمال النظر فيهم فراسة وتوسما،

واستقصاء أعضائهم به تتبعاً وترسما ، واعلم أن الكلمة الواحدة إذا خرجت من فيك ، قام عليها هناؤك أو شقاؤك ، فكن على بينة تامة من التحيل لاستعمال الكلم في مواضعه ، وجعله منطبقاً على مقتضى الحال ، وهذا أيضاً قد لا يتيسر إلا إذا كنت على إرث وافٍ من العلم بأحوال محدثك علماً مبنياً على التوسم والفراسة .

إن الذين عمروا ، وأدوا إلى سلطان التجاريب إتاوة الفشل ، وعادوا من جهودهم بالخيبة والخذلان ، يدركون حقاً أن الجنس البشري لم يبلغ إلى درجة الكمال ، ويعلمون مقدار ما كيد لهم من المكائد ونصب لهم من الشباك ، وألقي فى طريقهم من المعاثر . لذلك تراهم لا يخطون خطوة في هذا الطريق إلا بعد إعمال الروية ، وإحكام التدابير الواقية من السقوط فى شباك المكائد . لا نمضى فى الاعتقاد إلى ما ذهب اليه روسو الفيلسوف من أن الأنسان المفكر حيوان خبيث الطبع فاسد الخلق ، ولكن لا سبيل لنا إلى انكار أن طائفة ممن نحتك بهم فى أعمالنا ، ليسوا ممن ضربوا في الفضيلة بسهم ، ولا أخذوا من الصدق والأخلاص بقسط ، وأنهم إذا عاشوا فما هو إلا لما لجأوا اليه من الوسائل الدنيئة ، كالمكر والكذب .

من ثمَّ ترى أنه لا مناص لك فى الاختلاط بالخلق ، من

التميز بين طيبهم وخبيثهم ، وبين سمينهم وغثهم . بل لا محيص لك من أن تتبين الذكي النابه والغبي الغافل ، وصاحب الهمة المتحفز لمساعدتك ومن لسقوط مروءته لا خير منه يرتجى . كل هذا لا بد لك من العلم به للنجاح فى الحياة ، وهو يتوقف على اختبارك الأحوال الظاهرة من الناس ، فلا تدع شارة ولا دلالة فى صفاتهم الجثمانية ، إلا وتجعلهما رائدك فى تقصى أحوالهم الباطنة ، وأخلاقهم الكامنة ، وغرائزهم المستكنة . إنك لا تقصد بهذا الفحص طبعاً إلى خدعهم ونصب المكائد لهم ، بل ترمي إلى وقاية نفسك خبث نياتهم نحوك .

إذا ساقتك المقادير يوما الى أن تلتقى بأحد الناس وجها لوجه، إما لأنه فى حاجة اليك أو لأنك ترجو الاستمداد بعونه فى قضاء لبانة لك ، فانصرف اليه بنظرك كله ممعناً مستثبتاً . كن على الجملة من قراء الوجوه واستدل بملامحها فى محدثك ، وبأوضاع جسمه وحركاته ، على حقيقة طباعه وميوله ، وعلى كفاءته العقلية والنفسية . قال (أوجين ليدوس) فى رسالته الموسومة (السحنة البشرية) : « أشكال الوجه ومميزاته هي العلامات التى تتألف منها لغة الوجه ، وأحوال الانسان من كفاءات وميول وأمراض وأعراض ، وعلى الجملة حالته القائمة بنفسه ، تتلخص فى ملامح وجهه وهيئة جثمانه .

وقال ذلك المؤلف فى موضع آخر من رسالته : « إن هناك اتصالا وثيقا بين فكرة الانسان وكيانه الجثمانى ، وبين شكله واستعداده ، لذا يمكن القول بحق أن العقل والذكاء يطبعان مادة الجسم بطابع لا يمحى ، بل هما يصورانها على مثالهما ويصوغانها فى قالبهما وهو ما يؤخذ منه أن تضارب الاشكال وتعددها ، مرتبطان باختلاف العقول وتفاوتها ، وحسبك أن تنظر إلى الشقي المجرم لترى فى جثمانه العلامات الشاهدة على فساد غريزته وخبث طويته وميله الطبعي إلى الأجرام ، وأن تنظر إلى الرجل المستقيم العادل لتتبين فى وجهه الشارات المبرئة له من تهم الظالمين ومفتريات النمامين » .

وقال الأمبراطور الرومانى (ماركوس أوريليوس) : « حديثك مسطور على جبهتك ، وقد قرأته قبل أن تفوه به » .

وقال المؤرخ (ف . دوروى) - وكان وزيراً للمعارف فى فرنسا - : « الذى يتكلم فى الكتاب إنما هو العقل ، والذى يتجلى فى الوجه إنما هو الروح »

وقال الفليسوف الألمانى (شوبنهور) : « إذا كانت الكلمة تصور معنى الفكر الانساني ، فأن الوجه يصور معنى فكرة الطبيعة »

وقال أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى طالب الأنصارى

فى كتابه (السياسية فى علم الفراسة) : « إن راضة البهائم يستدلون بالصفات المحسوسة للخيل والبغال والحمير، وسائر الحيوانات التى يريدون رياضتها على أخلافها الحسنة والقبيحة ، فأذا كان هذا المعنى مظهراً للخصال فى حق البهائم والسباع والطير ، فلأن يكون معتبراً فى حق الناس أولى »

وقال التعاويذى الشاعر :

عيناك قد دلتا عينيّ منك على
أشياء لولاهما ما كنت رائيها
والعين تعلم من عينيّ محدثها
إن كان من حزبها أو من أعاديها

وفي دلالة الأعضاء على حقيقة أمر الأنسان ماجاء فى الكتاب الكريم من قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »

وما من كاتب حصيف ، ولا سيما إذا كان من مؤلفى القصص التى هى معرض الأخلاق والطبائع ، إلا وتراه فى تصويرها ، معتمداً على نموذج الأحوال الظاهرة للجسم

وإليك طائفة طيبة من الملاحظات والمشاهدات ، التى يصح الرجوع اليها فى الاستدلال على الأحوال الباطنة للأنسان ، بمقتضى أحواله الظاهرة نقتبسها من ذوى التجاريب لتكون لك

قائداً فى تبين هذه الأحوال ورائداً لك فى طريق النجاح .

أمعن النظر فى وجه محدثك الذى بينك وبينه مصلحة ، فأنك لا تلبث أن تراه منطبقاً فى كيانه على أحد الأوصاف الهندسية الخمسة ، التى اعتبرها العلامة (ليدوس) أساساً لأنواع أشكال الوجه الأنسانى . وهذه الأنواع هي : المربع والمثلث والمستدير والبيضاوى والمخروطى ، ولكل من هذه الأنواع الخمسة أقسام فرعية تتناولها جميعاً . وتكون بسببها إما صريحة أو مستطيلة أوقصيرة ، فالمستطيل منها يلطف طبيعة الصريح ، ويخفض من صراحته ويذهب من صرفيته ، ويمزج ببعض الخيال ميوله المبنية على الحقيقة . والقصير يقوى الخالص وينميه ، ويزيد فى خشونته ويعزز ماديته .

الوجه المربع يستدل به على علو الهمة ، والثبات فى الرأى إلى حد الصلابة فيه والتشيع له والتشبث به . وأصحابه يمقتون ، المساومة والأخذ والرد ، ويدافعون حتى النهاية عن آرائهم التى يرتأونها ، ومذاهبهم التى يذهبون اليها ، تراهم لصحة فكرتهم وصواب تخيلهم ، يفوزون فى معترك المناظرات الدائرة على محور التصور والتفهم ، ويتحرون الأساليب المنظمة والطرائق المنسقة فى أقوالهم وأفعالهم ويعمدون إلى عويصات المسائل فيحلون عقدها باعمال الروية وإمعان النظر . وأخص ما يمتازون به نظرهم إلى

الأشياء والأشخاص من الوجهة العملية ، فهم يكرهون النظريات ولا يعبأون بالخيال ، وهم يحبون النظافة والترتيب حباً جماً ، إلا أن بهم نزعة صريحة إلى ناحية الحرص . ورأس مربع الوجه متسلط على قلبه ، لهذا تراه على شيء من التيه والصلف وحب الذات ، والأمساك بالنفس عن المضي مع العواطف . وهو من الجرأة والشدة بحيث يجهل الرحمة والشفقة ، وإنما العلماء الراسخون والمخترعون والضليعون فى علم الحيل (الميكانيكا) والمهندسون ، ممن تنطبق عليهم هذه الخصائص في غالب الأحيان .

الوجه المثلث يستدل به على غرابة طباع أصحابه ، ومضيهم مع أهواء النفس ، وتجردهم من فضيلة الثبات والمثابرة ، وقصورهم عن التفكر والتروى لغثاثة أفهامهم ونقص عقولهم . ومن لازماتهم وعلاماتهم التى يعرفون بها التهور وعدم التبصر فى العواقب ، فأنهم يهمون بتنفيذ مشروعاتهم قبل تمحيصها ، وإطالة النظر فيها ، وخبث النية والكذب والاستهزاء والاعتماد على المكر والحيلة . وفيهم من سرعة الخاطر وحضور البديهة ، ما يبعثهم على سرعة الأجابة المبنية على إحدى قاعدتى الأفحام أو التنكيت . وميلهم إلى المباسطة والمطايبة ميل طيروري زائل ، لأنهم إذا عمدوا اليهما فما هو إلا لتفريج كربهم وتكتم ما يعتورهم من

اليأس والقنوط . ولهم غرام شديد بالمناقضة والمشاكسة ، ولا يستقرون على رأي من آرائهم . وهم منقادون لغلبة النزعات النظرية فى نفوسهم على النزعات العملية ، إلا أن لهم مع ذلك شغفا شديداً بالحرية ، فلا يذعنون لنظام مسنون ، ولا يرضخون لحكم الاستعباد والأذلال . ولهم فى الغالب ولع شديد بالتطوح فى غياهب الحوادث ، والمجازفة فى المغامرات والمقامرات ، وبحب النقد والتهكم والاستهزاء ، والطعن فى الناس بما يوجب عداوتهم لهم . وأصحاب الوجه المثلث هم فى الغالب أصحاب المراكز الثانوية ، التى يكونون فيها مرؤوسين بغيرهم .

الوجه المستدير يستدل به على العقل التام والهمة العالية والقريحة المتقدة والتهور الشديد والمضى مع الغضب ، وأصحابه يمتازون بالقدرة على العمل والنشاط فيه ، وسرعة الفهم وقوة الأدراك ، إلا أنهم منقادون إلى الخطأ والزيغ لغلبة التهور والعجلة عليهم ، يذهبون فى الشجاعة إلى حدّ الجرأة والقسوة ، ولكنهم سرعان ما ينثنون فى وسط الطريق عن قصدهم ، إذا إعترضتهم فيه المصاعب والعقبات . فعيبهم الذى يعيرون به هو عدم الثبات وعدم الاستمرار فى الأرادة ، مضافين إلى شيء من قلة التبصر وقصر النظر فى العواقب ، وكل ما من شأنه حصول الحيرة والارتباك . ومن الخصائص التى يمتازون بها حب التسلط ، والميل إلى الترتيب

وحسن النسق فى الأعمال، وإلى الاسراف والكرم، وأن يكونوا على علم بما تقتضيه قواعد السلوك فى هذه الحياة . وتراهم على قسط واف من آداب المعاشرة والألفة ، ومن ذلاقة اللسان فى الحديث ، ومن الدراية بأساليب النكتة وحل الأحاجى ، ومن حب البسط والدعابة ومؤاكلة الضيوف على أفخر الموائد . وأخص مايرمون به من العيوب والنقائص الصلف والعجب والانهماك على الملاذ الشهوانيه وسرعة الانفعال بما يمس الكرامة والمضي مع الغضب ، إلى غير ذلك من الصفات النفسية . وهم إذا عالجوا التجارة نجحوا فيها النجاح الباهر ، وكانوا خير معوان على ترويجها ونفاق سوقها .

الوجه البيضاوي يستدل به على تقلب العقل وسرعة تأثره بالعوامل الطرآنية ، وأصحاب هذا الوجه ينقادون لحكم النزعات والميول ، ويمضون في طريقها متخبطين ، ولا يملكون أنفسهم فلا يستطيعون ضبطها عند مسيس الحاجة ، فشأنهم فى ذلك شأن الآلة التى تفقد من أجزائها ماينزل منها بمنزلة الروح من الجسد . ولا شيء يرضيهم أو يسد نهمهم، لأنهم ما فتئوا يلتمسون المزيد من الحاج ، ويتبعون أهواءهم ويسدرون في غلوائهم . يبدأون بأعمال شتى، ثم لا يستطيعون أن يجمعوا متفرقها ، فلا يتمون منها شيئاً . من صفاتهم المميزة لهم الحياء والخرد والطيرورة والوجل

والكسل والخدعة والكذب . يهيمون في أودية الخيال والتأمل وينحدرون فى تيار التحمس ، وهم فى الغالب بحقائق الأشياء ملهمون ، يتعشقون المعجب والمدهش من الحوادث ، ولا يحجمون لهذا السبب عن المجازفة والمخاطرة والاستسلام للظروف ، غير انهم يجهلون كل الجهل شؤون الحياة وأساليبها العملية ، كثيرة وعودهم قليل وفاؤهم بها . لا يجوز ائتمانهم لنزعة فيهم إلى الخيانة وانتهاك الأمانة ، على أنهم بالرغم من ذلك يتمسكون من الدين بحبل متين ويغالون فى التقوى إلى حد التعصب له تعصباً أعمى .

الوجه المخروطى يستدل به على علم صاحبه علما يقينيا بأصول الحياة وقواعد العمل لها ، وتقديره الحقائق على ما هى عليه فى الواقع لا على ما يتخيله . والمعروف عنه أنه على جانب كبير من رقة الشمائل وسلامة الذوق ، إلى أن هذا الوصف ليس بمزحزحه عن التيه والصلف وتكلف الظهور فى مظاهر العظمة والجاه . ويغلب عليه التحكم والاستبداد ، والنزعة إلى اغتصاب حقوق الناس واستثمار جهودهم لمصلحته ، غير مميز فى ذلك بين القريب والبعيد . يبذل الجهد فى تكتم حيله وتدابيره ، ويسترها برداء السذاجة والبله ، تنصلا من المسؤولية ومن عتب الناس وملاومهم . يحصر مواهبه فى توكيد النجاح لأعماله ومشاريعه ، إلا أنه يبغض المستحدثات

والمبتكرات ، يطمع في الدرجات السنية ويسمو إلى شرائف الرتب ويستأثر بالمراكز العلية التى يشار اليه فيها بالبنان ، دع غرامه بالملاهى والسهرات والحفلات وتلذذه بالأطعمة الشهية وحبه للمآدب ، وهو يجمع إلى نقيصة الجبن والانهماك فى الملاذ الشهوانية والعكوف على اكتناز المال، الصفات والفضائل اللازمة لأدارة المصارف والمعامل ورياسة الشركات .

ومفهوم أن هذه الأحكام المبنية على صفات الوجه وأشكاله ليست بمطلقة ، فأن الشدة فيها تلطفها التربية ويعدلها المزاج والوسط وهى عوامل خطيرة لابد من الاعتداد بها حين الحكم على أخلاق المرء بمقتضى سحنته وملامح وجهه .

وإذ كان الوجه متكيفاً إلى حد ما بحالة الرأس من جهة أحجامه وأبعاده ، فلا بأس من أن نورد هنا بيانات مفيدة عن تكوين الرأس وشكله من حيث دلالتهما فيه على بعض الأحوال النفسية للمرء . فلقد ذكر أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى طالب في كتابه (السياسة فى علم الفراسة) ما خلاصته : « أن أحمد الرؤوس تكويناً وأدلها على كل محمدة الرأس المعتدل وضعه ومقداره مع مناسبته للبنية ، وصفته أن يكون مستدير الشكل كأنه كرة غمزت بأصبعين عند صدغيه إلى داخله وفيه نتوء يسير من مؤخره عند القمحدوة (القمحدوة هى الهنة الناشزة

فوق القفا وبين الأذنين) ومن مقدمه ، وهو ما تحت الناصية ومن أم الرأس . فأنه إذا كان كذلك دل على العقل التام والفهم الحسن السريع والفكرة الصحيحة والتخيل الصائب وقوة الحفظ والاتصاف بالأوصاف الحميدة .

وصغر الرأس مع عدم التناسب للبدن دال على البطش ونقص العقل . وعظمه مع قلة استوائه ، إذا لم يكن مفرطاً ، دال على علو الهمة وحسن الفهم والانقياد أحياناً لغلبة الغفلة . والرأس المسفط دال على خبث النية والشبق ، وتقبض جلده دال على الجرأة وقلة الحياء ، وانخفاض أم الرأس دال على الحرص والخيانة وقلة الدين ورداءة الفكر ، وانخفاض موضع القرنين ودخوله دال على خبث النية والدناءة والعبث ، وتفرطح الرأس حتى كأنه أقراص مجموعة دليل الجهل وقوة الحرص والجرأة على الأشياء ، والرأس المغضن (أى المتجعد المتثنى) المنفضح دون القمحدوة (أى الأجوف فى اتساع تحت الهنة الناشزة بأعلا القفا بين الأذنين) دليل المحمدة والخير وجودة الطبع وكثرة الحفظ والرأس الكبير جداً دليل البله وفساد الفكر واضطراب الرأى

الآن وقد جئنا بالأجمال على دلالات الوجه والرأس ، فلنذكر بالاختصار نتفاً من دلالات أجزاء الوجه كالجبهة والحاجبين والعيون وما سواها . ومما لا خلاف فيه أنه إذا

أخطأ بعض هذه الأجزاء فى الدلالة على الحقائق الباطنيـة فأن البعض الآخر وهو الشطر الأوفي لن يخطىء أبداً .

الجبهة كما قال صاحب (السياسة فى علم الفراسة) دلالتها قوية صادقة لأن الرأس صومعة الحواس ومعـدن االفكر والذكر والحفظ . وهو أكمل الأعضاء لظهور الآثار النفسية فيه بوجه أتم ولأن الوجه محل الحسن وضده وبهما كمال الجسد ونقصه ، ولأن الأحوال الظاهرة فى الوجـه قوية الدلالة على الأحوال الباطنة كالخجل والخوف والغضب والفرح والـكآبة ، فأن لـكل واحد لوناً مخصوصاً يظهر فى الوجه دون البدن . وقد أجمعوا على أن الجبهة المحمودة الدلالة على خلق حسن هي المعتدلة الموافقة لوجه صاحبها فليس فيها تربيع ولا تعجرف ، ولا هى مسحاء إلى الرأس ولا مشرفة على الوجـه ولا صغيرة ولا ضيقة ولا واسعة ولا طويلة ولا جلحاء (ممتلئة) ولا قصيرة الشعر ولا مستدقة ، ولا هي مخسفة ولا خشنة ولا شعر الرأس مالك أعلاهـا بكـثرة بل مستوية الخلق لينة عالية فى وضعها حسنة المنظر نقية من الشامات والخيلان والشعر النابت بها كالزغب .

تلك هى الصفات الممدوحة بوجه عام فى الجبهة . أما المحمود منها بوجه خاص فهو : أن الجبهة المستوية العمودية فيما بين شعر الرأس والحاجبين دليل ضعف العقل وقلة الذكاء ومثلهـا فى ذلك

الجبهة الضيقة المربعة فى استواء وتضام أطراف . وإذا كانت مع صفتها العمودية محدبة من أعلاها فأنها دليل الذكاء الحاد والميل إلى مدارسة العلوم العقلية كالرياضة وماضاهاها . أما إذا كانت واطئة فأنها تدل على خشونة الطبع وغلظ الكبر وحب الشر والشقاوة . وإذا انبطحت فى انسحاب فأن ذلك من علامات الشدة والبؤس ووقوع صاحبها تحت رحمة البلاء والمكروه . وإذا كان الانبطاح والميل إلى خلف مع توسط واعتدال فتلك آية من آيات حدة الذهن والميل إلى الفنون وإذا كانت الجبهة مربعة فى تحدب دل ذلك على سلامة الذوق والرصانة وصدق الفكرة وحسن التأمل . أما إذا استطالت فى شكل بيضاوى كان ذلك من أصدق الدلالات على التأمل والخيال والحماس وحسن التصور . وإذا تحدبت الجبهة فى وسطها بنتوءٍ عظمي مع عرض وارتفاع فانها تدل على الروية فى التأمل وقوة الذاكرة وثقابة النظر وصدق المشاهدة . وإذا استطالت بتحدب خفيف دلت على النشاط والجرأة والطموح إلى المعالى والفصاحة . فأذا كانت الاستدارة باستواء وضيق كان ذلك علامة الحمق والغباوة والجبن والكسل وغلظ الكبد . وإذا تكورت الجبهة تكوراً خفيفا فى عرض وشكل مثلث دل ذلك على الرقة واللطف وانصراف الفكر إلى المعانى الشعرية وعلى لين الجانب ورقة الطبع . وعرق الجبهة إذا اخترقها منتفخاً فى

اتجاه عمودى دل ذلك على القدرة والكفاءة لعظائم الأمور والجبهة التى لا تعتورها الأسارير والتجعدات أبداً حتى تحت حكم العواطف المؤثرة هي الدليل الصادق على الجمود والرياء والدناءة

هذا ماذهب اليه علماء الغرب فى الحكم على الأحوال الباطنة بمقتضى أشكال الجبهة وصفاتها الطبيعية والطارئة عليها . أما أقوال علماء العرب فى ذلك فقد حصرها صاحب كتاب السياسة فيما يأتى ملخصا :

عظم الجبهة دليل البله وعرضه دليل قلة العقل وصغره دليل لطف الحركة واستدارته دليل الغضب بسرعة وانسطاحه مع التغضن (التجعد) دليل السفه ودناءة النفس والكذب وقصرها دليل الغضب والشجاعة وانبساطها بغير غضون دليل الشغب والخصام . والجبهة الصغيرة دليل الجهل والدقيقة الطويلة دليل الطيش والخفة والعريضة المنبطحة دليل البله والحمق ، والعظيمة دليل الكسل والغضب ، والقصيرة المغضنة دليل الحرص وجمع المال ، والكثيرة الغضون بغير قصر دليل الصلف ، والخشنة دليل الخفة وضيقها مع ذلك دليل سوء الفهم والمختلفة الاستواء دليل الفجور والخيانة والحمق ، والناتئة فى وسطها دليل الحرص والشح والمربعة دليل جودة الفهم وحب العلم والصلف ، والعالية دليل القحة والشجاعة ، والناتئة المعقدة دليل الخيانة والغش ، والظاهرة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

العروق دليل الجرأة والأقدام ، والملساء المستديرة دليل التهور والبله ، والملساء المسطحة إلى مقدم الرأس دليل الكبر والعلم والحظ من الملوك .

قال صاحب كتاب الفراسه : إن أحمد الحواجب دلالة الحاجب الممتد المعتدل الحسن الوضع والنبات للشعر وتناسب الطرفين ودقته وارتفاع مؤخره الى جهة الصدغ وبلجه وارتفاعه عن العين قليلا. هذا هو تعريف أحمد الحواجب وأحسنها دلالة. ويذهب علماء الغرب من المعاصرين الى أن الحاجبين إذا استويا على خط أفقى واحد واقتربا من العينين دلا على القسوة والصلابة فأذا ابتعدا عنهما فى استواء أيضاً دلا على نقص العقل وغثاثة الفهم، وإذا انكسرا على شكل زاوية رأسها إلى فوق وانفراجها إلى أسفل دلا على البله واختلال العقل ، وإذا مالا متصاعد طرفاهما نحو الصدغين دلا على الجنون والدناءة وسفال النفس ، وإذا تقوسا فى استدارة منتظمة ومتناسقة دلا على سلامة الطبع ، وإذا إزداد تقوسهما دلا على الجرأة والكبرياء والغضب ، وإذا كثف شعرهما دلا على شذوذ الطبع وغرابته، وإذا هبطا فى استواء أفقي على العينين دلا على المكر والخبث والحيلة والدهاء .

وذهب صاحب كتاب الفراسة في استخراج دلالات الحواجب من أشكالها إلى ما يأتى : كثرة شعر الحاجب وخشونته

دليل على الهم وغثاثة الكلام والعي فيه ، والحاجب الطويل الممتد إلى الصدغ دليل على العجب والتيه والصلف ، لاسيما إن مال من جهة الأنف إلى أسفل ومن جهة الصدغ إلى فوق . والحاجب المقنطر دليل الدناءه والحاجب العريض القصير المقوس المثلث الشكل كصورة الدل دليل على الفهم وخبث النية وسوء الخلق والشح والحرص . واتصال الحاجبين على استقامة دليل التأنث والاسترخاء ، فاذا ترجحا مع ذلك إلى الانحدار إلى جهة الأنف دلا على الذكاء ولطف النفس وحسن الخلق . وإذا ترجحا مع اتصالهما بالشعر ميلا إلى جهة الصدغين دلا على الظن وحب اللهو والطرب والزهو والاستهزاء بالناس ، وإحاطة العين بالحاجب على العين كنصف الدائرة دليل العي وخبث السريرة وسوء الخلق والدناءة وركوب الحاجب على جفن العين دليل الشجاعة مع سوء الخلق وشدة الشهوة ، وارتفاع أحد الحاجبين وانخفاض الآخر عند الكلام والنظر والحركة دليل خبث الباطن والمكر وسوء الظن بالناس والكبر والقحة وسوء الفهم وطبيعة الشر والدناءة ، والحاجب المرتفع إلى جهة الجبهة عن العين دليل الحمق ، والمرتفع الطرفين من جهة الصدغين إلى فوق كرفع الذنب من الشاة دليل الصلف والكبر والتيه ، والحاجب المرتفع فى الجبهة من جهة الأنف والنازل من جهة الصدغ دليل حب القتل وسفك الدماء

وسوء الفهم وحب الفساد وكثرة الشر ورداءة الأخلاق والظلم والتهور . ودقة الحاجب مع خفة الشعر دليل الذكاء ولطف النفس وحب الدعابة .

ولم يذكر علماء الغرب فى الفراسة شيئاً يروى الغل عن فراسة العين ففيما بين أيدينا من كتبهم اقتصروا على القول بأن جحوظ العين علامة ثقل العقل والنقص في سلامة الذوق ، وأن غورها مع التحرك دليل المكر والدهاء وأن لمعانها علامة القسوة والاستهزاء ، وأن توسطها بين الجحوظ والغور علامة اعتدال الطبع وتوازن العقل ودماثة الخلق ، وأن صغرها مع تحركها علامة الحيرة والقلق مع الخبث وحب الفساد ، وأن غمزها واضطرابها مع ارتفاع إلى ناحية الرأس علامة الحياء والخوف ونقص فى الرقة ، وأن صفاءها ولمعانها واستقامة نظرها علامة الشجاعة وقوة الأرادة وسلامة العقل . أما العين المائلة المنحرفة فعلامة الخبث والخيانة والتجرد من عواطف الرحمة والانسانية

أما العرب فقد ذهب علماؤهم إلى أن أحمد العيون وصفاً أن تكون متوسطة الحجم ساكنة فى مركبها ترفة فى نظرها ولم تتفرق أشفارها ولم يضعف أنسانها وتكون صافية من الكدر نقية من النقط لينة حسنة فى بريقها كامنة العروق معتدلة فى الطرف بالجفن نجلاء الأشفار يخالطها السرور والمهابة ، بياضها

نقيّ وسوادها نقيّ لا عظيمة ولا صغيرة ولا غائرة ولا جاحظة ولا شاخصة كالجامدة ولا سريعة التقلب كحركة الزئبق ولا ناتئه الحدقة ولا صغيرتها ولا كبيرتها ولا واسعتها ولا مختلفة الوضع فى البياض والسواد وتكون رطبة المنظر من غير ضعف ولا علة شهلاء أو خفيفه الشهولة أو كحلاء أو شعلاء أو خفيفة الشعولة شحيحة الجفنين الأعلى والأسفل ملوزة الوضع سوداء الحدقة وقل أن تجتمع فى عين هذه الأوصاف كلها ولكن تلك العين الموصوفة نموذج العيون وصاحبها يكون حسن الطبع جيد العقل غزير المروءة كثير الخير متصفا بكل خلق فاضل .

هذا وأحوال العين من جهة الفراسة تعتبر من وجوه : أحدها الوضع كالجاحظة والغائرة . الثانى المقدار كالعظيمة والصغيرة . الثالث الجفن كالغليظ والرقيق والمستوى والمنقلب وقلة الطرف وكثرته . الرابع حركة الحدقة كالبطء والسرعة . الخامس المشابهة بأعين الحيوان . فاعتمد على هذا الاعتبار فى التوسم واحكم بما يظهر منه .

وإليك الدلالات التفصيلية للعين : العين الصغيرة الموق دليل التأنث واسترخاء القوى ، والناتئة الحدقة دليل الجهل والبلادة والطائر ناظرها إلى هنا وإلى هنا دليل العبث والتلعب بالناس وحب الصيد وحدة النفس ، والكثير تحديقها فى الأشياء دليل

القحة والحمق ، والكثيرة الطرف فى سرعة دليل البطش والاضطراب ، والعظيمة الراكدة غير البراقة دليل حب المال وجمعه وبغض النساء ، والحمراء كالجمر دليل الغضب والاقدام وحب القتل ، والعظيمة الراكدة الحمراء دليل الفحش واللهو والدناءة . وإذا كانت منقلبة الجفن الأسفل فلا شك فى رداءة طباع صاحبها وخبث نيته وقلة حيائه ، والنارية اللون دليل القحة والجرأة ، والخفشاء الغائرة دليل الدهاء والرداءة وخبث النية والحرص ، والشديدة الغور حتى كأنها فى نقرة غائصة دليل الخداع والكذب والمكر لا سيما إذا كانت زرقاء أو خضراء فأن صاحبها لا يؤمن في شيء ولا يوثق به والرخيمة الضاربة إلى الحمرة دليل رداءة الطبع والغدر ، والسوداء دليل الأمانة وقلة الشرورقة النفس ، والعظيمة منها دليل الكسل والبلادة ، والجاحظة منها دليل القحة والجهل والهذر ، والشبيهة منها بعين المعز دليل الجهل والمتحركة بحدة وسرعة مع اضطراب دليل المكر والفهم والتحيل والسرقة ، والجامدة البطيئة الحركة دليل الفكر والهم والمكر ، والذاهبة فى طول البدن دليل المكر والخبث والشبيه نظرها بنظر الصبيان مع تبسم طبعي وسرور في الوجه من غير قصد دليل طول العمر وقوة الروح وكثرة الفرح واعتدال الخلق ، والمتوسطة اللون بين الصفرة والخضرة دليل الجبن والذلة

والحرص ، والزرقاء فى بياض دليل على شر مما دلت عليه التى قبلها ، والصفراء الضاربة إلى الخضرة فى اضطراب دليل النميمة والكذب والشر ، والدائمة الطرف مع اضطراب حركتها دليل الجنون واختلاط الذهن ، والزرقاء فى صفرة زعفرانية دليل البلادة والكسل والخوف والجبن ، والشهلاء أو الزرقاء ذات النقط الغير زوجية الشبيهة بالخرز المنظوم دليل الشر والغدر والأذى ، والسوداء الحدقة أو زرقاؤها فى لمعة ذهبية أو زعفرانية بغير بريق دليل حب القتل وسفك الدماء ، والمنقلبة الى فوق شبه أعين البقر وهى مع ذلك ضاربة إلى الحمرة وعظيمة دليل الجهل والتكبر والأصرار على الخطأ ، والصغيرة جداً مع كثرة الطرف دليل الهذر والعبث ، والكبيرة جدا مع كثرة الطرف دليل الظلم والجور وقلة الحياء ، والعظيمة المرتعده دليل الكسل وحب النساء ، والصغيرة الزرقاء المرتعدة دليل ماتقدم مع التحيل والمكر ، والزرقاء الصغيرة الحدقة المرتعدة دليل التماس أذى الناس وفساد الطبع والمزاج ، والراجفة بأى لون كانت دليل الشر والاختلاق ولا سيما الصغيرة ، وكلما عظمت نقص الشر وزاد الحمق والجبن والكسل ، والكبيرة الناظر مع اختلاف وضعه دليل نقص العقل وسوء الفعل ، والدائمة الطرف السريعة التقلب فى مركبها دليل الحمق والجنون والجبن ، والزرقاء الضيقة

الباطن دليل الفجور والحرص والطيش ، والنازلة الموق إلى جهة الأنف دليل الشجاعة والأقدام وحب سفك الدماء ، والتى يتقدم ناظرها ويتأخر عن المركب المعتاد كانتقال ناظر العين الأحول دليل سوء الفعل ونقص العقل ، والطمشاء دليل قلة الحياء والتهور ، والشهلاء المائلة إلى لون الذهب دليل الأقدام والجرأة والقتل ، والزرقاء اليابسة دليل سوء الهمة والجور ، والخضراء فى زرقة ويبوسة دليل الجنون واختلاط الذهن ، والزرقاء المعتدله اللون والوضع مع سواد شعر الجفن وإن تكن أصلح العيون الزرق إلا أن صاحبها لايخلو من الشر ، والبراقة الزرقاء بصفرة زرنيخية ، والخضراء بخضرة الفيروز وفيها نقط حمراء كالدم أو بيضاء دليل الخيانة والشر والسوء ، والراكدة الرطبة غير العظيمة ومتحركة الجفن بخفة وجبهة صاحبها ملساء دليل الحرص وجمع المال وحب العلم ، والراكدة الصغيرة دليل البخل والحرص وانتحال الفقر ، فأن انضم إلى ذلك ارتفاع الحاجب إلى وسط الجبهة دل ذلك على المكر والبخل والخداع والسلاطة وسوء الخلق .

والنقط الكثيرة حول الحدقة من داخلها دليل الشر والكيد والخيانة . وإذا كانت العين زرقاء فالدلالة أوكد ، والحدقة المطوقة بطوق يخالف لونه لونها دليل الهذر والحسد

والشر والكلام فيما لا يعني والجبن عند الصدق مع إظهار الشجاعة قبله ، والسواد الرقيق حول الناظر كأن بصاحبه كآبة وحزن وبعينه لمعة سوداء أو صفراء أو خضراء مع انتفاخ فيها وكثرة تقلب لها من غير علة ظاهرة دليل الجنون والاختلاط وارتكاب المنكرات من قبل كالقتل وغيره ، والحدقة الناتئة مع لطافة العين دليل الفحش والحمق والطيش

والجفن المنكسر أو المكبوب دليل المكر والحمق وأهداب الجفن إذا كانت قائمة والحدقة تدور في المركب دلت على انقلاب النفس وسوء الظن والقرب من الجنون ، وتشحم الجفن الأعلى دليل حب العلم وفعل الخير مع الغفلة ورقة النفس ، ورقة الجفن الأعلى دليل الفهم وغزارة العقل ، وغلظ الجفنين دليل على البلادة وغلظ الطبع

والعين الشبيهة بعين الغنم دليل الغفلة والجهل وقلة الشر وبعين الحرباء فى الوضع والدوران دليل الكذب والملل والشر ، والتلون ، والتى لونها كلون عين الأسد مع حسن الوضع لها فى مركبها دليل الفهم والعقل والشجاعة والعلم والاتصاف بكل وصف حسن وخلق محمود .

والعون المذمومة الدلالة على الاطلاق هى : العظيمة جداً وعكسها والجاحظة وعكسها ورحبة الناظر وعكسها واليابسة

جداً وضدها والغليظة الأجفان جداً وضدها والمستطيلة جداً وضدها والمائلة إلى جهة الموق أو إلى جهة الجبين والغزيرة الشعر في الجفن وعكسها والحديدة النظر وضدها والشديدة الخضرة ولاسيما مع اللون الرصاصى والكدرة البيضاء بصفرة يسيرة أوحمرة أو زرقة أو لون سنجي (عنابى) والكدرة الحدقة بشائب من مداكنة أو صفرة والكثيرة الشعاع والناقصة والبادية العروق والمحمرة البياض من غير مرض ظاهر والمنفرجة الأجفان وذات الدوران والتقلب السريع وذات الانتفاخ فى الجفنين والاسترخاء الشديد والمختلطة اللون وذات النقط والهمزات أو الطوق حول الحدقة والكثيرة الطرف والبطيئة مع جمودها وسوداء المحاجر والناتئة الحبة دون المقلة والممتلئة الجفن الأسفل دون الأعلى وضدها والزئبقية الراجفة فى تقلبها والسنجية بغير بريق والرمادية والمجزعة الحدقة شبه عين الهر.

واعلم أن العيون وجوه القلوب وأبوابها التى تبدو منها أحوال النفس وأسرارها، وذلك لاتصالها بمواضع القلب وصفائها ورقتها فاحكم بها لتحقيق النظر وصحته فأن الدلالة الواحدة منها تصلح أو تفسد أكثر من دلائل البدن لصدقها وإن كان البدن مخالفاً فى أمارات الصلاح وضده.

قال ابن أبى طالب الانصارى واصفاً أحمد الأنوف دلالة

على كل وصف جميل وخلق حسن : هو الأنف الحسن الوضع المعتدل المناسب فى خلقه من مقدار أرنبته وقصبته ومنخريه ، وتوسطه فى الكبر والصغر والطول والقصر والكثافة واللطف وضيق المنخرين وسعتهما ، وحسن لون الأنف وتخاطيطه ولطف اتصاله بالجبهة ، وتوسطه بين الشمم والورود بالأرنبة إلى جهة الفم ، وسرعة التنفس منه وبطؤه ، وطيب رائحته ولين مجسته ونقاوة بشرته من الشامات والخيلان والشعر الذهبي والرطوبة السائلة واليبوسة الجافة ، لا أحدب ولا مستويَ القصبة بالجبهة ولا منفصلها ، ولا أفطس ولا رقيق الأرنبة قائمها ولا مقلص من الشفة العليا ولا قريب من طرفها .

وفى مذهب المتوسمين من الافرنج أن كبر الأنف دليل على شذوذ الاطوار والتطوح فى الوهم ، وأن شدة التقوس فيه مع استطالته دليل الاختلال فى العقل والاضطراب فى الفكر ، وأن استقامته مع تربع قليل فى الأرنبة (وهى طرف الأنف) دليل قوة الأرادة والسكون والتعقل ، وأن انحناءه بما يجعله شبيهاً بمنقار الغراب ، دليل الجرأة والشح . والأنف الأقنى (من القنا وهو ارتفاع أعلا الأنف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه أو نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين) خاص بذوى الطمع والشجاعة ومحبى الأبهة والجاه والتسلط ، والأنف

الخانس (من الخنس وهـو تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة) ويسمى أيضاً بالمقعى (من القعا وهو إشراف الارنبة ثم تقعى نحو القصبة) خاص بذوي القحة والملحفين والعابثين بواجب السمت والوقار ، والأنف اللحيم المستدير الأرنبة الهابط على الشفتين خاص بالمنهمكين على الملاذ البدنية ، والأنف الغليظ اللحيم المكوّز المنخرين واسعهما خاص بذوي الفهم الثقيل والعقل الناقص والكسالى والمنهومين ، والأنف المستدق الأرنبة فى انبعاث إلى أمام خاص بذوى الطبع الجافى والميالين إلى الكبرياء والصلف والاستبداد ، والأنف المستطيل فى دقة خاص بذوى الخفة والطيش وقلة الثبات ، والمعتدل فى صغره مع استقامة وخنس وتقلص فى الأرنبة بشرط استدارتها خاص بحدة الذهن وتوقد الذكاء وسعة العقل ، والأنف الصغير جداً الكثير الزوايا خاص بالميالين إلى العناد والمشاجرة والعدوان ، فاذا كان مع صغره هـذا مستدير الأرنبة مع تقعر فى أصل القصبة دل على خور العزيمة وضعف الطبع والتأنث وقلة الثبات وعدم الروية ، وسواء أكان الأنف منحنياً أم غير منحن فأن اتساع أصل القصبة وعرضه يدلان على توافر الخصال العالية فى صاحبه . وهـذا النوع من الأنف نادر جداً حتى بين مشاهير الرجال وفحولهم ، وهو إذا صودف فى أحد دل دلالة قاطعة على

نبوغة وعبقريته .

أما دلالات الأنف عند العرب فهي على ما نستخلصه من كتاب السياسة فى علم الفراسة كما يأتى : دقة الأرنبة وورودها دليل الطيش والمخاصمة ، وغلظها مع امتلاء طرفها دليل العي وقلة الفهم وكثرة المزح ، ودقة الأنف بمجموعه دليل الشر وسرعة الغضب وبغض الغريب ، وطوله مع دقة أرنبته دليل الطيش والحمق وسرعة الغضب ، والأنف الأفطس دليل غلظ الطبع والميل إلى الشهوات ، وارتفاع قصبة الأنف مع استوائها دليل جودة الفهم والطمع . واعوجاج الأنف وغلظه دليل الشر وسوء الخلق وخبث السريرة ، وعرض الأنف بمجموعه دليل البطر والعبث والجهل وغلظ الطبع وحب الأذى والفساد ، والأنف المقوس القصبة إلى الأرنبة يسيراً دليل الجبن والهذر ولين النفس والطيش ، وانتفاخ القصبة من غير علة دليل غلظ الطبع والجور والعبث والجهل ، وانتفاخ المنخرين فى سعة دليل الغضب والصلف والتيه وقوة النفس ومعالجة التقحم وشدة التنفس ، وغلظ أعالى الأنف دليل نقص الحس ، وغلظ الأرنبة جداً دليل حب المزاح والصبر على الأذى وتقنطر الأنف حتى كأنه ثلث دائرة دليل الهذر والحسد وحب المحمدة وبغض الناس والتهور والقحة والاقدام والكذب وإظهار غير ما فى النفس

والبخل والتحيل . فان كان مع تقنطره وارد الأرنبة دل على سعة الحيلة والتظاهر بالأمانة ، وقصر الأنف وفطوسته دليل السرقة وخبث النية ، والأنف الذى فى قصبته عقدة دليل الكبر والتيه وطول الأنف مع غلظ الأرنبة وعظمها دال على الجرأة والشجاعة والتكبر والقوة مع نقص العقل وعلى أن صاحبه لا يرى غير رأى نفسه ، وحسن الأنف وسبوطته يدلان على حب النساء والشبق ، واستدارته مع ضيق المنخرين تدل على الحمق والطيش ، واستواء قصبته مع الجبهة كأنها قطعت عنها دالة على الجهل وسوء الفعال ، والأنف الرقيق رأس الأرنبة مع تقوس القصبة منه وظهور تخاطيط منخره دليل الشجاعة وحب الخصام

ولنتكلم على الأفواه ودلالتها على الأخلاق الحسنة والأوصاف الحميدة أو ضدها ، والكلام عليها يتناول طبعاً الكلام على الشفاه والأسنان .

فأحمد الأفواه دلالة على الأحوال الباطنة للمرء الفم الذى يكون معتدلا بين السعة والضيق ، لشفتيه صبغ حسن ورقة معتدلة ولثغره حلاوة وللثته صبغ حسن مع استواء وللسانه ملوسة ولون غير مشوب بالصفرة ، وأن يكون طيب النكهة نقي بياض الأسنان حسن التركيب لها . بهذا الوصف وصفه صاحب كتاب السياسة ، وقد زاد عليه فى بيان الدلالات التفصيلية

وشرحها أن سعة الفم دليل الفهم والشجاعة وصغره دليل الفطنة والذكاء والاحتراز ، والمتقدم البارز كالزلوم دليل الشره والبله وكثرة الكلام ، واستقامته مع صغره دليل حب القتال والشجاعة والجرأة وسفك الدماء ، وغوره كأنه فى بئر دليل حب اللهو والاقدام .

وتكلم ذلك المؤلف على دلالات الشفتين فقال : أن رقتهما والتحام إحداهما على الأخرى فى انطباقهما مع سعة الفم دليل الجراءة وشدة الغضب والغش والحقد وخبث النية ، وأن غلظهما دليل الحمق وغلظ الطبع ، وأن تدليلهما وخصوصاً السفلى منهما مع سعة الفم دليل الجبن والعجز والمشي بالنميمة وضعف الهمة وشره النفس ، وأن تقدم العليا منهما على السفلى دليل محبة العلم والحكمة والفهم والأمانة وبعض الغفلة ، وأن استرخاءهما فى ملتقاهما حتى كأن العليا منهما ساقطة على السفلى دليل ثبات النفس والقوة ، وأن بروز الشفة السفلى دليل الحقد وسوء الفهم

وعلماء الفراسة والتوسم من الأفرنج يستدلون بالشفتين الغليظتين حتى كانهما تشبهان مخدتين محشوتين على فساد الطبع والبلادة وثقل الفهم ، وبالشفتين المرتفع مكان تلاقيهما من الجانبين على القحة والسخرية من الناس والصلف والخيلاء ، وبالشفتين الرقيقتين فى تضام واستقامة على الشر والرياء وقسوة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

القلب ، وبالشفة العليا ساقطة على السفلى فى تقدم خفيف على الرحمة والمعروف ولين العريكة ، وبالشفة السفلى متقدمة على العليا علي حب الملاذ والشهوات البدنية ، وبتقوس الشفتين مع تضام شديد بينهما على الصلف والاستبداد ، وبهبوطهما مع دخول فى الفم كأنهما غائرتان فيه على الشح ، وبصغرهما على الخيلاء والخفة والجبن ، وإذا انطبقت الشفتان على بعضهما من غير جهد وكانتا مستويتين والسفلى منهما متقدمة قليلا على العليا دلتا على الروية والأناءة والتبصر فى العواقب ، وإذا كانتا كبيرتين ومتوازيتين وكان ركناهما كالضمتين فى شكلهما دلتا على جودة الرأي وثقابة النظر وعلى براعة أصحابهما فى السياسة وطموحهم إلى المعالى . أما الشفتان اللتان لاتنطبقان على بعضهما بل لايزال مابينهما مفتوحا ومفضيا إلى داخل الفم ؛ وكانتا مع صفتهما هذه غليظتين فى استدارة ، فأنهما تدلان على الدعة والكسل وضعف الطبع وسرعة التصديق لكل ما يقال .

وذكر صاحب السياسة دلالات الأسنان فقال ما ملخصه: طول الأنياب دليل الكذب والشجاعة وقوتها مع الطول دليل الشره والنهم وقوة البدن ، وصغر الأسنان المنضودة بغير فلج دليل الكذب والنميمة والنسيان ، واختلاف أوضاعها دليل الهذر ، والأسنان الشبيهة بأسنان الكلاب تدل على النهم

والغدر والعظمة وسوء الهمة والحسد ، والأسنان المفلجة الحسنة الوضع دليل جودة الطبع ودماثة الخلق ، والأسنان الكبار المفلجة المختلفة تدل على رداءة الطبع والنائئة فوق اللثة تدل على الحرص وسوء الهمة ، وتقدم الأسنان العليا على السفلى دليل الحسد والحقد والجرأة والشح ، وقوة الأضراس والاسنان تدل على قوة البدن وطول العمر .

جاء فى علم الفراسة الحديث تنويها بأهمية دلالة الذقن على الأخلاق الباطنة مايأتى : « قلما يتنبه الناس إلى علاقة الذقن بالأخلاق ، والذقن في الحقيقة من أكثر الأعضاء علاقة بأخلاق الناس ، ومن أدلتهم على ذلك أن معظم الذقن من الفك السفلى ، والفك السفلى تقابل المخيخ فى مؤخر الدماغ . وبين المخيخ وتلك الفك علاقة أكيدة ، ومن أهم وظائف المخيخ الحب والموازنة والارادة ، والخصائص تتصل بالفك السفلى ثم بالذقن فالذقن فى الفراسة دليل الأرادة والحب الجنسى » . وللذقن بروازان : أمامي يتكون منه الذقن الحقيقى ، وخلفى يتكون منه الحنك ، والذقن إما مستدق غائر أو عريض ناتىء والحنك يتبع هذا التقسيم ، وهما يدلان على طول الفك السفلى وعرضها وطول هذه الفك دليل طول المخيخ وعرضه دليل عرضه وبروز الذقن إلى الأمام دليل الحب ، وعرض طرفه الأمامى دليل

الثبات والصبر ، وعكس ذلك الذقن القصير الغائر فأنه دليل الضعف والكراهة ، والذقن البارز بروزاً مستدقا دليل الشره في الحب والمضي فيه إلى الجنون ، وهذا النوع من الأذقان أكثر شيوعا فى النساء منه فى الرجال ، والذقن الزوجى البروز حتى كأنه ذقنان مفصولان بأخدود مستطيل لابنونة (طبع الحسن) أكثر شيوعا في الرجال منه فى النساء لايشبع صاحبه من الحب ، والذقن البارز وعرضه على خط مستقيم قصير دليل حب الخير والاحسان ، أو على خط مستقيم طويل دليل التدله فى العشق ، والذقن البارز فى استدارة واسعة دليل الثبات فى الحب .

وهناك دلالات للاشكال الأخرى من الأذقان على الأحوال الباطنة منها : أن صغر الذقن في استدارة وبروز قليل يدل على الحياء وفتور الهمة وقوة الاراده ، وصغره في استدارة وغلظ قليل على الزهو والجبن وإفشاء الأسرار ، والخانس المتراجع فى استدارة على ضعف الارادة وخور العزيمة والفرار من المصاعب ، وتربعه فى هيئة ذات زوايا مع بروزه على الشجاعة والأرادة والهمة ، واستقامته فى هيئة ذات زوايا على الثروة والتبصر والثبات ، وتوسط حجمه فى استدارة وبروز معتدل على العقل والرأى الصائب والروية ، وبروزه فى استدارة على التماس

الحقائق والبعد عن النظريات والفروض والأهلية لتولى رياسة الاعمال الكبيرة ، واستواؤه على الجفوة وفتور الطبع وحب الذات ، واستواؤه فى هبوط عمودي مع ظهور أثر العظم الذقني على العناد والمكابرة وتعمد الدعة ، وكبره فى استدارة وغلظ على الشهوات البدنية والغرائز المادية ، وكبره مع ظهور العظم الذقنى وبروزه مستدقا إلى أمام على قسوة القلب والبخل وحب التسلط ، وعرض الفكين وبروزهما يدلان على غلبة الشهوات والغرائز المادية وتسلط الشره والكبرياء . فأذا توافرت هذه الصفات فى شخص ، ولم ينضم اليها مايلطفها فأولى بك أن تأخذ الحذر منه وأن تنأى بجانبك عنه .

ولما كانت اللحية مرتبطة بالذقن ، فلا بأس من ذكر بعض دلالاتها ، نقلا عن كتاب السياسة فى علم الفراسة ، فقد ورد فيه : أحمد اللحاء عنابية لون الشعر أو التى كلون الخرنوب لا سبطة جداً ولا جعدة جداً ، ولا كثة جداً ولا خفيفة جداً ولا طويلة ولا قصيرة ، ولا خالية العنفقة ولا خالية اللحيين ، ولا منفردة الشعر ولا عبيثة ، ولا منفرقة فرقتين ولا منخرطة كالذنب المحدد ، ولاخشنة الشعر ولا ناعمته بل مستديرة إلى التربيع ليس فى الوجنتين منها نبات ولا تحت الحنك ولا فوق الحلقوم ، ولا متصلة الشعر بشعر الرأس من الصدغين ، فأذا توافرت هذه

الصفات فيها فأنها دليل العقل والعلم والعفة والشجاعة والذكاء وكل محمدة . ومن دلالات اللحية أنها إذا كانت مربعة خارجة الحروف دلت على خبث النية والجرأة على العظائم ،وإذا تفرقت فرقتين دلت على الشر والشجاعة والغدر ، وإذا كان بها شبيه النقرة بغير شعر دلت على المكر والميل إلى الشهوات ، وإذا استطالت فى رقة وتفرقت دلت على الجهل والكفر ، وإذا تفرقت فرقتين دقيقتين دلت على سوء الظن بالناس وحب الفتن والكذب والغدر ، وإذا استدارت فى استواء دلت على جودة الصحة وحسن الطبع وسرعة الفهم ، وإذا كانت عريضة مربعة الشكل من غير تفريق دلت على العقل ونفع الناس ، وإذا كانت خفيفة الشعر جداً سبطة دلت على الذكاء والفهم وحب النقش والكتابة ، وإذا كانت تشبه فى نباتها لحاء التيوس دلت على البلادة والجهل وحب المال ، وإذا كانت كثة ممتلئة الوسط شعراً دلت على قلة العقل والجرأة على العظائم ، وإذا كانت طويلة عريضة جداً مجنحة بجناحين دلت على الفهم والجرأة وجودة الطبع ، واللحية المرسلة الجعدة الشعر التى دون الكثة تدل على الفطنة والأقدام .

وصف ابن أبى طالب الأنصاري أحمد الأعناق بأنه العنق المعتدل بين الدقة والغلظ وبين القصر والطول ، وأن يكون

سبطا لينا خفيّ العروق والودجين والقصبة والحنجرة والفقار ، حسن اللون مستوى المغرز ، والعنق القصير الغليظ دليل الاقدام والشجاعة والصبر ، وإذا كان الرأس صغيراً والعنق غليظا والوجه طويلا دل ذلك على القحة والمجازفة والألحاح (لشبهه بالكلاب) والعنق الطويل الدقيق دليل الجبن وضعف النفس ورقة القلب ، والعنق الطويل الذى يميل يمنه ويسرة مع الحركة دليل ضعف النفس وسوء الهمة والذلة وقلة الثبات ونقص العقل ، والعنق الطويل فوقه الرأس الصغير دليل قلة العقل وحسن الصوت ، ونتوء الحنجرة مع ذلك دليل الشر والفحش والبخل والجهل والهذر لاسيما مع نتوء الودجين ، والعنق المسترخى دليل ضعف العقل والبدن وسوء الفهم والجبن وحسن الصوت ، والعنق المائل يمنة ويسرة حتى كأن الرأس متكىء على الكتف دليل الشجاعة وشراسة الأخلاق وغلظ الطبع ، وغلظ العنق مع كبر الرأس دليل الشجاعة .

ووصف ذلك المؤلف أحمد الآذان فقال : هى الاذن التى تكون مناسبة لمقدار رأسها وتكون حسنة التكوين ، ليست بمنكسرة ولا بمنبسطة ولا رقيقة ولا غليظة الشحمة ولا نابتة الشعر فى صماخها بكثرة ولا مشرفة الأعلا ، صغيرة الشحمة حسنة اللون والوضع والتكاسير التى بها . وجاء فى علم الفراسة

الحديث أن كبر الأذن يستلزم كبر الايدى وسائر الأعضاء والعكس بالعكس ، وقد وجدوا بالاستقراء أن رجال البر والاصلاح يغلب أن يكونوا كبار الآذان وقد وجدوا أيضاً أن جماعة من رجال الأموال كانوا كبار الآذان

وفى الفراسة الغربية : أن الشعر على الأذن دال علي جودة السمع وقلة العقل ، وأن الأذن الكبيرة ذات الانفراش دالة على الهذر والحمق ورداءة الهمة والكذب ، وأن عظم الأذن وغلظها دالان على الحرص وسوء الهمة ، وأن صغرها دال على الفهم والشر والغدر وقصر العمر ، وأن الأذن الرقيقة العظيمة دالة على نقص الفهم والفجور ، فأن كان شعرها ظاهراً فى صماخها دلت علي الجهل والفتور فى الأشياء ، والأذن الضغفاء المنكسرة تدل على الجهل والغفلة ، والمستديرة الرقيقة الشبيهة بالرق وهي ممسوحة إلى خلف الرأس على الذكاء وخفة النفس والعقل والترف ، والملساء الغليظة على الجهل وغلظ الطبع ، وإذا كانت الشحمة غليظة نازلة من الأذن دلت علي غلظ الطبع والخيانة . والأذن الكبيرة القائمة فى طولها الشبيهة بأذن الحيوان تدل على الجهل وطول العمر والبهمة .

وعند علماء الفراسة الغربية : أن الأذن المستطيلة من أعلاها إلى أسفلها علامة تميز الأصوات والتفريق بين نغماتها

وبخلافها الأذن العريضة . والأذن الكثيرة الطيات والتكاسير أقوى شعوراً بالأصوات من سواها وبخلافها الأذن التى ليس لها إلا تجويف واحد . وذوو الآذان الحساسة دقيقو الشعور بالأصوات الموسيقية وهم أهل الرقة والذوق من دون الناس .

والمخ مركز القوى العاقلة ومكانه من الدماغ خلف الجبهة ومنه يتألف القسم العاقل من أعضاء الانسان . والعينان والأذنان والأنف أى مشاعر البصر والسمع والشم المحسة للموجودات ، فهى أعضاؤه المميزة . والفم والشفتان أي أعضاء الذوق ، والذقن وهو مجتمع اللحيين واستطالة الفكين الماضغين للمطعومات فهى أعضاؤه المادية . قال ديبارول : « قصر الأنف مع استطالة الذقن عند المرء دليل غلبة المادية فيه على الروحانية وغلظ الأجزاء العليا واستطالتها على الذقن دليل غلبة العقل على المادة »

وخطوط ملامح الوجه إذا كان نظامها غير متسق بطبيعته وعن غير عارض ، كالاعوجاج فى أحد طرفى الفم والاختلال فى توازن العينين ، فأنها الدلالة على فساد القوى العقلية وإصابة الطبيعة بما يخرجها عن مجرى مألوفها . قال لافاتر : « يمتاز أرباب الحجى والدراية وحسن التدبير بتناسب الأعضاء وتناسق الملامح فى بروز يوضحها لنظر الناظر . أما الأغبياء البلداء الذين هم إلى الحيوانات العجم أقرب منهم إلى الانسان فيعرفون بانسياح

تلك الأعضاء والملامح بعضها على بعض فلا تعرف لها صفة تميزها، من تموّج خطوط أو انحرافها أو غير ذلك. فمن لم تكن أعضاؤه وحركاته متسقة النظام فى وضوح وظهور لاترتاب فيه عين الرائى، كأن يكون فى فمه أو فى يده أو فى مشيته انحراف يخرج بها عن التوازن والتناسق فى أوضاعها واتجاهاتها، فأحكم عليه فوراً بالتردد والتناقض والنقص فى تصرفاته وبالكذب والختل والفتور وخبث النية وغثاثتها وقسوة القلب وغلظ الكبد». وقد أورد لاروس هذا القول فى موسوعاته

ولا خلاف فى أن ماتقدم من البيان عن الوسائل التى يتيسر بمقتضاها الحكم على الناس تكون مبتورة وعلى غير تمام إذا لم تردف ببيان تفصيلى عن العلامات والأوصاف المميزة للأمزجة. ففي مذهب المتوسمين من العرب، كما جاء فى كتاب السياسة فى علم الفراسة، أن اللون الأبيض الكمد والرصاصى والجصى دال على برد المزاج، واللون الأحمر الأشقر دال على حرارته، والألوان الرائقة الصافية دالة على رقة الأخلاط، والكدرة دالة على غلظ المزاج، واللون الابيض المشوب بالحمرة المعتدلة دال على اعتداله، فأن كانت الحمرة أكثر والصفاء أقل دلت على استيلاء الدم، وإن كانت ناقصة حتى أنها تضرب إلى العاجية دلت على قلة الدم، فأن نقصت أكثر حتى تنعدم دلت

على قلة الدم واستيلاء البلغم ويسمى ذلك اللون الجصيّ ، فأن كان اللون يضرب إلى البياض وتشوبه خضرة يسمى اللون الرصاصيّ ودل على قلة الصفراء والدم واستيلاء السوداء والبلغم ، وإن كانت الأدمة حسنة المنظر غير سمجة ولا ضاربة إلى البياض سميت الدهومة وهى دالة على مزاج حار إلى اعتدال ، وإن كانت بحمرة يسيرة صافية دلت على مزاج معتدل بحرارة ما ، وإن كانت الأدمة ضاربة إلى الصفرة كان صاحبها أحدّ مزاجا وبعكسها ان كانت أميل إلى الخضرة ، وإن كانت الشقرة إلى البياض فصاحبها أبرد مزاجا أو كانت إلى الحمرة أو الصفرة فهو أحرّ مزاجا ، والغلاظة والعبالة دالتان على مزاج رطب والرقة والنحافة على مزاج يابس ، فأن كانت مع العبالة صلابة لحم واكتناز والحمرة الدموية ظاهره فى اللون فأن مع الحراره رطوبة بقدر ذلك ، وإن كان مع العبالة والشحم الرهولة وقلة الدم فالمزاج مع الرطوبة بارد ، وسعة تجاويف الأعضاء ومجاريها ومباعثها دليل حرارة المزاج ورقته وعكس ذلك دليل برده . والحار الملمس حار المزاج والخشنه يابسه ، فأن كان الملمس حارا لينا دل على حرارة المزاج ورطوبته ، وإن كان خشنا حارّا دل على الحرارة واليبس وإن كان باردا خشنا دل على البرد واليبس وهو نادر فأنه قل أن يجتمع برد الملمس وخشونته

وفى مذهب الأفرنج : أن الأمزجة اربعة : اللنفاوي وهو مزاج المرء الهادىء والدموي وهو مزاج المرء النشيط العامل والعصبيّ وهو مزاج صاحب الحجى والمعرفة غير المتفائل بالخير والصفراوي وهو مزاج رب الارادة والعزيمة . ومن أوصاف اللنفاوى غلاظة الجسم وعبالته وترهل لحمه وتلحم وجهه فى بياض مشرب أو غير مشرب بالحمرة وهو ذو ملامح بعيدة عن التغضن مع استدارتها ، وعينين رطبتين كأنهما مغرورقتان بالدموع لا لمعة لهما ، وشعر أشقر حريري الملمس فى قلة . ومن خلائقه السكون والاستكانة والاستسلام لما تأتى به الأقدار والرضى بتحكم الغير والرغبة عن الابتكار واتقاء الحركة والنشاط وكل جهد ذاتى . فهو مهما يجد من الحوادث الخطيرة لا يقابلها بشيء من الاكترات ، وإذا أظهر اهتماما بأمر فما ذلك إلا بتأثير ظروف قاهرة أو إرادة خارجة عن إرادته . ولجموده على القديم وتمسكه بأذيال التقاليد تراه لا يسير إلا فى السبل المطروقه من قبل ولا يزاول إلا عملا بذاته من الأعمال التى يعاونه عقله الساكن الدقيق على ادائها ببطء على مايوجب الرضاء والارتياح لا ينزع بهمته إلى الغضب ولا إلى الطمع لأنه مفكر متأمل يسبح على الدوام فى أجواء الخيال والأحلام . إذا تكلم فبصوت خافت متجانس بطيء بعيدة نبراته عن الاختلاف والتباين ،

وإذا تكلم فبعبارة مملة تدعو السامع إلى الملال بل إلى النوم أحيانا تخلوها مما يلفت النظر ويجذب السمع كالحركات والأشارات التى تقترن بها . وتكون راحة يده رطبة فى لين وترهل وإذا مشى كان مشيه وئيداً بخطوات متعثرة . وإذا اشتغل عاملا فى وظيفة كان خير المثل للعامل المثابر والخادم الممتثل

ومن صفات صاحب المزاج الدموي أن يكون متوسط السمن وثيق العضلات أحمر اللون واسع العينين مستقيم النظر متقلب العينين براقهما أحمر الشفتين غزير الشعر أشقره وأسوده متجعده وسبطه . ومن خلائقه البشاشة وحب الظهور بالمودة والحماس والافراط من الحركة والأشارة يعبر بهما عن شعوره النفسي . يتوقع الخير على الدوام ويحمل الأمور على محاملها الحسنة وتبدو له صحيفة الحياة كأنها منمقة بالزهر الأنيق . يحب اللهو ويجنح اليه . غضبه سريع ولكنه لا يلبث أن يعقبه الحلم والعفو . ويمتاز بقوة الذاكرة وصدق الحكم وصواب النظر وإن يكن لا يتحرى الأعماق بمواهبه العقلية . ويسره الظهور بصفات أصحاب الشهامة والمروءة والأنسانية واللطف . وسرعان ما يتأثر بعوامل الاحترام والاعتبار تبذل اليه فيهش لها ويصغي إلى أقوال الملق والاستدراج . ونبرات صوته شديدة وحديثه يعلو فيه الصياح واللغط وترصعه الألفاظ المنتقاة والعبارات الأنيقة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

والنكت اللطيفة يتخللها إطلاق العنان للحلق بالقهقهة العالية ولأعضاء الجسم بالحركات المتعاقبة والاشارات المتكررة . وإذا حياك باليد أحسست شدة ضغطها وحرارة مجسها . وإذا سار نهب الأرض بخطواته الواسعة التى لايعوقها عائق تعثر أو تخبل. وإذا باشر عملا باشره بجد وهمة واكتسح ما يعترضه من العقبات والحوائل

أما صاحب المزاج العصبي فهو فى العادة نحيف ممتشق القوام باهت اللون إلى صفرة براق العينين متقلبهما أشقر الشعر وأحيانا أسودهما، تكاد ملامحه تنمّ عن حقيقة نفسه . وهو سريع الاحساس من الوجهتين الأدبية والمادية تثور ثائرته فينزعج أو يتحمس لشيء أو للاشيء فهو كالطير المغرد فى وضح النهار لا يلبث أن يطير لحفيف أول ورقة من الدوح تمر فى سقوطها إلى جانبه . يمتاز بسرعة الفهم وحدة الذكاء وحب الاستطلاع والميل إلى المطايبة واسع التصور يؤثر الخواطر والفكر على الحقائق والأعمال ، يقدم بأقواله وأعماله الدليل الناهض على رقة طبعه وسلاسة خلقه ولطف ذوقه ولكن كثيراً ما يبنيها على غير روية ولا تأمل . وشنشنته المعروفة عنه متابعته فى آن واحد أعمالا ومشاريع مختلفة ثم تركه إياها عند اصطدامه بأول عقبة فى الطريق لمباشرة أعمال غيرها ، وهو إذا حدث مال الى وجوه

البديع فى حديثه الذى كثيراً ماتبدو عليه صبغة الغرابة ويكون مع توخيه المبالغة فيه جمّ الفوائد جذابا بطلاوته وعذوبته . سريع الحركات والاشارات في لين وتنوع ، إذا جمع أصابع يده برزت للعيان عظامها وظهرت عليها أمارات النحول والجفاف ، وإذا مشى فبخطوات قصيرة بطيئة ، وبالجملة فصاحب هذا المزاج شاعر السليقة فنان مجدّد .

أما المزاج الصفراوى فغالباً مايكون صاحبه نحيف الجسم دقيق الأعضاء بعضلات بارزة ، فى لونه كمودة مشوبة باللون الزعفرانى أو الزيتونى ، غائر العين كثيراً فى الحجاج ، ظاهر الملامح والتقاطيع محدد أرنبة الأنف أو أقناه بارز الذقن أسود الشعر أو أشقره ، تميزه عن عامة الناس إرادة قوية لاتثنى وهمة لا تغالب ، نشيط فى العمل مثابر عليه جسور ثابت الجأش نزوع إلى المشاريع الكبيرة وجلائل الأعمال . ما من عمل يقوم به إلا وفيه الدلائل على نظر ثاقب وعزيمة ماضية وإباء نفس ، لهذا تراه يلتمس المعالى والحكم وحمل الغير على الأخذ بآرائه . وهو إذا غضب قد يتمادى في غضبه إلى أقصى حد وإذا حزن استسلم إلى الحزن الشديد وإذا تكلم دلت نبرات صوته على العزيمة والثبات والأمر ، غير أن حديثه كثيراً ما يكون سهلا جزلا ينساق السامع إلى الأصغاء اليه أراد ذلك أم لم يرده . وفى

حركاته وإشاراته دلائل تنمّ على عزة النفس والغطرسة ونزعة التعدى . إذا جمع يده بدت للامسها صلبة باردة ، وإذا مشى فبخطوات واسعة فى اختيال وعظمة . وصاحب هذا المزاج ، إما سيد عالى القدر أو ثائر يلتمس المعالى .

ويندر أن تتوافر فى شخص خصائص مزاج واحد برمتها ، لأن أغلب الأمزجة تتلاقى وتتصهر فى المرء الواحد . فهناك المزاج الدموي الصفراوى الذى تجتمع فى صاحبه صفات النشاط والابتهاج وطلاوة الحديث المقترن بالأيماء ، وهي صفات صاحب المزاج الصفراوى خاصة ، والمزاج الدموى اللنفاوى الذى يتصف صاحبه بحلاوة الطباع ودماثة الأخلاق وحب السكون وهي صفات صاحب المزاج اللنفاوى خاصة منضمة إلى بعض صفات صاحب المزاج الدموي كسلامة الذوق وصواب الرأى وشهامة النفس ، والمزاج الدموي العصبى ويمتاز صاحبه بسرعة الشعور وحدة الذكاء وحب النشاط والميل إلى الشهوات ، والمزاج الصفراوى اللنفاوى ويعرف صاحبه بتباين النزعات وتناقض الميول فتارة يكون صاحب همة ونشاط فى ضعف واسترخاء ، وطوراً يكون صاحب عزيمة فى تردد وتشكك ، والمزاج الصفراوي العصبي ومن صفات صاحبه التأثر السريع والغضب المفرط وحب التسلط مع الجد والنشاط فى قلق وغضب وحسد ،

والمزاج اللنفاوى العصبي ويتصل بالمزاج اللنفاوى فى الميل إلى التأمل والتحليق فى أجواء الخيال والنزوع إلى البطالة مضافاً كل ذلك إلى شيء من مميزات المزاج العصبي كجودة التصور والقلق وقلة الثبات والاستقرار . وعلى فراسة المتفرس يتوقف علمه بحقيقة الأمزجة ونصيبها من هذه العلامات والخصائص التى إذا انتقشت فى ذاكرته وطبقت حين التفرس تطبيقاً دقيقاً قلما تصادفه صعوبة فى تبين أخلاق الناس واستطلاع ميولهم ومعرفة محامدهم ومقابحهم

والواجب على المتفرس ، إذا أراد أن يصيب شاكلة الصواب فى فراسته ، أن يصرف التفاته نحو عبارة محدثه وأوضاع جسمه عند الحديث . فقد قال أوجين سابوس : « الكلام ديباجة المتكلم وبه يكون الحكم له أو عليه ، بل هو مثال منتزع منه كمثال القماش يحكم بمقتضاه على نوعه وجودته ، المحادثة مرآة ينطبع فيها ذهن المحدث وعقله ، ومن الأحوال والخصائص ما تشف الكلمة الواحدة عن حقيقته ، ولو وصلت إلى سمعى كلمة واحدة من قول محدث لاستطعت أن أنبئك بمكانته فى المجتمع ونصيبه من العلم والأدب بل أن أنبئك حتى لو كان امرأة ، بالسن التى بلغت اليها » . وقال سقراط الحكيم لرجل : « تكلم حتى أراك » . والذى يردد لسانه فى الحديث أقوالا

مثل : « الغاية تبرر الواسطة » « القوة فوق الحق » « ليس الفقر بعذر » « من بعدى الطوفان » وما إلى ذلك من الأقوال التى تنم عن جحود القلب وخبث النية وتجرد النفس من عاطفة الخير ، وتبدو فى غشاء براق من الحكمة الباطلة فأنما هو من لا يصح الاعتماد عليه ولا الثقة بما ينتحله من الصدق والاخلاص

لا يجوز لك أن تكل إلى الجاهل قدرَ الألفاظ وقيمة ما ترمى اليه من المعانى النضال عنك ولا الذود عن مصالحك ، لمجرد تخيلك أنه من أرباب البلاغة والافحام . وحذار أن يكون ممن لا يفرقون بين الكلمات المتماثلة المبنى لأنهم يصدفونها عن المعنى المراد ويفتحون بذلك أبواب اللبس وسوء الفهم بل والضرر الفادح الذى هو ثمرة الثقافة المبتورة التى تسبغ على صاحبها رداء الخمول

الرجل الذى يتقدم اليك فى بزة لا يتعمل فيها التجمل ولا يتحرى الغفلة والاهمال ، ويبدى من أساليب الأدب ما يدفع عنه مظنة التصنع والكلفة ويكون مع هذا وذاك كتوما للأسرار مراعيا لمقتضى الحال ، والذى إذا فررت مجاسده وجدتها أنصع ما يكون بياضاً أو إذا نظرت حذاءه ألفيته براقا لامعا أو تأملت رباط رقبته رأيته محكم العقدة مستوي الوضع يدل دلالة واضحة بهيئته هذه على أنه ممن تعودوا الترتيب والنظام ونشأوا نشأة

طيبة ووهبهم الله عقلا رشيداً ورأياً أصيلا . أما الذى يبرز لك فى ثياب غريبة التركيب شاذة التأليف ، كأن تكون ساطعة الألوان كبيرة الأجزاء أو صغيرتها من غير حاجة ، أو كأن يرصع كل أصابعه بالخواتم المختلفة أو يحمل على صدريته سلسلة ثقيلة ضخمة من أحد المعدنين الكريمين أو يسرف من الأيماء ورفع الصوت أو يتصدر المجالس من غير حق أو يلفت فيها الأنظار إلى شخصه أو يتمدح كفاياته مستجديا من سامعيه الأعجاب به فأنما هو أحمق مجرد من الذوق ومشعوذ سيء التربية منحط الذكاء عن الدرجة الوسطى

والرجل الذى ترى معطفه وقد انتثرت عليه أوضار الأدهان ولطخات الأقذار من كل نوع وحجم أو انحل رباط رقبته فاختل وضعه وفسد نظامه أو بدا فى قميصه من العلامات مايدل على قلة العناية بالسياسة في لبسه وخلعه ، أو تلوث حذاؤه بالطين أو الذى يبصق على الأرض أو يضع يديه فى جيبيه ويمشى اختيالا أو ينفخ فى وجهك أو يأتى من الفعال مايجرى هذا المجرى قبحا وسوء أدب ، فأنما يقيم الدليل على كراهيته النظام والنسق الحسن واعتياده القذر والكسل وعلى تجرده من الكرامة والشرف وهبوطه إلى الحضيض الذى يتمرغ فيه الأوشاب والسوقة والحرافيش

الحركة غير الارادية تبدر منك فى شدة وعنف فلا تتفق ومجرى حديثك الهادىء الوديع ، وجمعك أصابع اليدين كأنك تتأهب للملاكمة والمضاربة ، وصريف الأسنان ناجما عن اصطكاك الفكين ، وظنك وأنت تأتى عملا غير مباح أن أعين الرقباء غافلة عنك ، وفغرك فاك بحيث تنفرج زاوية الفكين فى شكل يذكر الناظر بالكلب وقد فغر فاه استعدادا للعض والقضم كل ذلك ينمّ على خسة الطبع ودناءة النفس والنزول إلى درك الوحوش ، وعلى أن همجية الاجداد قد ورثها الأحفاد والأعقاب وأنه لا فرق بين من تلك نقائصه وبين من كانوا فى غياهب الهمجية قبل مئات السنين متخبطين . أشباه ذلك الرجل ، وانا لنربأ بك أن تكون عدادهم ، لابد من الحذر والتأنى وثقابة البصر فى مخالطتهم ومعاملتهم .

إذا وقع نظرك لأول مرة على رجل فاحفظ ذكرى الشعور الذي يتركه مرآه فى نفسك ، وتبين بالرغم من حسن مظهره حقيقة هذا الشعور واستطلع أسبابه ولا سيما إذا كان ماحسست به يدعوك إلى النفور منه والكراهية له . إن هناك فى هذه الحالة سببا مجهولا لما تحسه يتحتم عليك استطلاعه قبل أن تولى ذلك الرجل ثقتك أو تفضى اليه بسرك . أما إذا شعرت بما يصرفك رغم إرادتك نحو هذا الذى اتصلت به لأول مرة

وجنحت اليه بعواطفك فأن فى الأمر مايدعو إلى التفكير فى وجود رابطة خفية تربط قلبيكما على غير بينة منكما ، وأن هنـاك اتفاقا فى الآراء وتماثلا فى الأخلاق والميول بينكما يجعلانه جديرا بمودتك أثيراً بصحبتك . قال لافاتر الألمانى « إذا تقدم اليك أمرؤ فى ثوبه الحقيقي لايخفى عنك شيئا من أمره فهل فى سلوكه هذا معك أول وهلة مايعطف عليه قلبك ويحملك على تأييده وشد أزره ؟ وهل ترى أن فى الخطـة التى سار عليها مايؤذى كرامتك أو يسبب لنفسك حرجا أو مضايقة أو إرهاقا على وجه ما ؟ أو هل تشعر على الفور وهذا الرجل فى حضرتك كأنك تحسّ بارتياح لرؤيتـه واغتباط لمعرفتك إياه حتى ولو لم يفاتحك بحديثه بعد ؟ ثق فى هذه الحالة بأن مثل هذا الرجل قد حلّ من نفسك منزلة عليا وأنه لن يهبط منها أبداً ما لم يندس بينكما دخيل يبغى التفرقة بينكما . وما أحسست هذا الشعور إلا لانك وإياه مخلوقان من سابق الأزل كلا كما للأخر وأن الـكلم القليلة تكفى للتعبير عن كـثير من مرادكما » اه .وقد أورد لاروس هذا القول في موسوعاته الـكبرى

الآن وقد تبينت حقيقة المرء الذى ارتبطت وإياه برابطة العمل ، كيف تستطيع استمالته اليك للاستفادة بعونه ، وما هى الوسائل إلى تحصين نفسك من أذاه إذا كان يضمر لك الشر

ويتربص بك النوائب ، أو ما هي التدابير لحمله على الأصغاء لقولك والعمل بمشورتك أو لاقناعه بمد يد المساعدة اليك وإشراكه فى أغراضك أو للتملص من سيطرته عليك واتقاء الشباك التى ينصبها فى طريقك ؟

ذاك هو ما لانلبث أن نبحث فيه معا

خلق الانسان شغوفا بشهواته ونزعاته متمسكا بها حريصاً عليها خيراً كانت أم شراً ، فهو يميل إلى سماع الأقوال من محبذيها فى إطرائها ومن أصحاب المداهنة والملق فى مدحه ومشايعتهم إياه فيما يخاله صوابا وهو خطأ وفيما يسنده إلى نفسه من الفضائل والمزايا وهو خلو منها . والمرء إذا تملكه حب الشهوات وانحدر فى تيارها ولم يصده عنان عنها ضل عقله في بيداء الوهم فلم يعد له عليه من سلطان وغشيت إدراكه ظلمات بعضها فوق بعض ، فلا يميز بين الأشياء حسنها وقبيحها سمينها وغثها . لأن تأثره الوجدانى بعامل الشهوات قد سلبه الصواب فى الحكم على الأشخاص والأشياء وحرم قوة الادراك فيه فضيلة السكون الذى لاغنى عنه فى تقدير خطورة النيات التى ينتويها وما قد ينجم عنها من نفع أو ضرر . وبالجملة فأنه يصبح وقد انساب من قبضته زمام أمره وصار إلى حال تجعله خاضعا لوحي غيره مصدقا لأول قول يلقي على سمعه

إذا عرفت هذا الضعف من نفسه فعالجه حتى ترد به مورداً يشعر فيه بذل الاستكانة ، فلا يلبث أن يخنع لك ويتلقى بالطاعة إشارتك . عندئذ تصرف فى إرادته على ماتهوى والعب به لعب الصوالج بالأكر ، وإن بدت لك منه يقظة فاتق عواقبها بشىء من المدح والثناء والاعجاب بمحامده وفعاله وكرر ذلك على مسمعه فأنك بذلك تستثير شهواته وميوله من مكامنها وتزج بأرادته فى مأزق لا منفذ لها منه . إنه بمثل هذا التدبير ينسي على التدريج ضرورة البقاء فى موقف الدفاع فتتلاشى عنده قوة المقاومة وتحدث في عقله ثلمة تستطيع التسرب منها اليه ، فما هي إلا غمضة الجفن حتى تراه مشاركا إياك فيما أنت به مقتنع واليه ذاهب ومصادقا علي آرائك التى يخيل له أنها آراؤه المبتكرة ومنفذا فى الوقت مانوحيه اليه من سماء إرادتك

إذا كان محدثك ممن يحبون السكون والتؤدة فاجعل محور حديثك دائراً على السكون وكن مثله ساكنا متئدا وهيء له من الأسباب مايعتمد عليه فى الالتجاء إلى الفراغ والسبح فى أجواء الأحلام والأوهام ولا ترهقه أبداً وهو قابع في عقر داره بشىء ما يستدعى الحركة والعجلة . وأصخ بسمعك إلى قوله محدثا عن الجهود وما وراء بذلها من قلة الفائده وعن المخاطرة والتقحم وما يعقبهما من تعب لاجدوى منه وعن الابتكار

والأبداع وما يفضيان اليه من فشل وحبوط أمل وعن القناعة بخمول الذكر وما يحف بها من راحة ونعيم بال . وحذار أن تصدفه عن ملاذه المادية التى هو لها موفق بحكم غريزته ومقتضى فطرته التى فطره الله عليها

أما الرجل العامل النشيط المجدّ فى عمله فحدثه عن العمل وفضله والهمة وصدق أثرها وقاسمه حسن الظن فى المستقبل وافتح أمامه الأبواب يلج منها إلى ميادين النشاط يبرهن فيها على كفايته وأهليته للأنتاج والأبداع وانشر أمامه مناقب العمل وبثّ له المشاريع الكبرى وما وراء تحقيقها من المفاخر . وإذا كان ممن يرتاحون إلى الابتهاج واللهو فجاره فيما يميل اليه ويؤثره منهما وكن له الخل الوفيّ يفضى اليك بأسرار أعماله ومشاريعه وبما يحسه فى نفسه من مختلف العوامل كالأمل واليأس والسكينة والانزعاج

أما الرجل المتعلم فحدثه إذا كان سريع التأثر عصبي المزاج عن العلوم وفائدتها وفضلها وصدق أثرها فى رفع مستوى المجتمع وعن الفنون وجمالها ومحامدها ، وتحرّ بخاصة الأفاضة فيما يتبين لك منها أنه أكثر ملاءمة لذوقه ومجاراةً لميله . أبسط له وجهة نظرك فى استقصاء ماينبغي استقصاؤه منها مشفوعة بآرائك الخاصة وما تكون قد اهتديت اليه من الاستنباطات الجديدة

فيها ولا تدع وسيلة حتى تتخذها لتستفزه إلى طرق الموضوع إما لينتقد أو ليحبذ، ولا تعترضه إذا تدفق فى الملاحظة أو غالى فى التحمس، وتوق جهدك أن تذكر ما يرتاع له فؤاده من أنه يبني القصور والعلالى على أساس من الرمال أو أنه يمضى فى تيار الخيال ويتعلق بأهداب الباطل من الآمال، ولا تمارِه في آرائه بل اقدح زناد فكرك لتأييدها وتحبيذها وإقامة الأدلة على صوابها واتركه على الجملة يختال اختيالا فى بيداء الوهم والخيال

وإذا كان محدثك من أصحاب الطمع الذين يتوقون إلى المعالى أو من ذوى الأرادة والعزيمة أو غير ذلك من الفضائل النفسية فأذك فى نفسه نار الطمع وبث فى إرادته قوة ومتانة من تحبيذك إياها وأفسح المجال لما يداخله من الآمال واذكر له تطور الحياة العصرية وما يصحبه من الوسائل التى تسهل للعامل المجدّ تحقيق أحلامه وأمانيه. وإياك أن تنسى موافاته بكلم التشجيع تستفز بها جرأته لاقتحام غمار المشاريع وارسم له الخطط الكفيلة بالوصول إلى الغرض المقصود وما وراء النجاح والفوز من كرامة ومفخرة ومجد واستثر كامن همته حتى يستقر في خلده أن المجد كله للظافر وأنه لن يقبض على صولجانه إلا ملوك الهمة والأرادة الذين يأبون فى حلبة السبق إلا أن يكونوا من المجلين ولا تدخر وسعا لاطراء المشاريع التى يعتزم تنفيذها وانحن إجلالا له وتعظيما

لقدرته ونبوغه ولا يكن عليك من ذلك غضاضة

إذا كان من خلائق محدثك أو معاشرك الميل إلى الطرب والسرور والتماس أسباب المرح واللهو فلا تقصدن اليه في رواية الأخبار المحزنة والحوادث المكدرة ولا تذكر له شيئاً ما من همومك أو من نكبات الدهر وبوائق الأيام تريد بذلك إيقاظ عواطف الحنان والرحمة فى قلبه على المنكوبين والبائسين ، لأنه فى هذه الحالة قلما يلتفت اليك وإذا التفت فأنما ببصره لا ببصيرته ، ويكون من النتائج المحققة لحديثك معه على ذلك المنوال أن يشعر بالملل منك ويسعى جهده لمجانبتك ، دع أنك لا تكون قد أصبت شيئاً من مرماك الذى لأجله انتحيت ذلك الأسلوب من الحديث . وكذا إذا بدا لك على وجه مخاطبك أو من حركاته وإشاراته ما يستشعر منه الهم وانزعاج البال أو إذا لمحت من عينيه مايدل على كدره وحزنه فمن سوء الفهم وجفاء الطبع أن تتجه اليه محدثاً ببواعث فرحك وابتهاجك منبئاً بأخبار نجاحك وفلاحك وانما يحسن بك أن تشاركه فيما نابه من الحزن ودهاه من حوادث الدهر وتواسيه ببيان مزايا الصبر على المكروه . قال بيشرل الكبير فى كتابه (فن التفوق في الاجتماع) : « تحرّ في وجه محدثك مايكون كلامك قد أحدثه من الأثر فى نفسه واستطلع طلع العاطفة التى انفعل بها فؤاده وتابعه بنظرك

لا تغضّ عنه طرفك ، فأنك إن تعمل بهذه النصيحة ترشدك عيناك الشاخصتان اليه المتابعتان له فى حركته وسكونه إلى ما يليق أن تبديه من القول فتجهر به وما لا يليق فتمسك عنه ، فرب كلمة تبدر منك عن غير روية أوعن جهل بنفسية محدثك أثناء قيام الحديث تزج بك فى مأزق لاخلاص منه »

أما اذا كان مرادك تحصين نفسك من نية السوء التى يضمرها لك خصم عنيد أو التماص من اقتراح يقترحه عليك مقترح ملحف لجوج فعليك في التماس الخلاص منه بسياسة تناقض تلك التى بسطناها لك على خط مستقيم . مفروض أنك قد عرفت مزاجه وأنك قد اهتديت بهذه المعرفة الى حقيقة أخلاقه وكنه طباعه ، وبالتالى الأسلوب الذى اعتمد عليه فى مغالبتك والهجوم عليك . فأذا كان ذلك كذلك فاكشف القناع عن هذا الاسلوب وما يكون قد عززه به من التدابير والحيل ، فاذا كلمك مداهناً مملقاً فضع أصابعك فى أذنيك حذر ان تفعل المداهنة فعلها فى نفسك وكن رقيباً شديد الصرامة فى مراقبتك على لسانك ومهيمناً قوى الهيمنة على أفكارك وخواطرك فلا تبدرن من لسانك كلمة ولا من رأسك فكرة يتخذها ذلك الخصم اللدود الذى يتربص بك العثرات والمزالق مسرباً يتسرب بك فيه إلى حيث تتقدم اليه بالتنحي عن رأيك

والتنازل عن حقك ، بل لك أن تقابل مطالبه واقتراحاته وحججه بالرفض الصريح والأفحام المقنع . واذا انطوت أقواله على وعد أو عهد فأنما يجب عليك أن تولى بكتفك عنهما . وكن على الجملة ثابت العزيمة فى صرامتك معه بل كن أمنع عليه من عقاب الجوّ

ولكن لا تنس مع هذا كله ماله عليك ، فى غضون الحوار القائم بينكما ، من حقوق المجاملة والظرف وجميل الرعاية . ومما ينبغي فى هذا الموضوع أن تنصرف اليه أثناء الحديث مصغياً ومبدياً أمارات التسليم بما يسوقه من حجج وبراهين لتدعيمها . وان فى هذ الادب الواجب لمصلحة سوف تتجلى حسن عاقبتها بتمهيد الفوز لك عليه فى حلبة المناظرة ، لأنه يكون قد انفق كل مافى جعبته من الحجج والبراهين واستنفد ماعنده من حماس وهمة وضعف بذلك جانبه ، فتحمل عندئذ عليه الحملة الاخيرة التى يكون النصر بها مكفولا لك . واقتد فى معالجتك إياه أثناء المناظرة بمروّض الفرس الشموس ، يرخي لها العنان ويخلى لها الميدان تمرح فيه عدوًا تارة وخبباً تارة أخرى ، حتى إذا فنيت قوتها واعتراها الكلال ولم تعد لها قدرة على التمادى فى غلواء جموحها ، عادت إليه ووقفت طائعة مختارة بين يديه . إنك إن تعالجه كما تعالج المروّض هذه الفرس لا تلبث أن تراه وقد

قصرت به الكلم عن تبيان مراده وخانته الأدلة والبراهين يعززه بها . عندئذ ، وقد انثلم حده ووهت قوته وأصبح بعبارة أخرى عزلا من السلاح ، تنبرى أنت له بتفنيد أدلته من غير أن تبدو على عبارتك مسحة الحزازة أو التشفى . وتوخ فى ذلك براعة المنطق وحسن النسق في تؤدة وسكون واختم كلامك معه برفض ما عرضه عليك من طلب أو اقتراح رفضاً مقروناً بحسن الاعتذار وجميل الأسف لعجزك عن ارضائه بالموافقة عليهما . ومتى طرق سمعه ما لم يكن يتوقعه من هذا الرفض ورأى منك ما لم يخطر بباله من صلابتك وشدة عزيمتك فأنه ، وقد استنزف كل ما عنده من حول وحيلة لأقناعك برأيه ، لا يلبث أن يتخبل فى أمره . فأذا عاد إلى الألحاح واللجاج ففي تردّدٍ واستخذاء ، لا يلبث أن ينسحب معهما من ميدان الحديث « بانتظام » بل وامتعاض مقرون بعقيدة أنه حينما وثب عليك وثبته الشديدة ليقنعك برأيه كان وثوبه على من هو أشد منه عارضة وأقوى حجة وأصعب مراساً

إن النجاح ، أو مع التساهل والتجوز الشطر الأوفى منه ، منوط بما يبديه طالبه من الخبرة والحذق في معالجة الناس وممارستهم . فمما لا بد منه أن تعرف المبادىء الأولية الكفيلة بالوصول إلى مرادك . وخلّ عنك العلم التام بأصوله الأساسية

الى ما تكون قد كسبته مع مضي الزمن من الخبرة والمران . وعلى كل حال فالواجب عليك أن تجعل نصب عينيك على الدوام ألا تتخذ العلم وسيلة لغير العمل النافع . وليس معنى ان يكون لك السلطان والحكم على الغير ان تلتمس الاستفادة من ضعفه أو سلامة نيته أو أن تستعبده لمصلحتك أو كبريائك . فليس فضل أن يعلو امرؤ على امرىء طبقة أو طبقات بفعله أو بماله أن ينتحل لنفسه حقوقاً إذا تذرع بها نزلت بكرامته إلى الحضيض . واعلم أن لأهل التواضع والخشوع حقاً ثابتاً فى عونك إياهم كما أن للجهلاء حقاً اخر فى الاستنارة بخبرتك والاسترشاد بعلمك وأن من الواجب عليك أن تناصر الفريقين وتكون لهم حصناً منيعاً يقيهم نكبات الدهر وبوائق الحدثان

آداب وفضائل شتى

نبحث الآن فى طائفة من الآداب والفضائل التى وان تكن بالنسبة لما ذكرناه في هذا الكتاب كالفرع من الأصل ليست بأقل منها أهمية ولا قدرا من حيث تأثيرها فى نفس مريد العمل بها

يجب على كل راغب فى انتهاج الخطة التى رسمها أن يعمل لأحراز ثقة الناس ومودتهم ، وهو مالا يتيسر له الا إذا تأدب معهم فهش في وجوههم وأحسن اليهم وراعى حقوقهم . فأن كانوا دونه في المكانة أو فى السن فقد حق عليه أن يجعل المجاملة والمعروف إماماً له فى معاملتهم أو تكلموا فليصغ اليهم بلا جزع ولا ملل أو مثلوا فى حضرته فليتلقهم باللطف والاكرام . قال بيشرل فى كتابه (فن التفوق فى الاجتماع) مايأتى : « ترفع البشاشة من مقام صاحبها فى أعين الناس وتزجى إلى أذهانهم عنه خير

الأفكار وأصلح الظنون . ومن مزاياها بث الثقة فى نفوس من يعاملون بها من ذوى الدرجات الواطية . وهي والأدب شيئان مختلفان ، لذا ينبغى لفت الأنظار إلى التميز بينهما . فأن الأدب فرض يتحتم عليك أداؤه لكل من تجمعك به رابطة عمل ، أما البشاشة ففرض أيضا واجب لمن هم دونك . والمتأدب هو من يحرص على حق الغير ويتعهده بالأدب والاحترام ، أما البشوش فهو الذى يعامل الناس بالعطف وحسن الرعاية »

إذا صافاك الدهر فوضع فى يدك صولجان السلطة وأجرى فى الناس حكمك فلا تقم الدليل على عظمتك ورفعة مكانتك بالكبرياء والبطش بل احكم بينهم بالعدل و نزه نفسك عن الشدة والغطرسة تعاملهم بها . ومن الخطأ اعتقادك أن فضلك على مرؤوسك لاتتوثق عقدته إلا إذا عاملته بالشدة وتحكمت فيه تحكم المستبد الغشوم . وقد نهض الدليل فى جميع ظروف الحياة وأحوالها على أنه حيث لا مناص من معاملة الناس بيد من الحديد ينبغى سترها بقفاز من الحرير لأن الضغط بها وهي كذلك يكون أخف إيلاما وألطف وقعا مع احتفاظها بشدتها وصلابتها ، فلا تلبث أن ترى الذين تعاملهم على هذا الوجه منقادين لك مذعنين لإرادتك من غير غضاضة ولا حرج صدر

ولقد صور الفيلسوف رينان الاعتدال فى أقوم مثال حيث

قال : « الانسان مخلوق من الخشب الذى تصنع منه القسيّ فكلما زدته تقويساً ازداد اعتدالا » فعلى الذين وضعت بأيديهم أزمة الحكم أن يفكروا فى هذه الحكمة البالغة ويجعلوها نصب أعينهم وليس لأحدهم حق مافى اتخاذ مراكزهم وسيلة للمبالغة في تقويس القوس البشرية التى عهدت إلى كفالتهم وجعلت أمانة عندهم

واعلم أن للمحادثة أثراً بالغاً فى العلاقات التى تربط الناس بعضهم ببعض : لذا كان من الواجب تعلم فنون الكلام وأخذ اللسان بأجادة الحديث . والحديث فن يستدعي فضلا عن سعة العقل والدراية سلامة الذوق والالمام بالأحوال النفسية للأنسان فأذا عنّ لك أن تخالف قول محدثك وأن تنقضه فراع فى ذلك السكون والأدب الجمّ ولا يكن تكذيبك لقوله أو نقضك إياه على طريق المجابهة بل استهل التكذيب والنقض بمثل قولك : « كنت أعتقد كذا . . المفروض عندى هو . . لقد قلت صواباً إلا أننى رأيت البعض يذهب إلى كذا . . . » الخ التعابير التى تنم عن تمام الأدب وحسن الخلق ، مع عدم تأثيرها فى جوهر الغرض الذى ترمى اليه من التكذيب . والأفضل إذا لم يكن الموضوع المراد تكذيبه أو مناقضته على مكان من الأهمية والخطر جديراً بمثل هذه العناية التسليم به من غير جدل والأمساك عن معارضته خصوصاً إذا كان المحدث رئيسا لك أو أكبر منك

سنا أو سيدة على وجه الاطلاق . قال ريفارول : « الصواب بتألف من الحقائق التى ينبغي أن تقال والحقائق التى يحسن السكوت عليها » ويتمم هذه الحكمة قول لابروبير : « من الناس من لايجوز الكلام فيهم ولو صوابا وحقا »

لكى تقف متكلما فى حشد حشيد من الناس ينبغي أن تكون ذلق اللسان فصيح العبارة وأن تكون قبل اندفاعك إلى هذا الموقف على بينة مما ستلقيه على الأسماع من القول . أما فى الحديث مع الافراد فالافضل تسليم القياد إلى وحي الخاطر والبعد ماأمكن عن التصنع والتعمل . وحذار أن تكلف نفسك إيراد الادلة على صحة ماتقول وتدعيم نظرياتك بالحجة مالم يضطرك إلى ذلك معارض لان فى تأييدك النظرية بأقامة الدليل عليها تشكيكا للسامع فى صحتها وإضعافا من جانبك وضعضعة من ركنك وجانب فى عرض نظرياتك الاسهاب بالجمل الطويلة الممل سماعها والعبارات المبهمة التى يبعد على الافهام تناولها والاصطلاحات الفنية التى ينبو السمع عنها لخروجها عن مألوفه وإياك والمفاخرة بآرائك أو بخاصة تحقيرك آراء غيرك ، وجانب مااستطعت كل قول تبدو عليه مسحة الحكم الجازم والرأى القاطع فى مسألة لم تكن بها ضليعا واعلم أن أصحاب المجون والمطايبة مملولون مرذولون إذا أمعنوا فى مجونهم واسرفوا

من مطايبتهم، ذلك لأن أشد الناس ميلا إلى معاشرتهم وإمتاع النفس بظرفهم أقرب إلى الضجر منهم والبعد عنهم

ولا تحر بالحديث أن تبهت محدثك بما تظن أنه اللفظ الشريف الجوهر الحسن الديباجة اللطيف المعنى، وما هو فى الحقيقة إلا التعمل المنافى لفنون البيان وأصول البلاغة. بل حدثه بما يتناوله فهمه ويسيغه إدراكه من غير كدّ ولا تكلف عناء فى التفهم، مراعياً فى ذلك سنه ومركزه وحصته من الثقافة فى العلم والأدب. قال اللورد (شستر فلد) لابنه: «لا تتكلف فى حديثك المظهر الذى تحرى به أن تنحل نفسك ما ليس فيها من العقل والعلم. واتخذ من علمك ما تتخذه من ساعة المواقيت تضعها فى جيب خاص من جيوب بذلتك، لا تخرجها منه أو لا تدعها تدق الساعات لمحض الرغبة في إعلام الناس بأن لك ساعة تحملها فى جيبك»

ونحا المسيو أميل ديشانل (السياسى الفرنسى) هذا المنحى فى قوله: «لا ينبغي للمتكلم أن يسمو بحديثه إلى ما فوق مرتبة السامع ولا أن يهبط به دونها، لأن فى إرسال الكلام الجزل اللفظ اللطيف المعنى إلى من لا يفهمه لغبائه أو جهله خروجاً عن مقتضى الحديث وزيغا عن جادة الذوق السليم والأخذ بالأنسب. وما الذوق السليم والأخذ بالأنسب إلا المرونة فى التفهيم فيسمو

صاحبهما إلى الطبقات العليا ويحلق فيها عند الحاجة ويهبط إلى الدرك الأسفل عند الحاجة أيضا . وما العقل في الحقيقة إلا مسئلة نسبة وتناسب وقياس ، وما العقل الخارج عن هذه الحدود بعقل أبداً . وإنه لمن سعة العقل أن يلبس صاحبه لكل حال لبوسها ، فلا يظهر على الدوام بين القوم بأنه من ذوى الحجي » اه تلخيصا من كتابه المعنون (روح المحادثة)

وإياك والافراط فى المطايبة في القول والتغالى فيها إلى حد التحمس لها ولا تلاحق سامعك بالقول المتدارك ، بل دعه ليريح أذنيه من ملل الأنصات لقول واحد وصوت بعينه ، بل وليتنفس أيضا كي ينشط من جديد لوعي البقية الباقية منه . قالت السيدة (صوفيا أرنو) الخبيرة بآداب المحادثة : «أرباب العقول كالأزاهير في طاقة الورود فى الواحدة منها كفاية للمستروح دون الطاقة التى تضم اليها الكثير منها ، فأن استرواحها مجلبة للصداع »

وإنه لسوأة لك لا تغتفر أن تواجه سامعك بقول عن شخص أو شيء يجهلهما أو أن تذكر أحدا على الأطلاق بما يدخل فى دائرة الغيبة والنميمة اللتين لا يتنكس فى حضيضهما سوى الأشرار والنوكى الذين لا يشق عليهم أن تلوث سيرتهم بلوث تلك النقيصة المذمومة . وقمين بك أن تدع هذا السلاح المفلول لذوي العقول الآفنة والمدارك الضيقة

وإذا كان حسن الحديث فناً جليلا يعمل النبهاء لتحصيله والتحلى بحلاه ، فحسن الاستماع فن لا يقل عنه جلالا بل هو مما يسعى المتدبرون لأجادته وإحسانه . ولو أنك سألت من اعتاد الاستماع وآثره على الحديث أيهما أفضل عندك . . أصمتك أم مواثبتك الناس بالكلام ؟ لما تردد عن الجهر بفضل الصمت مقترنا بالأصاخة إلى القول وحسن الاستماع لقائله . فقمين بك إذا كلمك أحد أن تصغى إلى قوله ولا تشغل طرفك عنه بنظر إلى غيره ، بل ويحسن بك فى خلال حديثه معك أن تبدى شيئاً من إشارات الموافقة وعلامات الاستحسان أو ما جرى مجراها من ضروب الأيماء الدال على فهمك ما تسمع وعلى أن موضوعه لما يؤبه له ويهمك الاطلاع عليه . وأنت إذا أخذت بهذا الأدب والتمست هذا المذهب تشرح صدر المتكلم وترضى نفسه فيلين لك ويعطف عليك فتصيب من حاجتك عنده

أما إذا أصخت اليه لاهيا ساهيا منصرف النظر عنه غير مكترث بما يحويه قوله من المعنى الأنيق فى اللفظ الرشيق ولا ما تفيض به قريحته من الآراء السديدة والأفكار المبتكرة التى ليس فيها إلا ما يدل على فضل فى الرأي وبسطة فى العلم ، ولم تقدر كل هذه المواهب قدرها كأنما هو يتحدث إلى حيوان أعجم أو حجر أصم ، فأنك ولا شك متهم نفسك بخفة الحلم وسخف

العقل ومقرر لنقسك فى قلوب الناس الكراهية والمقت وهابط بهـا فى نظرهم إلى أحط من مكانتك التى انت جدير بهـا . ولن يعرضها إلى هذا النقص إلا فدم جاهل ، فقد قال (شوبنهور) الحكيم الألمانى : « الأدب حذق وقلة الأدب حمق وما مثل من يخلق لنفسه الاعداء إلا كمثل من يضرم النار فى بيته »

وفى حسن الاستماع ما يدعو إلى جودة الحفظ والاستفادة بكل ما يعلق بالذهن مما يسمع ، لأن المحادثة على إطلاقها حتى ما كان منها مع العامل الحقير بل والطفل الصغير لا تخلو من ثمرة تجتنى وفائدة يستفيد العقل بها سعة . وإن من عقول الناس العقل الدائب على الاستطلاع والاستفادة بالجديد ، فهو كالنحل تتنقل بين الأزاهير تجتنى من هذه تارة ومن تلك اخرى ما يتكون منه الشهد الشهيّ . وكما ان النحلة تحط على كل زهرة إذ لا زهرة عندها عقيم من الفائدة او خلو ممـا تصنع منه شهدها ، كذلك العقل الكشاف لأسرار الحقائق لا يستخف بشىء ولا يستهتر حتى بالكلمة المفردة أو القاعدة العلمية البسيطة او البحث الصغير فى حالة من احوال النفس ، فإنه لا يدع شيئاً من كل هذه الشوارد إلا ويبادر بتقييد أوابده للبحث فيه واستظهار الحقيقة من غضونه . ولا عليك إذا قضيت ساعة فى حديث بستاني من أهل الريف فأنك واجد فى كلامه من درر الفوائد وغرر النصائح

ما لا يقوّم بمال وما ربما يندر ان تعثر عليه فى كتاب إذا أعوزك البحث إلى التماس مظانه فيها ومقتنع فى النهاية بأن العلم المكتسب بين اربعة جدران الغرف او فى سكون الزوايا والأركان يكون مبتوراً دائماً وعلى غير تمام ما لم تعززه وتوسع نطاقه بما لا بد ان تعكف على التماسه مدى الحياة كلها من الحكم الضالة واقتناصه من الفوائد الشاردة . وليس ذا على احد بالأمر العسير إذا شاءه او تكلف له بعض الجهد فى علاقاته الكثيرة بالأفراد والجماعات وفيما يحسه من الميل إلى استطلاع احوالهم واستكناه حقائق اعمالهم وما يجول بخواطرهم من انفعالات النفس بالأمل واليأس

ومن تمام حسن الخلق والأدب صيانة الوعد وحفظ العهد فأذا اقبلت على وعد ففكر فيه مليا قبل ان تنبس به شفتاك ، فأذا وعدت فلا تخلف وعدك لأنك ملزم بالوفاء به . وتحرز من ان تقصد بالكلام خدع سامعه وإدخال الغش عليه . والواجب على المرء أن يجانب خلف الوعد وأن يعتبر العهد حكماً غير منقوض ، وأنه لا فرق بينه وبين الوثيقة يكتبها ويوقع عليها بيده . وليعلم أن من السفه وسوء الرأي بل ومن حطة النفس أن يخيس بعهده فينبه فى نفس من عاهده شعوراً بالخيبة والاستخذاء لا يلبث أن ينقلب إلى كراهية ومقت له . وكثيراً ما يتحول هذا المقت إذا تطاول عهده إلى افتتان بالانتقام والتشفى ممن اخلف الوعد

وخاس بالعهد، بل والتصدى له بتعطيل عمله وعرقلة سعيه وذلك بأن يبث هذا فى كل مكان من سوء سيرته معه مايدعو السامعين إلى تسفيهه والغضب عليه والازدراء به . فخلف الوعد كما ترى يثير كوامن العداوة والحقد ويقيم العقبات فى طريق النجاح

واحرص على رعاية المواعيد فليس ادعي إلى الغضب منك والحقد عليك من قلة رعايتهـا لما تستدعيه من ضجر الانتظار وملله . وليس الحرص على رعاية المواعيد من خلال الملوك فقط يسمون به على رعاياهم بل ينبغي ان يكون حلية كل فرد منهم وزينة لمن يحترمون أنفسهم ويشتهون ان يحترموا غيرهم . وقدما قيل ان شهادة تعطى لمستحقها من عملائه واصدقائه ناطقة بدقته فى الحرص على المواعيد خير من شهادة تجيز بها الجامعة نابغة من نوابغها . وبدهيّ ان من يحرص على ميعاده ينظر الناس اليه بعين التجلة والاحترام ويتبينوا فيه امارات رجل الجد والعمل لا رجل الهزل والكسل ويجمعوا الرأى على نظمه فى سلك المجيدين لأدارة اعمالهم المحافظين على شرف وعودهم الجديرين ، فى جلائل الأعمال ، بالاعتماد عليهم والثقة بهم العارفين بحقيقة الغرض الذى يرمون اليه فيقرطسون فيه سهام جدهم فى الساعة الموافقة لأصابته . وامثال ذلك الرجل جديرون بثقة الناس ، وهو لو التمسها منهم لما وجد فيهم من يساومه عليها او يماكسه فيها . وذلك

لأنك إذا لم تأخذ نفسك بالدقة فى مواعيدك كأن تخبر بعودتك إلى دارك فى ساعة ثم تغشاها فى غيرها او كأن تتعهد بتسليم بضاعة او سداد دين فى يوم معين ثم لا تفى بعهدك فيه او كأن تختلف إلى مكان عملك فى غير الوقت الذى قررته لنفسك ، حكم الناس باختلال نظامك واعتلال عملك ورموك بالعجز عن إدارة شؤونك والوفاء بوعودك وعهودك وجردوا حكمهم هذا من كل اثر للشفقة بك والعطف عليك ومنعوا نفوسهم من ان تسخو لك بخير ابداً ، بل انهم ينقمون عليك ويسخطون منك ويكون من عاقبة امرهم معك ان يحقروا من شأنك على الوجه الذى تزول معه هيبتك وتدول دولة عملك . وإذا هم رأفوا بك ولم يذهبوا معك هذا المذهب فلا اقل من ان يروا فى عدم الوفاء بما قطعته من الوعود والعهود مضيعة لوقتهم وإنفاقاً في الباطل لساعاتهم فلا يجرأ احدهم فيما بعد على معاملتك ، إذ من الطبعى ان يستغنوا عنها حتى لا تكلفهم مرة اخرى ما كلفت من انتظار ممل على غير جدوى ، وهو ما يؤدى حتما إلى النتيجة السابقة بذاتها

الصفات الجثمانية

ينبغى للطامح إلى شرائف الرتب الطامع في تحقيق الأمانى ونيل المقاصد ان يكون على صحة جيدة وبنية سليمة من العاهات والآفات . وهو شرط اساسي للفوز فى معترك الحياة وعامل من اقوى عوامل الظفر بالمراد . ولا جرم فأن بالرئتين اللتين لا تفسدهما حوادث الجو وبالدم النقيّ من مختلف الشوائب وبالعضلات الوثيقة يتوافر الجهد الذى يتغلب صاحبه به على المصاعب ويقهر العقبات ويسلك من بينها سبيلا إلى اسنى المقاصد وابعد الغايات . اما إذا كان طالب الظفر بمبتغاه فى هـذه الحياة هزيلا سقيما فلن يأنس فى نفسه مثل النشاط الذى يألفه القوى الأساطين كلما همّ بعمل وتصدى لانجازه ، بل لن يحس فيها الرشاقة والخفة اللتين تستفزان المرء عادة إلى التمشي بأعماله ومشاريعه نحو غايات النجاح المرموقة من العاملين المجدّين . فعليك إذاً بالعناية بصحتك وتقوية بدنك وتوثيق اعضائك وهو مالا يكون إلا بالتصوّن عن الملاهى التافهة والملاذ المشكوك فى

مغبتها وحسن اثرها والتى إذا انكببت عليها لا تجد فيها الرياضة لنفسك ولا الراحة لبدنك بل لا ينالك منها سوى القلق والعناء . فالأجدى لك إذاً أن تتحرى السكون فى معيشتك وأن تبنيها على نظام مستقر وتجعل لها برنامجاً ثابتا لا تحيد قيد شعرة عنه

واتخذ لنفسك بحكم الاعتياد سحنة تطبعك بطابع خاص وهيئة تميزك عن غيرك واعلم أن جمال الوجه وحسن التقاطيع وتناسب الأعضاء مما لا دخل له فى هذا الأمر . فقد يكون المرء دميم الخلقة ويكون مع هذا ، بالسحنة التى اتسم بها ، على جانب من الحسن الجدير بالاعجاب ولفت النظر بل ذا منظر خلاب للب وهيئة أخاذة بالعقل . والعين مرآة الفكر والجبهة صفحته ووضع الرأس بين الكتفين مخبره . فليكن فكرك شريفا كريما تكن هيئتك موسومة بسمات الشرف والعزة والمجد ، فلا تلبث ان تؤثر التأثير الحسن فى نفوس الناظرين وتستهوى اليك من افئدتهم ما لا تستهوى هيئة الرجل البارع الجمال ولكنه عديم التفكير ، ينهض الدليل على عدم تفكيره قرب شبهه بالأناث دون الرجال

واهتمام المرء بأن ينحل نفسه ذاتية جثمانية ممتازة يستجمع فيها مالم يكن عاما على الناس من الصفات التى تتكون منها الشخصية البارزة التى تخرجه من طبقة الكافة وتزج به فى طبقة الخاصة أمر لا يغيب على النبيه الفطن ، فأنه بوفور الهيئة الجثمانية

على الوجه المتقدم يحصل التفات الناس إليها واتجاه انظارهم نحوها ، وبحصول هذا الالتفات تنصرف الرغبات الى التعرف بصاحبها . وفى هذا الدليل الناهض على أنه لم يعد عدادَ الخاملين الذين تزاحمهم فى الطريق بالمناكب من غير ان يخطر ببالك التفرس فى وجوههم والتمعن فى هيئاتهم ، وعلى ان اسمه اصبح معرفة بعد ان كان نكرة وان بروزه فى الناس سرعان مايؤثر فى نفوسهم ويلقي فى الحيرة والاضطراب افئدتهم فيكفى اللفظ الواحد يلقيه من فيه لكي يقرب منه البعيد ويكسر من حدة تلك الكبرياء التى يقابل المعروفون بها المجهولين والخاملين

نشر الكاتب الاجتماعي بول آدم فى جريدة « الجورنال » الباريسية مقالا تحت عنوان (اللحية والفكرة) كشف النقاب فيه عن تأثير المظهر الخارجى للمرء في فكرة المتأمل فيه فقال : ليس مما ينافى المقام او يخالف مقتضى الحال ان نتحدث بتكوين المرء لنفسه ذاتية جثمانية خاصة

فأنه لامراء فى ان هذه الذاتية تؤثر بحسب اختلافها شكلا وموضوعا فى المرضى ومشترى البضائع والعساكر والناخبين الخ . ولك ان تمعن النظر في الصور الشمسية لبعض الخطباء السياسيين فكليمنسو بشاربيه الدالين على رسوخ القدم فى الزعامة وشعره القصير الذى يغنيه عند الوثبة على الخصوم عن تضييع

الوقت فى تدبيره اذا لاح لك بهيئته المعروفة عنه ترك فى نفسك بمنظره أثراً يحملك على اعتقاد انه رجل هجوم واعتداء وصراحة ورشاقة ونشاط . وجوريس بوجهه الكبير الذى تكتنفه من بعض نواحيه لحية كثة يلفى منظره فى روعك احترام العلم الذى يكشف لك عن غطائه والمذهب الذى لا يلبث ان يدعو اليه ويثوّب له . انه اذا تكلم تبادر فى الحال الى ذهنك انه رسول حضارة البحر الابيض المتوسط والحكيم الذى يزجى الى ذهنك، فى زي القصص وتحت ستار الحكايات والنوادر ، حل عويصات المسائل الحكمية ، ولا يتقاعس عن إفهامك مع علوم الاخلاق والحساب والهيئة فنون السياسة وضروبها . اما الهرطقة فعمله الذي تخصص له وضحى من اجله حياته وادى به كما تعلم الى تأسيس مذهب الاشتراكية ووضع انظمتها وتوثيق قواعدها . وهو الذى حول فكرة التعاون الى شعور عام مجيد واقام الضمير مقام العقل . ومن مقارنة الرجلين احدهما بالآخر فى اعمالهما وميولهما وشخصيتهما تستخلص الحقيقة الآتية وهى أن كليمنسو يمثل لناظره مذهب الحقيقة وجوريس مذهب الخيال وان احدهما يواجه الحقيقة المجردة من شوائب الفساد والآخر بطير في اجواء الخيال وان الاول يرى المرائى فى الاحلام والثانى يقيسها ويسبرها بمسبار الحقائق لا الاوهام » . انتهى كلام پول

آدم فى كتابه (اللحية والفكرة) الذى سبقت الاشارة اليه . ومنه يستخلص ان الصفات الجثمانية لكل من كليمنسو وجوريس قد ارشدت ذلك الكاتب الباحث فى احوالهما الى طبيعة الفضائل التى يفضل كلاهما بها الآخر وامتاز بقيمتها وقدرها عليه وان منظر سحنته قد وفقه لاستكشاف العوامل المتسلطة عليهما والمدبرة لتصرفاتهما

وقد بحث پول آدم بعد ذلك فى إصلاح هيئات الوجوه بما يستدرج اليها نظرات الاستحسان ، فوصى أصحاب الرؤوس الضخمة باللحى القصيرة التى تحول بقصرها دون تجسيم الوجه ، وصاحب الرأس النحيف الطويل بأزالة شعر اللحية حتى يبدو رأسه أقرب إلى الاستطالة فلا تنبو عنه الأنظار ، وصاحب الوجه الضئيل النحيل بأطلاق اللحية لتستر هـذا العيب وتبرز الوجه ممتلئاً مستديراً ، وصاحب الصلعة بأنماء الشعر على حفاف صلعته يطرحه فيما بعد عليها ويسترها به . وإذا كان مع صلعته طويل القامة رشيق القوام فنموّ شعره لا يسىء إلى رشاقته وخفة حركاته . أما القصير القامة فى بدانة جسم وضخمه فحق عليه أن يصرف نظره عن إطالة شعره لما يستتبعه نموه من زيادة حجم الرأس بما لا يتناسب مع حجم الصدر ومن اختلال التوازن النسبي بين ذلك كله وبقية الجسم

وقال پول آدم فى موضع آخر من كتابه ما يأتى : «إنه لمن اهم الأمور واشدها خطورة الا يسدر المرء إذا شاء ان يصلح من ذاتيته الجثمانية فى غلواء الجديد المستحدث ، ولا ان يلقي بنفسه فى تيار التقليد عن عماية وتبذل . وإنما الواجب عليه قبل كل شيء النظر فى احوال شخصه من الوجهتين الجثمانية والروحانية ويطيل التأمل فيما تصلحه ويذهب بعيوبه ونقائصه . فأذا كان نحيف القوام فليكن فى حركته رشيقاً وفى إشاراته واوضاعه لبقاً لطيفا ، وإذا كان ضخما غليظا فليفرض على نفسه حسن السمت والوقار فى حركته وسكونه ، وإطلاق اللحية أليق به واوفق لحسن هيئته . اما الذى بدا من هزاله كأنه الهيكل العظمى فى جلد إنسان فليتحر النشاط والخفة والرشاقة فى حركاته ولتكن بذلته على الطراز المعروف بالردنجوت او ما يضاهيه مما يرجى معه إبراز اللابس في مظهر الرجل البدين ، كما يحسن به ان يطلق لحيته من ناحية الذقن على ان لا تكون في انبساطها كذنب الحمامة ، فأنه بمثل هذا الزي يكسب نفسه من الصفات ما ضنت به الطبيعة عليه . ونحول الجسم فى المرء دليل على نزعته للجدل والمناقشة والكفاح كما هو النذير ايضا بالتدله فى الحب ، وضخمه من امارات وفور العقل والميل إلى الشهوات والجنوح إلى الانتظام فى سلك رجال الدين . اما النحيل الجسم الذى وصفناه بالهيكل

العظمى متدثراً بجلد إنسان فتحوله من العلامات المؤكدة لصيرورته يوما ما من كبار الزعماء وقادة الرأى العام ومدبرى الثورات

إذا نظرت فليكن نظرك صادقاً مستقيما لا كلفة فيه ، وإذا أمعنته فوطن نفسك عليه بحيث لا تستشف منه معانى التبجح والاستفزاز ، بل آيات الاهتمام والعطف ، وإذا نظر غيرك اليك نظراً شزرا قاسيا فلا تتأثرن به ابدا بل قاومه ما استطعت بالاطمئنان من غير استزراء ولا قحة . ولتكن اهداب عينيك ثابتة فى مكانها جهد الامكان فليس ادعي الى سلب العين تأثيرها الصادق وقوتها الساحرة من دوام انطباقها على بعضها وتعاقب حركاتها ، وجدير بك اذا شئت أن تعهد من ذلك فى نفسك خصلة غير زائلة أن تقف امام المرآة وأن تشخص فى صورتك المترائية لك مطيلا التأمل فيما بين عينيها ، أى عند اصل الانف ، بضع دقائق فى اليوم الاول ثم اكثر من عشر دقائق قليلا فى الايام التالية وتذهب فى التدرج الى أن تبلغ به الى خمس عشرة دقيقة مديما فى اثنائها امعان النظر فى تلك البقعة من صورة وجهك بدون أن تحرك اهدابك فانك لا بد بالغ مشتهاك من جعل عينيك صادقة النظرات مؤثرة فى نفس المنظور بثباتها المستقر وكفيلة بتحقيق ظفرك فى جل الفرص التى تسنح لك ، اذا لم يكن

فى كلها

واتخذ من نفسك رقيبا مهيمنا على كل حركة أو اشارة تبدر منك فان الحركة والاشارة متممتان للفظ ومعززتان للفكرة على شرط الاحتياط وحسن التصرف فى استعمالهما ، فليس من مكارم الاخلاق اذا حدثت ان تهز جسمك كأنك تزن بهزاته ماتفوه به من الكلم ولا تحرك ذراعيك كما يحركهما الرجل الذى تبتلعه لجة البحر فان لم تبتعد عن هـذه العادة القبيحة اصبحت اضحوكة الناظرين ومضغة فى افواه المنتقدين

ومن الحركات التى انت جـدير بتركها الحركة الفجائية أو المتقطعة او التى ترمى بها الى تقليد اولئك الذين اعتـادوا حركة خاصة يبدونها فى كل المناسبات على تناقضها ، فانه لاشىء اقبح من الحركة الواحدة للتعبير بها عن المقاصد المتباينـة ولا اوشك منها اسـتفزازاً للاحتقار والاستزراء . فلتكن كل حركاتك مضبوطة الوزن كبيوت القصيد ومتفقة تمام الاتفاق مع ماتريد التعبير به عن شعور النفس وما يداخلها من المؤثرات والعوامل

قال الكاتب الاجتماعى (دارد) : «تسهل الحركات وتبدو كأنها طبيعية متى كان الجسم منحنياً بعض الانحناء ، وهى اذا لم تتناول اكثر من نصف الجسم توافرت فيها صفات الشرف والرشاقة والرقة ولهذا كان وجوبا ان تكون رائد العواطف التى يراد التعبير

عنها . ومن تمام حسن الادب التحرز من تحريك اليدين دون الذراعين لأن الحركة التى لاغبار عليها هى ماتناولت الذراع دون اليد . واقتصد ما امكن من الحركة اذ في الاقلال منها ما يجعلها مجردة من اثر التصنع والكلفة ، ويزيد تأثيرها قوة ونفوذا . اما الحركات الصغيرة الكثيرة ففيها مايخالف الذوق ويتناقض مع آداب الاجتماع بخلاف الحركات الكبيرة البسيطة فانها باتساع مداها خير مايعبر به صاحبها عن دخيلة نفسه ويكشف به الغطاء عن حقيقة امره . وتحفظ من ارخاء الذراع الى اسفل ، إلا ماندر على شريطة ان يكون ببطء وبدون تقطع . وخير لك ان تفتح ذراعيك عند الجانبين من ان تمدهما امامك . وتغيير اوضاع الرأس يحتاج الى شيء من العناية وحسن الالتفات ، فانه لكي اتغير وضع راسك وتحوله من اتجاه الى اتجاه آخر ينبغى ان تبدأ بذلك فى قدميك او فى جسمك بمعنى ان لايدور الرأس فى مغرزه بين الكتفين كما تدور الكرة حول محورها دون ما يحملها من الاجسام . والاصابع اذا باعدت بينها دل ذلك على شعور الدهش او الاعجاب او الفجأة ، والذى يحسن وانت متأثر بهذه العوامل ان يرتفع صدرك ويتسع مابين جنبيه كي ينفسح المجال لاحتواء الافكار التى ادت الى مثل ذلك الشعور »

ومن المسائل التى لها شأنها فى أدب الاجتماع الثياب .

فأن ذوى المدارك السطحية والأحلام الطائشة، وهم الأكثرون لا يحكمون على الناس إلا بحسب ما يبدو لهم من مظاهرهم. ينظرون بعين التجلة والاكبار إلى الجاهل الحسن البزة الجميل هندام اللباس ويفتحون له أبوابهم على مصاريعها، بخلافهم مع العالم الذى يهمل شأن ثيابه ولا يحسن حملها على جسده. والحقيقة التى لا مراء فيها أن إهمال المرء الأصلاح من لباسه والعناية بهندامه لمن العيوب التى لا تغتفر كأهماله العمل الذى يمارسه سواء، وما الأهمال فى العمل إلا النتيجة الطبعية للأهمال في اللباس والغفلة عن البروز للناس فى البزة التى لا تتأذى بها انظارهم ولا تتحرج اذواقهم. واعلم ان نظافة الثياب وجمال الهندام لا يتوقفان على الغنى إذ كل ما يحتاجه البروز للناس فى البزة الحسنة ألا تكون الثياب من طراز طال عليه العهد او اصبح برثاثته او اتساخه بالبقع الدهنية أو غيرها غير صالح للاستعمال، فأن تجرد ثيابك من هذه الآفات والأعراض يحول نحوك محبة الناس ويصرف اليك ميولهم. وعليك بسياسة ثيابك وحسن تعهدها فأذا كانت من المجاسد او ما يليها من الدثار فلا ينبغي ان تقع العين منها إلا على بياض ناصع او لون غيره لا تشوبه شائبة من القذر او الرقع او آثار البلى. وتحرز ما استطعت من وضع القلانس المتعبة لطول عهد استعمالها فوق الرأس وتطويق الرقبة

بالأربطة الممزقة ولبس الأحذية التي برزت من ثقوبها اصابع القدمين . واعن العناية كلها بأسنانك وفمك ويديك ولا ترسل الشعر إلى الكتفين ولا تهمل اللحية فتصير شعثة قبيحة المنظر. وعلى الجملة يحسن بك ان تتحرى، بقدر ما يتسع له الأمكان وتسمح به الوسائل ، جمال الهندام ونظام الزي بلا تعمل ولا مخالفة للذوق السليم ولا مناقضة لواجب الادب اللائق . وحاذر ان تسبق إلى ابتكار الازياء واستحداثها كأن تضع لرباط رقبتك وضعاً جديداً لم يألفه الناس او تفصل صدريتك على طراز لم يكن لهم به عهد سابق ، بل دع هذا الأمر لمن فسدت طباعهم وسفلت اخلاقهم بالكسل والفراغ من العمل وجرّوا على انفسهم الازدراء والمقت . وصفوة القول فى هذا الموضوع هو انه يتحتم على الانسان ان يتحرى حسن الزي فى لباسه من غير ماتصنع ولا كلفة وألا يدع من يخالطهم من الناس يتسرب اليهم الاعتقاد ، بعد تأملهم فى بزته ، بأنه ممن يحبون المماكسة اذا احتاجوا الى اقتناء جورب او بنيقة . فانه اذا ترك هذا الوهم يستمكن من نفوسهم انتزعوا منه ثقتهم وما كان لهم الا ان يسلكوا هذا المسلك بعد اذ وقع فى وهمهم انه غير كفء لكسب دريهمات يشترى بها لنفسه اشياء صغيرة لاغني عنها له فى الاصلاح من شأنه

واذا حييت احداً فحيه بعلامات الود الذى لاخبّ فيه،

ولتكن مصافحتك اياه فى مظهر من الحماس والاقبال يدل على شدة الألفة ووثوق عرى المودة . ولا تتوان ، اذا التقيت بصديق او عميل او لقيك احدهما ، فى اظهار البشر والأنس به والاعراب له عما تستشعره من الهناء والاغتباط بلقائه . وبادر من فورك بالسؤال عن صحته وصحة اهله اذا سبقت لك بهم معرفة بواسطته ، ثم حدثه برفق وتؤدة عن اشغاله ومشاريعه بدون أن تتناول بحديثك ماينبغي له ان يطويه فى طي الكتمان . واجتهد على الجملة فى ان تترك محادثتك فى نفسه اثرا يدل على الارتياح والرضى ويحمله على تمنى لقائك فى كل آونة . ولا تستهن بهذا الادب النافع فانه يدل على ما فى نفسك من قوة جذب الغير الى ناحيتك واخضاعه لنفوذك وسلطانك

ويحسن بنا فى ختام هذا الفصل ان نورد نقلا عن كتاب طبع منذ سنوات فى مدينة (بوستن) بالولايات المتحدة بعنوان (الاندفاع الى الصف الاول او النجاح فى وسط المصاعب) بعض المبادىء الحكمية التي تضمنها من انشاء مؤلفه المستر (اوريزون سويت ماردن) قال :

١ — لاتنتظر حتى تلوح لك الفرصة المناسبة تجيء اليك طائعة مختارة بل اتجه نحوها اذا لاحت، واستثرها من مكامنها اذا لم تلح بعد

٢ — علموا الشباب مع حروف الابجدية ومبادىء العلوم ثبات العزيمة ، فأنكم ان فعلتم بهم ذلك لا يدرى احدكم اين ينتهي افق النجاح امامهم

٣ — لا تضيع دقيقة من وقتك ، فقد كان غلادستون وهو قطب رحى السياسة فى وقته لا يكف عن حمل كتاب معه اينما توجه وحيثما حل خشية أن تضيع دقيقة من عمره بلا فائدة يحصلها أفلم يكن حقيقاً بالرجل العادي الحرص على وقته ؟

٤ — لا يكن همك إلا اختيار المهنة التى تأنس من نفسك الاستعداد لمزاولتها . وعليك فى هذا الاختيار أن تسائل نفسك « لأي أمر أصلح ؟ » فقد أصبحت هذه الكلمات فى العهد الحاضر سؤال كل امرىء لنفسه

٥ — قرطس سهامك كلها فى غرض واحد ووجه إلى إصابته كل جهودك ، ولا تتمرغ فى حمأة التردد الباطل . وحاذر أن توزع فكرك وجهدك على مقاصد شتى بل اجعلهما وقفاً على مقصد واحد يجب أن تسعى اليه بهمة لا تعرف الكلال

٦ — لا يذهبن وقتك ضياعاً فى الأحلام والأوهام يتراءى لك فيها شبح الماضى او المستقبل ، بل اخصص بالحال كل عنايتك وكل التفاتك ، فأن الذى لك من الحياة هو الساعة التى أنت فيها

٧ — كن دائماً منشرح الصدر متهلل الوجه بالسرور ،

وروّض نفسك على الرضى بالحياة والاغتباط بها

٨ — حل نفسك بالآداب الحسنة والأخلاق الكريمة، فأن من تزين بحلية الأدب استغنى بها عن المال وتفتحت أمامه مسالك الآمال وأقبل الناس عليه أيما إقبال

٩ — ان تفز من العلم بالقسط الأوفى والقدح المعلى فلن يعدل هذا النصيب فتيلا بجانب الذوق وصدق التمييز. وصدق التمييز هو الفضيلة التى بها وحدها تحرز قصب السبق في مضمار الحياة

١٠ — احترم نفسك وثق بها، فأنك إن تفعل يحترمك الناس ويثقوا بك. واحترامك نفسك أدعى إلى احترام الغير إياك وثقته بك

١١ — شعار الطبيعة: «من لم يعمل يهلك». فأنك إذا أحجمت عن العمل وركنت إلى البطالة والكسل هلكت وتناول الهلك عقلك ونفسك وبدنك

١٢ — وطن نفسك على صدق العزيمة وقوة الأرادة فأنه لا نجاح حيث لا عزيمة ولا إرادة

١٣ — كن شغوفاً بالدقة والمثابرة فى عملك، فخير لك أن تزاول عملا واحداً تتمه فى دقة وإتقان من أن تباشر عشرين عملا لا تتم واحداً منها ولا تتقنه

١٤ — لن تكون حياتك فى المستقبل إلا ما أنت صانع بها فى الحاضر ، وما ذلك إلا لأن الدنيا ترد الينا فى الآجلة ما نسلفه إياها فى العاجلة

١٥ — إذا فشل أحد فى عمل ولم يصب النجاح فخير له أن يتعلم كيف يستفيد من فشله

١٦ — لا شيء خير من الأصرار والتشبث فأنه بينما يتردد صاحب الحجى ويتحسس ويضيع الوقت فى الجهود الباطلة يثق المصرّ المتشبث بالظفر بغنيمته

١٧ — اعمل على ما فيه توثيق بدنك وإطالة عمرك ، فأن أول شروط النجاح أن يكون طالبه «حيوانا من الطبقة الأولى»

١٨ — كن قصير الحديث واسلك إلى الغاية منه فى كلمات معدودة ، فأن خير الكلام ما قل ودل ، وخير الأعمال ما تتبين نتيجته من غير إمهال

القسم الثانى

الوسائل

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

١

فى التجاره

سردنا فيما تقدم الفضائل الممهدة للمرء سبيل الوصول إلى النجاح والثروة ، وها نحن أولاء ذاكرون فيما يلى من الفصول خير الوسائل لتحقيق هذا المراد فننتقل به من دائرة الخواطر والأفكار إلى ميدان الحوادث والأعمال شارحين لطالب النجاح فى الحياة ، كما شرحنا من قبل ، الطرق العملية التى لا رجاء للنجاح بدونها

قال (برتلو) الكيميائى العظيم فى هذا الموضوع ما يأتى : « لا بد أن ينتهى الأمر بكل امرىء فى المستقبل إلى الاعتقاد سواء من جهة السياسة أم من جهة التطبيقات المادية والعملية بوجود قواعد إرشادية ومبادىء هادية . وهذه القواعد والمبادىء قائمة على أسس وطيدة من نواميس أيدتها المشاهدة وطالما أدت

بالشعوب كما أدت بأرباب الأعمال الصناعية إلى الخراب والدمار »

ولسنا بباحثين ، حذر الأطالة وتقية الأسهاب ، في كل عمل من الأعمال الصناعية المومأ اليها على حدته . لأن كثيراً منها لا يفضى إلى الثروة المرموقة إلا بعد مشاق تشق المرائر ويتطلب من أصحابه مبلغاً عظيما من الجهود . لذلك نتخير من بينها للكلام عليها الصناعات الآتية وهي : الجواهر والمصوغات القلانس ، الجعة (البيرة)، الأحذية ، التقطير ، المقاولات المختلفة ، الغزل ، الطباعة ، طحن الحبوب ، تكرير السكر ، وعلى الجملة التجارة فى المواد الغذائية والصناعة

ومن الحقائق المقررة أن الصناعة التي ينفرد صاحبها بمزاولتها ولا يشرك فيها معه عاملا أو عمالا آخرين لا تعطى من الثمرات ما تعطيه لو تحققت هذه الشركة . ذلك لأن كل عامل ينتج من الربح حصة تعدل ما بذله من الجهود لأداء عمله ، ومن ثم ترى أن الكثيرين من أرباب المصانع توصلوا سريعاً بهذه الطريقة إلى إحراز الثروات الطائلة مستعينين في تحصيلها كما قلنا آنفاً بما يؤديه العمال من العمل وبالتالى بما ينتجونه من الربح . وهو ما يؤخذ منه أن خير الوسائل لتكوين الثروة هو ما بني على الاستفادة بعمل الغير واستغلال جهوده فيه

ومع هذا فأذا كان الصانع حاذقاً فطناً ووهبه الله من فضله القدرة على الابتكار والنظر الثاقب والرأي الصائب مع شيء من الشعور بمقتضيات الوقت فأنه يستطيع ، ولو اشتغل بمفرده ، أن يربح مالا بأس به من الثروة وأن يستعين ببعض هذا الربح فى إبان أمره على وضع القواعد لتوسيع نطاق عمله وإثراكه العمال القليلين أو الكثيرين فيه . ومما لا ريب فيه أن هذه الخطوات الأولى هي التى تلتقى فى سبيلها بالمعاثر والمزالق ولكنها لا تلبث أن تؤدى إلى الغايه المرومة متى زالت العقبات من طريقها

شرحت إحدى المجلات الشائعة منذ سنوات حال امرأة فقيرة كانت لا تدرى أية صناعة تمارس لتسد بثمار عملها فيها الرمق وحارت فى أمرها فأخذت تجمع من الطرقات ما يقع نظرها عليه فيها من قشور البرتقال وتبيعه أحد الصناع المشتغلين بالتقطير فى صناعة الشراب المعروف بـ (كوراساؤ) . ولقد تأملت بعد ذلك فى الأمر فرأت أن ثمن الكيلو جرام من تلك القشور لا بأس به وأن تجارتها رائجة فلم يكن منها إلا أن فاوضت بضع نساء ممن التصقن بالتراب فقراً وجوعا فى أن يوافينها بما يجمعنه من قشور البرتقال فى نهارهن مقابل دريهمات تدفعها اليهن فى آخره . وجعلت لكل منهن منطقة فى الأحياء البعيدة لالتقاط

هذه القشور فبعد أن كانت لا تحصل فى يومها منهـا إلا ما يعدل بعض الكيلوجرامات ارتفع هـذا القدر شيئا فشيئا وعلى توالى الأيام إلى القناطير . ولم يمض زمن حتى توافر لها من الربح فى هذه التجارة ما تحسد عليه وتيسر لهـا استخدام ثلاثين نفسا فى جمع القشور واستئجار مخزن فسيح لخزنها واقتناء مركبة كبيرة للنقل يجرها جواد لتسليمها إلى صاحب المصنع واستخدام عامل متعهد للتسليم وكاتب للأعمـال الحسابيـة التى تستدعيها هـذه التجارة . وبذا انتقلت صاحبتنا من الفقر المدقع إلى اليسر والهناءة وكان من أثر همتها فى جمع قشور البرتقال أن الناس عرفوا قيمتها فلم يفرطوا فيها ولم يلقوها على الأرض، حتى أنك لتخترق الطرق والميادين وتمر بالأسواق فلا تجد على الأرض قطعة من قشر البرتقال ؛ بل تعلموا عنهـا الحرص والاجتهاد فنالوا المراد . وما أكثر ما يستطيع المرء الاستفادة به من الأشياء التى تبدو له كأنها من التافهات التى تتخطاها الأنظار فأذا هي مما لو عني به وأيه له لجاء بما يتجاوز المأمول من الفوائد والأرباح

وليس أقرب على ذلك مثلا نراه رأي العين من المتجرين بالجملة فى الخرق البالية ، وهى على ما تعلم لما يتخطاه النظر وتشمئز منه النفس ، أفتدرى ماذا يجنيه هؤلاء من أرباح هذه التجارة ! أنهم يشترون الخرق البالية بالمفصل من جامعيها الكثيرين الذين

يرتادون الشوارع والأزقة ومجامع القمامات والقاذورات ليلتقطوها ويحصلون عليها منهم بالثمن البخس ثم يبيعونها بثمن يعدل أضعاف ما دفعوه . وهل رأيت فى عمرك أحقر من خرقة بالية أو ورقة ملوثة أو قطعة حبل لم تعد تصلح لشيء ؟ كلا ولا ريب ، غير أن قطعة الحبل هذه أو ما ذكرناه قبلها من الورق الملوث والخرق البالية بضاعة نافقة السوق تدور المعاملة فيها على محور الاطنان يباع الطن منها بكذا من الأصفر الرنان . وما قيل عن هـذه البضاعة الخسيسة فى ذاتها يقال أيضاً عن كل عتبق غـير صالح للاستعمال كالحديد والمطاط الخ

ومما لامحيص عنه فى إنجاح الأعمال وتنمية الأموال على اختلاف أنواعها وتباينها في الأهمية والخطورة مراعاة النظام فأن النظام من الفضائل الرئيسية لاقتناص طائر الفوز فى ميدان الحياة بل هو للأعمال كالحجر الأساسى والدعامة الوثيقة للبنيان، لا يتيسر الذهاب به علوّا من غيرها . والذى يملك الربوات (الملايين) العديدة من الدنانير ولا يكون مراعياً النظام والترتيب فى أعماله فقل على ربواته العفاء لأنها سرعان ماتذهب بها أعصار الاختلال وتزول من عالم الوجود فتكون أشبه شيء بكومة الجليد لا تلبث أن تطلع عليهـا الشمس وترشقها بسهام حرارتهـا حتى تذوب وتذهب فى كل مسرب وتتلاشى بتشعبها فى كل مكان كالماء يتسرب

فى قنواته ويصبح صاحبها فى الفقر المدقع يعض الأنامل ندماً على ما كان من تفريطه في جانب الترتيب والنظام

ويلى النظام والترتيب فى الأهمية بالنسبة لمستثمر الأموال فى جلائل الأعمال الصدق والأمانة ، فأنك لكي يثق الناس بك ويعتمدوا عليك ينبغى لك رعاية الصدق فى الوفاء بالعهد ومجانبة إدخال الغش عليهم لكي تنتشر لك بتينك الفضيلتين شهرة يركنون اليها فى الثقة بك

والتجارة تجارتان طيبة وخبيثة فالتجارة الطيبة ما بنيت على الشرف والأمانة والخبيثة ما قامت على الغش والخيانة . والأولى هي التى يقبل صاحبها على توريد البضائع لطالبيها خالية من كل أثر للغش فيها

ويؤثر حسن السيرة وجمال الذكرى فى الربح المؤكد . وليس بعازب عن مداركم السامية أيها السادة أن حسن السيرة رأس مال أدبى ربما فضل رأس المال المادي وفاقه فوقا عظيما . أما الثانية فهي التى لا همّ لصاحبها إلا الانخراط سراعاً فى سلك الوصوليين بأدخاله الغش على بضاعته طمعاً فى الربح الكثير وبث هذه البضاعة المزجاة فى ارجاء العالم وإيثار المال الكثير على حسن الصيت والثروة على الاجلال والاحترام من الناس . هذا هو رأي شاعر فرنسا الكبير فكتور هوجو ، أعرب عنه فى

خطاب ألقاه على مسمع من أعضاء مجلس الأعيان الفرنسى بمناسبة المناقشة فى مشروع علامات (ماركات) المصانع وأورده فى كتابه الموسوم « قبل النفي » . وفيه الدليل الناهض على انه لا غبار من العيب أو النقص على صاحب العبقرية إذا جعل نفسه قدوة للناس فاشتغل بالشؤون العملية المرتبطة بالحياة العادية لكي يسري الناس مسراه وينهجوا منهاجه .

ولما كان حسن الشهرة من أوكد الأرباح واوفرها ، فأنك إنما تهدم بيدك صرح مصالحك ومنافعك إذا لم تصرف عنايتك كلها لتجعل نفسك حقيقا بما انتشر عنك من الصدق والأمانة . وإذا كنت تاجراً فليكن اول همك ان تتولى بنفسك ترتيب ما تود عرضه من بضائعك فى واجهة مخزنك وتحكم ذوقك فى تنسيقه على اجمل مثال ، فأن البضاعة التى يجيد صاحبها عرضها على الأنظار ويحسن تنسيقها لبضاعة نافقة السوق لتحقق الاقبال عليها . ولا تهولنك نفقة الأضاءة ، ولا تضعها موضع القصد والوفر بل ابسط بنفقتها يدك ، فأن من الناس بل ان الناس جميعا كالفراش يتهافت على الضوء . واعتبر بمخازن التجارة الرديئة الأضاءة فأنه لا احد يقصد اليها او يقف هنيهة امامها بينما هم يتزاحمون بالمناكب حوالى « الفترينات » التى تسطع ضوءاً وتلمع بهجة وجمالا بما نسق من ضوئها على المثال الذى يجعل

الناظر لا يفرغ من إعجابه بنظرها حتى يقرر الدخول فى المخزن لشراء حاجته منه

ووضح فى البطاقات الصغيرة من الورق أثمان ما تبيعه من البضاعات . وهذا الأيضاح لا بد منه ولا محيص عنه ، لأن فى كل عشرة من الأناسى الذين يلتمسون قضاء حاجياتهم من مخازن التجارة تسعة يحجمون عن غشيانها لجهلهم الثمن الذى سيطلب منهم دفعه عن مشترياتهم أو لتوقعهم المبالغة من الباعة فى رفع الأسعار على الاضطرار إلى مغادرة المخزن بحجة ارتفاع الأسعار وظهورهم إذا تذرعوا بهذا العذر فى مظهر الفقير العاجز عن شراء ما تطمح نفسه إلى اقتنائه وقلما تجد بين الناس من يفضى بسر فقره إلى القريب حتى يطلع عليه الغريب

وإلى هذه الطريقة طريقة بيان الأثمان فى وريقة تناط بكل صنف من صنوف البضاعات ترجع العلة الحقيقية لنجاح المسيو (بوسيكو) مؤسس مخزن (البون مارشية) التجارى الشهير وظفره بثروة تقدر بالملايين . فعليك أيها التاجر النابه إذا شئت الرواج لبضاعاتك أن توقف أمام « فترياناتك » كل السابلة لكي يعلموا من الأسعار المبينة على البضائع ما سيدفعونه ثمناً لها . وفى هذا الأسلوب ما يمنع ترددهم ويستفزهم على غشيان مخزنك ويحضهم على العودة كلما عنت لهم حاجة يريدون قضاءها

وحذار أن تبقى فى «فترينات» العرض زمناً طويلا البضاعات المعروضة عينها بل بدل منها غيرها كل حين، وإذا بدلت منها فاعن بتغيير أوضاع المعروضات الجديدة غالباً حتى لا تقع العين منها على نسق واحد فتمله وتنصرف عنه. وتفنن ما استطعت في جعل تلك الأوضاع مع مغايرتها بعضها لبعض جميلة المنظر حسنة النسق فأن الناس طلعة يحبون النظر إلى الجميل ويكرهون الوقوف عند شيء بعينه . . والتاجر الفطن هو الذى يعرف كيف يستفيد عن هذا الاستعداد النفسي ويستغله. واعلم أن لعناوين الأعلانات والاخطارات التجارية أثر فعال فى نفس قارئها. فأذا جعلتها من طراز: «فرصة استثنائية» «آخر اختراع فى الأزياء» «النماذج الوحيدة» الخ وتحريت ما ضاهي هذه العناوين من الاسماء الجميلة التى تستمدها بسهولة من أهم حوادث اليوم أومن رواية تمثيلية يقبل الناس على شهود تمثيلها أو من رجل تحولت اليه الأنظار لسبب ما، فأنك تؤثر فى نفس الجمهور القارىء تأثيراً يتفق مع مصلحتك

ولا تضع البضاعات بحيث تستتر عن أعين المشترين، ولا تشحن بها الرفارف مغلفة متضامة لا يرى منها هؤلاء سوى رزم كالطرود المعدة للتصدير، ولا تجعلها كذلك على الخصوص فى الرفارف العليا حيث تتعذر قطعاً رؤيتها ولا يتيسر تمييزها بعضها

عن بعض . والواجب أن يكون وضعك إياها فى مكان يسهل عليهم فيه تناولها بالنظر ولمسها وفحصها للحكم عليها جودةَ صنف ومتانةً وموافقة لذوقهم ومرادهم

وإذا جاس أحد خلال مخزنك فلا تدعه يضل فى تعاريجه وملتوياته باحثاً عن أحد المستخدمين يعرض عليه طلبه . فأذا لم يكن عندك مستخدم أو مستخدمون وكنت أنت مشغولا بالنظر فى مطالب مشتر آخر فقدم اليه كرسيا وتلطف في دعوته إلى الجلوس راجيا منه الانتظار هنيهة ومعتذراً لديه عن ذلك بجميل العذر ، ثم بادر بعرض خدمتك عليه ، فلربما يكون في حاجة إلى السرعة في إنجاز عمله معك فيكون من تباطئك وإسرافك فى البيان ما يضيق به صدره ويحمله على مغادرة محلك بدون أن تنتفع منه بدرهم

وتجنب حين مفاضلة المشترى بين صنوف بضاعتك واختياره منها ما يميل اليه ذوقه أن تحتم عليه ذوقك ، بل دعه حراً فى تقديره الأشياء التي يرغب فى اقتنائها ولا تتعقبه بألحاحك الذى تضيق منه الأنفاس لكي تبيعه بضاعة دون أخرى . وإذا سألك شيئا ما وعين لك شكله أو قدره أو لونه فلا تجبهه بقولك : « لقد أصبح هذا الصنف مهجوراً » أو « ليس هو من الزي الحديث » لأنك بهذه الملاحظات أو ما يجرى مجراها ترميه إما بالجهل وفساد الذوق أو بنزوله إلى درك العامة فى مذاهبهم ، وهو ما

يستاء طبعا من سماعه

واجعل لكل صنف من بضاعتك سعراً محدداً لا تتخطاه زيادة أو نقصا وذلك حتى لا تلتجىء إلى الخديعة والغش مع المشترى فتدعى باطلا أن ربحك يسير أو معتدل وهو مالا شأن له به

وكن جمّ الأدب رقيق الحاشية مع جميع المشترين ، غير مفرق بينهم من جهة حيثياتهم الذاتية ولا من جهة مقدار ما يشترونه . فأن الذى يشترى منك اليوم بضاعة لا يتجاوز ثمنها بضعة الملاليم لا يبعد أن يشتري منك فى الغد ما يعدل ثمنه بضعة الجنيهات . فأذا لم تعامله فى الحالة الأولى بعين الرعاية والأدب اللذين تعامله بهما حتما فى الحالة الثانية ، فأنك مضيع على نفسك بمفاضلتك بين الناس فى أقدارهم وكميات مشترياتهم « زبونا » لا يعلم إلا الله مقدار ما تخسره من الفوائد بمغاضبته

وإذا كان الشيء المرغوب فى شرائه غير موجود عندك فأعرب للمشترى عن أسفك ، مع الأمل فى التوفق عند أقرب فرصة لقضاء مطالبه كلها إذ تكون بذلك سعيداً ومغتبطا . وإذا أزعجك مشتر بطلباته ونالك من جراء هذا الأزعاج تعب فحافظ على جلدك وتؤدتك حتى لا يؤدى ذلك بك إلى التبرم منه والعبس فى وجهه . وجماع القول أنه لا ينبغى للزبون أن يبرح مكانك

منفعل النفس بتأثير سيء وإلا فأنه لا يعود اليه أبداً

ومما يجب على المستنبطين للصنوف الجديدة من البضاعات أن يتخيروا لاسمائها الألفاظ الرنانة القصيرة السهلة الحفظ والكلمات التى تتردد على الذاكرة لاستجماعها هذه المزايا . وليس هناك من ضرورة لأن تكون بين الاسم ومدلوله صلة معنوية ما ، وأن يكن هذا هو الأفضل عند الامكان ، ولكن لا ينبغى أن يطوح بهم حب التحرى عما يلفت النظر من تلك الاسماء إلى الوحشية والتعقيد إذ الواجب قبل كل شيء فى إطلاق الاسماء مراعاة ألا تكون نابية عن الفهم ولا مستعصية عليه

واعتبر بصانع ورق السكاير الشائع الاستعمال بأسم (جب) فلقد كان موفقاً حينما خطر بباله أن يطلق على ورقه هذا اللفظ الذى لم يكن فى الحقيقة إلا الحرفين الأولين من اسمه ولقبه (جوزيف بارتو) إذ من منَ المغرمين بالتدخين لايعرف ورق (جب) الذى هو أصلح ورق لعمل السكاير ! وفى المانيا يصنع ماء لتطهير الفم وإصلاح شأن الأسنان أصبح ذائع الشهرة فى أنحاء المعمور ، أسماه مخترعه وهو من الكيميائيين الممتازين بـ (أودول) . وهو اسم جدير بأن يتخذ مثالا لما نحن بصدده من بيان فائدة الكلمة الرنانة القصيرة الحاضرة دواماً فى الذاكرة ، تطلق علما على صنف ما من صنوف البضاعات . وليس من بأس أن يكون ذلك اللفظ

من لغة أجنبية لاعتقاد الجمهور غالباً بأن ما يصنع فى بلد آخر لا بد أن يكون أجود صنفا وأجزل فائدة مما يصنع فى بلده . وحذار من الاسماء الحديثة التى يخيل لواضعيها أنها أكثر انطباقا على الذوق الجديد والحالة العصرية ، ذلك لأن هذه الاسماء تزول كما تزول مسمياتها ويحل محلها اسماء أخر حديثة بالنسبة لوقتها

وخليق بالتاجر اللبق أن يتحرى ذوق الجمهور ويستقصى حاجياته الوقتية أو الدائمة . ولو كان هذا الذوق وهذه الحاجيات مخالفة لوجوه الصواب والعقل . وليس له أن يفسح المجال لذوقه الخاص فيفضل شيئا على غيره بل أن يحسب الحساب كله لأذواق المشترين وميولهم . وكل ما عليه أن يقوم به حيال هؤلاء أن يقدم إلى كل منهم الشيء الذي يلائم ذوقه بعد إذ يكسبه صورة من الصور الخلابة الجذابة ، وهذا إذا لم يكن الذى يرمون إلى اقتنائه خسيس الصنف ردىء الشكل بذاته فيقدمه اليهم كما هو على علم منهم بعيوبه ونقائصه

٢

المهن الصغيرة

ورب قارىء لما تقدم من القول يعترض علينا بأننا أفضنا فى الحديث على الناس كافة وعلى التجار والصناع خاصة ، أولئك التجار الذين بنوا أعمالهم ومشاريعهم على أساس رأس المال واستوثقوا من نجاحهم فيها بواسطته ولم نخص بكلمة واحدة التجار والصناع الذين لا رأس مال لهم يستثمرونه بجدهم ونشاطهم فى مختلف الأعمال والمشاريع ، ويسائلنا عما هى الذرائع لحصول هؤلاء على الثروة وعما إذا كان فى وسعنا يسطها لهم ليسترشدوا بها فى تسديد خطواتهم نحو هذه الغاية المبتغاة

وللاجابة على هذا السؤال نقول : نعم ان السبيل إلى اقتناص طائر الثروة واضح المحجة وأنه ليكفينا ان نوجه أنظارهم إلى تلك المرأة جامعة قشور البرتقال ليكون مسلكها مثلا مضروبا وقدوة

صالحة لنيل المراد من النجاح . ولسنا نريد بسوق هذا المثل اليهم أن نحضهم على أن يكون كل منهم جامع برتقال ، بل أن نذكرهم بوجوب طرقهم أبواب الرزق حيث كانت . فأمامهم مثلا ما يلقى فى الطريق من فدام القنينات وفى زبالة المطابخ من عظام الأطعمة وما إلى ذلك من الأشياء التى تبعث حقارتها الظاهرية على طرحها كل مطرح وقلة الاكتراث بها . ومن ذا الذى يخطر بباله أن لبعض أنواع المحار مثلا قيمة لا بأس بها !

فأن من هـذا المحار ما إذا سحق صلح صلوحا تاما لتغذية الطيور الداجنة ويزيد فى بيض الدجاج والبط وتباع المائة كيلو منه ، لهذا السبب ، بمبلغ يعدل ١٥ فرنكا . وهناك صنف من البرقوق البرى تنمو شجيراته على الجدران ويصطنع منه شراب مقبول الطعم سائغ للشاربين . فالفطن صاحب الهمة من طالبى النجاح فى الأعمال هو الذى يتحرى موارد الرزق من هذه الأبواب فيصطنع هـذا الشراب الذى لا يكاد يكلفه شيئا ويرتاد به معاهد العمل ليبيعه العمال الذين يلتمسون ما « يبل ريقهم » أثناء عملهم الشاق فلا يجدون . نعم ربما كان ما ستربحه من هذه الصناعة الجديدة قليلا ضئيلا ، ولكنه ربح على كل حال سيتكون لك منه رأس مال صغير إذا أحسنت سياسته وكنت فطنا وفيك لباقة استطعت إنماءه بما تزيده عليه من الدراهم فالدنانير كل ، يوم وباغتنامك

فرص الربح تثب عليها فى الوقت المناسب لاغتنامها . واعلم أنك بالمثابرة والأقدام ستضاعف ذلك المال وتوسع بمضاعفته نطاق الأعمال ، قال (هزيودس) الحكيم : « إذا أضفت إلى القليل قليلا وثابرت على هذه الأضافة فأنه لا يلبث أن يصير كثيراً » والذى يصعد فى الدرج واحدة بعد أخرى بتؤدة وتحرز من العثرات والمزالق لا بد واصل إلى القمة العليا التى يبتغيها والمرتبة الشريفة التى يرنو اليها . ولسنا نقول إنه بالغ إلى هذه الغاية عفواً ومن غير مشقة ، بل نقول إن الصعوبات ستعترضه حتما فى طريقه وأنه لا بد له من مكافحتها لتذليلها وأنه قد يؤوب من هذه المكافحة أحيانا بالفشل واليأس وما اليهما من مصاعب هذه الحياة ومحنها ، ولكنه سيتغلب فى النهاية عليها بعزيمته ومثابرته ومصابرته ويتسنم ذروة المجد والثروة بما سيحرزه من النجاح والفوز فى عمله

وكم من الثروات الكبرى فى مختلف الأمم ترجع فى أصلها إلى أسباب حقيرة كتلك التى أوردنا فيما تقدم ذكرها . وللذين شادوا صروحها أن يفتخروا بها على معاصريهم وأن تتخلد ذكراهم مثالا للنبوغ والهمة وقوة الأرادة ، لأنهم أوجدوا شيئاً من لا شىء ولأنهم استفادوا وأفادوا . قال (جابرييل مورى) : « كل جهد يبذله الأنسان ، مهما يكن صغيراً ، يكسب صاحبه شرفا

وجمالا . وإنما الحركة الصغيرة يتكيف بها جسم العامل مؤديا عمله مظهر حقيقي جليل للقوة المنظمة للحياة . وما من عمل يدوي إلا وله نظام يشبه الوزن فى الشعر والأيقاع فى الغناء . ولشد ما يكون هذا الأيقاع المؤثر فى النفس منطقياً وصادقاً ومنبعثاً بذاته وقوياً بمطابقته المطابقة التامة منذ القرون والأجيال لحاجة النوع البشرى وميوله . وهذه ذراع الفلاح الذى يبذر الحبوب التى يتوقف عليها الحصيد الآتى تراها تلقى البذور فى الخطوط بحركة موزونة ما أشبهها بحركة رجل الاكليروس مؤديا وظيفته الدينية . ولو حللت سلسلة الحركات التى يؤديها الشيال يشحن طرود البضاعات أو يفرغها ، لسطع لك منها جمال الجهد المبذول فى انتظام واتساق . ومثل هذا يقال عن حركة النجار « يصفى » لوح الخشب والنحات ينحت الحجر ليسويه وعلى الجملة فأن فى حركة الأنسان يكافح المادة ابتغاء إخضاعها لأرادته ما يدل على العظمة والجلال »

فليضع القارىء هذه الحكم الغالية نصب عينيه ، وليجعل أسطرها ماثلة على الدوام له ، فأن فيها مذكر بأن طبقة العمال ذوى الأيدى المتفلعة جديرة بأن تعارض بها وفى غير ما استحياء سائر الطبقات وبأنه لا يذهب مذهب التفرقة بينها وبين هذه فى الفضل والاستحقاق سوى الأغرار والجهلاء

واعلم أن اختيار العمل الذى تخصص به نفسك منوط بما فيك من الاستعداد الفطرى للقيام به ومتوقف على ظروف المكان والزمان . وإنما الرجل الثاقب الفكر الصائب النظر البصير بالحقائق هو الذى يهتدى بهذه المزايا إلى مظان العمل المجدى ويرقب الجمهور مستطلعاً حاجاته غير مفرق فيه بين العامل المجدّ والكسول الخامل فأن الأنسان ، مهما تكن طبقته فى الاجتماع ومهما تكن الحرفة التى يمارسها أو الباعث الذى يبني عليه سعيه ، مجبول فى كل مكان على تحرى العمل الذى يتكبد فى سبيل إنجازه أقل ما يمكن من العناء . وهذه الفرصة لما يحسن بك ، إذا كنت لبيبا فطنا ، الوثوب لاغتنامها إذ تستطيع لكي توفر عليه عناء العمل أن تجعل نفسك الوسيط لتحقيق مشتهاه أو أن تكون همزة الوصل بينه وبين الغاية التى يرمي اليها . وكن ذا ثقة بأن سعيك هذا سيكون مرضيا عنه ومقبولا منه وأنه سيرى فيك الوسيط الذى لامحيص له عن الاستمداد بهمته ودرايته فى قضاء حاجاته

وخليق بالبائع المتنقل فى الطرقات ، كما هو خليق بالصانع والتاجر أن يكون خبيراً بأحوال النفس دقيق الملاحظة فيها وأن يستطيع الجزم سريعا بصدق نظره وصحة حكمه وحضور ذهنه فيما يجب عليه أن يغتنمه من الفرص للانتفاع بعادة من العادات الاجتماعية أو شهوة من شهوات النفس أو اندفاع عام

من الجمهور نحو غرض من الأغراض، فأنه لا يلبث أن يصل إلى سدرة المنتهى من النجاح فى عمله وأن يصبح من رجال المال المرموقين بعين الاحترام والأجلال

وقد أورد كوفنيون فى كتاب أسماه (بلاط باريس) كناية عن شوارعها ومسالكها ، وهو كتاب أخرج للقارئين فى سنة ١٨٨٥ ، الحادثة الآتية مثالا للطموح إلى المعالى والنشاط والهمة في البلوغ اليها . قال :

« فى سنة ١٨٦٥ كان أحد رجال شرطة باريس ماراً بالقرب من براح فى ملتقى شارعى (تاران) و (سان بيير) ، حيث يمتد الآن شارع (سان جرمان) . فأبصر بائعا جوالا يبيع المارة أصناف البضائع الصغيرة ، فسأله الترخيص الذى يبيح له التجوال في الطريق . ولم يكن الترخيص معه فلم يبرزه ، فساقه إلى دار الشرطة حيث عرف الضابط من لهجته أنه من ابناء بلده فتنقل به فوراً من الاستجواب الرسمي ، إلى أحاديث الوداد التى اختتمت بأطلاق سراحه ، موعوداً بعدم تعرض رجال الشرطة له

والذى يخيل للقارىء أول وهلة ، أن هذا الحادث مما لا يترك أثراً فى مصير صاحبه ، لما يتفق من وقوع أمثاله ، ولاشتغال المفوّض اليهم حفظ الأمن بها صباحَ مساءَ . ولكن القبض على ذلك البائع الجوال الحقير ، وسوقه إلى دار الضبط لمعاقبته على

تقصيره ، كانا أساس الثروة الواسعة التى اشتهر بها

قضى الرجل زمناً يبيع بضاعته على السابلة فى الشوارع الباريسية ، تكلأه عين عناية الضابط . ثم تخصص لمبيع البضائع المتبقية فى بيوت التجارة ، بعد انقضاء الفصل الموافق لها . وهو المبتكر لفكرة عرضها فى مخزن قائم بذاته ، فراجت أعماله أيما رواج ، وبلغت من النمو والاتساع مبلغاً دعاه إلى إنشاء السوق المعروفة تجاه محطة (سان لازار) ، ثم السوق المعروفة فى شارع (ريفولى) باسم « بازار ريفولى » . وهي التى بلغت من السعة مبلغاً استوجب الدهشة والاستغراب

تتجلى للقارىء من هذه القصة صفتان كانتا دعامتي نجاح الرجل وفوزه فى معترك الحياة التجارية : أولاهما الطمع والثانية الحذق فى اغتنام الفرصة

فبالطمع طمح إلى الاتجار بالبضائع المتبقية في بيوت التجارة بعد انقضاء الفصل . وهذا النوع من الاتجار يقتضى من الخبرة والدراية أكثر مما يتطلبه منهما الاتجار بالبضائع الصغيرة ، فى الطرقات العامة . ويستلزم ما لا يستلزمه هذا من الأقدام على المجازفة بالأموال ، والتعرض لأخطار الخسارة ، والأمل الكبير فى الربح إلى غير هذا من الصفات التى يحتاج التاجر اليها . وهي ضربة لازب له فى النوع الثانى من الاتجار دونها فى النوع الأول

وطمع الرجل فى توسيعه نطاق تجارته ، هو الذى حمله على استئجار حانوت لعرض بضاعته فيه . ثم على إنشاء السوق الأولى فالسوق الثانية . وبدهيّ أن شوقه إلى احتياز الثروة كان شديداً ، وأن درايته بأساليب الترصد لاقتناص الفرص السانحة كانت واسعة ولولاهما لما صبر على مضض الانتظار ، بوقوفه لها بمرصد إلى أن أوقعها فى شباكه الممدودة

عرف الرجل بحذقه ولباقته ، كيف يستفيد من انتمائه إلى البلد الذى ينتسب اليه صاحب الشرطة ، وعرف كيف يتلطف معه ليحمله على مساعدته والعطف عليه ويسترق منه الوعد بعدم تعرض رجاله له ، فى تجواله ببضاعته . فكان هذا الحادث على بساطته ، من أهم بواعث نجاحه فى تجارته ، ووصوله إلى الدرجات العليا من سلم الثروة والجاه ، لا سيما وأن التجار أمثاله يبنون رواج أعمالهم وتوطيد ثقة العامة بهم ، على ما يوهمونها به من الانتماء إلى ذى جاه أو سلطة كذلك الضابط . وكثيراً ما يتذرعون بهذه الواسطة إلى استمالة المشترى اليهم

ولو أن بائعاً غيره اعتمد زوراً على ذلك الانتماء لترويج بضاعته ، لأفضت الحال به إلى عكس ما أفضت اليه مع صاحبنا . إذ كان يساق حينئذ إلى موقف التهمة بأنه أدلى إلى القابضين على زمام السلطة العامة بالبرطيل

مما سلف يؤخذ أن حصول بائعنا من أحد رجال السلطة على الوعد بعدم تعرض أعوانه له فى تنقله لترويج بضاعته ، كان الأساس المتين الذى شاد عليه صرح نجاحه . ومن الأدلة الناهضة على حذقه وكياسته فى ذلك ، اختياره أوفق الأوقات لاغتنام الفرصة التى وسع فيها نطاق تجارته ، باستئجاره حانوتاً لعرض بضائعه فيه

ثم اعتبر بما فى حياة المستر (وايتلى) صاحب مخازن التجارة المعروفة فى لندن باسم (مخازن وايتلى ، المورّد العام) وقد مات قتيلا فى أوائل سنة ١٩٠٧ لأسباب ما برحت مجهولة فأن فيها من العظات والعبر والحكم ما هو خليق بالطامحين إلى المعالى الطالبين للثروة بالمثابرة وعلو الهمة ، أن يستفيدوا به . وليس لأحد أن يزعم فى الواقع أنه بالغ إلى ما بلغ هذا العبقريّ من الثروة والمجد وفضائل الهمة واللباقة وحضور الذهن ، فأن الغاية التى بلغ اليها فوق مقدور الكافة ولن ينتظر أن يسمح الزمان بكثيرين من طرازه فهو نسيج وحده ونادرة وقته . غير أن هذا لن يمنع هؤلاء من السير على منهاجه والاهتداء بفضائله العالية ، فيما يبذلونه من الجهود لتحقيق المراد من الثروة والجاه .

وقد نشرت جريدة الطان فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩٠٧ ، بمناسبة مصرعه ، طرفاً من حياته حيث

قالت : « إن حياة المستر وايتلى ملأى بالعبر ، فقد ولد فى سنة ١٨٣١ بقرية حقيرة قريبة من مدينة واكفلد ، وكان بجوار دار أهله حانوت لبيع الأجواخ فدخله وابتلى للتمرن فيه على المعاملات التجارية . ولكن الطموح إلى الثروة كان الشغل الشاغل له ، فلما بلغ من عمره إلى العشرين ، أي فى السنة التى أقيم فيها بلندن المعرض العام ، أغراه ما سمعه من عجائب هذا المعرض بالقدوم إلى العاصمة الانكليزية حيث استطاع فى مدى أربع سنوات الانخراط فى سلك مستخدمى بعض المحال التجارية الكبرى المعدة لبيع الأجواخ وتمكن خلالها من درس أحوال السوق التجارية وأطوارها وتقلباتها . ثم عاد بعد تلك السنوات الأربع إلى (أجبريج) وهى قريته التى ولد فيها وشارك التاجر الذى تمرن عنده فى رأس ماله . ولكنه لم يلبث معه سوى بضعة أسابيع لأن مدينة لندن أثرت فى نفسه بجلالها وانفساح المدى فيها لذوى المطامع والهمم العالية . وكان قد اقتصد فى حياته العملية الماضية مستخدماً فى أجبريج ولندن ثم شريكا فى آخر الأمر لتاجر الأجواخ فى القرية ، مبلغاً لا يتجاوز ٦٨٠ جنيها اقتصده بوسائل الحرمان والامساك عن مراد النفس . فلما كانت سنة ١٨٦٣ اهتدى إلى مخزن تجارة بالقطاعى بشارع وستبورن جروف رقم ٣١ فاشتراه من صاحبه فكان هذا المخزن الصغير الحقير النواة لمخازن وايتلى

الفسيحة الأرجاء التى تشغل الآن ستاً وثلاثين داراً كبيرة يتألف منها شطر كبير من الحي المعروف بحريّ (بيزاتر رود)

« وقد بدأ وايتلى عمله فى ذلك المخزن الصغير بمستخدمين اثنين وخادم فتجاوز عدد مستخدميه فى وقت وفاته ستة آلاف أما رأس ماله الذى لم يكن ليزيد على ٦٨٠ جنيها فقد بلغ إلى نحو المليونين من الجنيهات

« ولم يكن وايتلى ممتازاً في عمله بعلو الهمة والفطنة وصدق النظر فحسب ، بل كان فوق ما تقدم صاحب جرأة نادرة وحضور ذهن وسعة حيلة لا يباريه مبارٍ فى هـذه الخصائص العالية . ولقد لقب نفسه بالمورد العام فكان هذا اللقب من أهم بواعث نجاحه وثروته . وكان حينما تلقب به يزعم القدرة على موافاة معامليه بكل ما فى استطاعة امرىء أن يحصل عليه بالمال . وأصبحت هذه الحقيقة مشهورة مأثورة عنه حتى قال بعضهم لو أن آدم هبط مخازن وايتلى وليس ما يستر عورته سوى أوراق من شجر الجنة وكان بيده بعض أوراق مالية من بنك انكلترا لخرج منها مكسواً على آخر طراز ومتزوجاً ومستأجراً داراً لو غشي غرفة الطعام فيها من فوره لوجد الحساء على المائدة يتصاعد من إنائهـا البخار ثم جاءه من يخبره بأن يختا خاصاً به ينتظره فى أقرب مرفأ لينقله إلى حيث يلتمس الرياضة وتتوافر له أسباب السرور والهناء

« وكان المستر وايتلى على نصيب وافر من قوة الابتكار وسرعة الخاطر . أراد بعضهم اختباره ليتأكد أهليته لتلك التسمية التى أسمى بها نفسه ، فسأله أن يبيعه فيلا ضخما فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى كان الفيل الضخم بين يديه . وسأله آخر تابوتا قديما لأحد الموتى فما هى إلا ساعة حتى كان التابوت فى بيت طالبه . وعهد اليه ثالث توريد قدح من البراغيث الحية فعهد فى الوقت إلى أحد مستخدميه إنجازه . ومما كتبه بقلمه فى هذا الموضوع قوله : سألنى المستخدم كيف يتصرف فى هذا الطلب فأجبته — إنجازه على الفور — ثم كتبت إلى المستر بارتلت مدير حديقة الحيوانات والمستر جامروك تاجر الضوارى راجيا منهما أن يمشطا ما عندهما من القرود ، لاستجماع ما يتخلل شعرها من البراغيث . فحصلت بهذا الرجاء على نصف قدح من هذه الحشرات بعثت بها من فورى إلى الطالب مع كتاب ذكرت فيه أن المقدار المرسل من البراغيث هو قصارى ما يمكن أن يوضع منها فى قدح واحدة ، وأنه إذا ترك النصف الباقى خاليا فما هو إلا لكي تتنفس البراغيث بما فيه من الهواء الضرورى لحفظ حياتها فقبل الطالب البراغيث ودفع ثمنها

« وكان وايتلى ، بصرف النظر عن تلك الطلبات الشاذة التى رام بها أصحابها امتحانه وتبين قدرته ، يقدم إلى زبائنه كل ما يطلبونه

منه من الحاجيات والكماليات حتى استدعي ذلك أن يوسع نطاق مخازنه توسيعا أصبحت معه من أغرب الأماكن التى تقع عليها عين الناظر . فأن الجائس خلالها يتنقل من القسم المعد لبيع الخضر الطازجة إلى القسم المخصص لمبيع الآثاث على اختلافها وتعددها فألى القسم المجهز بأصناف اللعب للأطفال يتلوه قسم بيع صنوف الجبن فقسم الفطائر والحلويات فقسم السكائر والسيكار وهكذا إلى ما لا يخطر بالبال من صنوف البضائع برمتها . وكان وايتلى فوق ما ذكر وما لم يذكر من البضاعات يتعهد بنقل لأمتعة من الدور إلى دور غيرها وبتنسيق الأمتعة الجديدة فى الحجرات والمنازل ويخلص على البضاعات المستوردة أو المصدرة ويعطى الضمانات على حياة الأشخاص وسلامة الأشياء ضد الأخطار بمختلف أنواعها كما يتعهد بطهي الأطعمة الشهية وتهيئتها وتقديمها للآكلين

« ولم يكن يعز عنده شيء إذا طلبه منه طالب . فأنك إن سألته طبيبا اخصائيا حاذقا هان عليه إرساله اليك كما يهون إرسال العامل الكهربائي لأصلاح سلك النور أو خديم السماط أو الخادم لفرع ما من فروع الأعمال المنزلية . ولقد ذهبت سهولة الحصول على كل ما يراد منه مثلا مضروبا فى الأمة الانكليزية ومجالا للحديث ، حتى أن بعضهم كان ينصح بعض الوزراء الذين

يخونهم الدليل يدعمون به أقوالهم وتصريحاتهم أن يقصدوا فى الحصول عليه إلى محلات المستر وايتلى فأنها لن تقصر عن أدائه اليه بالثمن

« ولا تظنن مع هـذا أن ارتقاء محلات وايتلى المورد العام واتساع نطاقها لم تعترضهما العقبات فى سيرهما المطرد إلى الأمام فلقد شبت النار فيها اربع مرات بفعل فاعل دبت عقارب الحسد إلى قلبه وهو ما حدا بشركات التأمين إلى رفض تأمينها من جديد، فلم يكن من المستر وايتلى الذى لا تنقصه الحيلة أبداً إلا أن أمن نفسه لدى نفسه كما أمن مزارعه الواسعة وملحقاتها من الأبنية حتى مغسل الثياب إذ أسس شركة للتأمين برأس مال لا بأس به . وكان المستر وايتلى يحافظ فى المعاملات التجارية على مبادىء عاهد نفسه ألا يتخطاها إذ كان يدفع على الفور أثمان البضاعات التى كان يستوردها من كبار الموردين بالجملة وكان يقول دواما لمستخدميه : — ضموا ضميركم إلى رأس مالكم إذا وددتم أن تنجحوا فى حياتكم ، واتخذوا من تجارتكم الشغل الشاغل لكم ما بقيتم أحياء وراعوا الأمانة والعدل مع الناس وفوزوا منهما بأوفى قسط فأنكم لن تخشوا إذاً أحداً —

« وكانت حياة وايتلى كلها خير قدوة فى الاجتهاد والمثابرة على العمل فأنه بالرغم من ثروته الواسعة لم يلق حتفه إلا وهو فى

مكتبه وسط مخازنه العديدة على مقربة من قسم المثقبات (الدانتيلا). وكانت عادته موافاة مخازنه فى الساعة العاشرة صباحاً فيظل دائباً على العمل حتى الساعة السابعة مساء رغم طعونه فى السن، إلا أنه كان شديد المحافظة على يوم الأحد إذ كان لا يزاول فيه عملا لا هو ولا أحد من مستخدميه. وهو ما قضى عليه باستثناء اللبن من البيع فى مخازنه لأنه مما يتحتم توريده إلى المستنفدين فى صبيحة ذلك اليوم

« ولقد شرح وايتلى بنفسه ما وقع له من الحوادث فى إبان أمره إذ قال: لما فتحت فى ١١ مارس سنة ١٨٦٣ مخزنى الصغير لبيع « الخردوات » متأخراً عن ميعاد فتح مخازن التجارة فى الصباح كان أول من غشيه للشراء منه إحدى السيدات، فاعتذرت لها مما تراه من الاختلال فى نظام المحل ومن فتحى إياه متأخراً عن الميعاد بأن ذاك اليوم هو أول يوم من وجوده فقالت السيدة: لعلنى أول مشترية منك وزبونة لك. فأجبتها نعم. فقالت: إذن تأذن لى فى أن أبسط كفيّ لمجيب الدعاء أن يسدد خطواتك نحو غاية النجاح. وفى ذلك المخزن الصغير وعلى مسمع من مستخدميّ الاثنين والخادم وهو فتى صغير كنت أنقذته قبل يومين من الغرق فى غدير ماء وجهت السيدة إلى بارىء النسم صالح الدعوات لنجاح عملى وقد ظلت ما بقيت على قيد الحياة

تتردد على مخزنى لشراء حاجتها منه وروجت بدعائها أعمالى وسددت خطواتى نحو النجاح المؤكد —

«وفى سنة ١٨٩٩ تحول محل وايتلى إلى شركة رأس مالها ٤٥٢٥٢٠٠٠ فرنك بلغ صافى ربحه أول وهلة ٢٥٠٠٠٠٠ فرنك»

هذا مجمل من حياة الرجل أوردناه للعظة والاعتبار فأن تتعظ وتعتبر فاعلم أن وقائع الحياة وحروبها كالوقائع الحقيقية التى تشتبك فيها الجيوش وتلاحم صفوفها فى ميادين القتال يعقد النصر فيها كما يعقد فى هذه لأصحاب الأقدام والشجاعة والروية . فقد جاء فى كتاب نشر منذ سنوات بالولايات المتحدة تحت عنوان (نصائح تاجر لابنه) ما يأتى مقتضباً من بعض فصوله :

« أول ما ينبغي تلقينه من المبادىء للمرء هو الأرادة ثم من بعدها تلقين العلوم . وإن من أشهى الأمور إلى نفسى يا بنيّ أن تكون طالباً مجتهداً فى التحصيل ومجدّا في العمل غير أن الأمنية التى أضعها فوق الأمانى كلها أن تكون رجلا شهماً بالغاً الغاية من النظافة . وإذا أتيح لك إتمام الدروس بقلب سليم ونية لم يعترها شوب فلن يهمنى أبداً أن تكون معرفتك باللاطينيه كاملة أو مبثورة »

(لم يكن الغرض الألمام بكثير من حقائق الأشياء بل الوقوف على حقيقة شيء واحد والتخصص له حتى يتيسر لك

الانتفاع به)

(إذا غلطت فلا تخادع نفسك بأنكار غلطتك إذ الواجب منذ تكوين العش افصاء البيض الفاسد بألقائه بعيداً عنه)

(إن يكن الصواب معك فاكبح من جماحك واكسر من حدة طبعك وإن لم يكن معك فاكظم غيظك فأن كظم الغيظ يعصمك من الزلل)

(صاحب الذوق السليم ينتزع حمة النحلة من غير أن يلسع بها)

(من تجاريبي فى الحياة أن الكبرياء سلاح صالح للقوي وسبب لفناء الضعيف)

(إذ هببت من النوم فى صباحك فلتكن على علم يقيني بما أنت معتزم القيام بعمله فى نهارك ، هذا إذا وددت أن تنام فى المساء مغتبطاً بنفسك)

(ليس الذى يهدم صرح الصحة هو ما يقضيه المرء فى نهاره من ساعات العمل بل ما ينكب عليه من أعمال أخر فى غير هذه الساعات)

(إذا عملت بالمبدأ الذى سأذكره لك بعد فقد حمدت مغبة أمرك . أظفر على الفور بكل ما يعرض عليك أو يقدم اليك . تلك كانت العادة التى درجت عليها ولا سيما فى إبان أمرى ، فأنه

بالدودة الصغيرة تصاد سمكة أكبر منها وبهذه السمكة تصاد أخرى تعدلها فى الحجم مرات كثيرة وهكذا حتى تصاد السمكة الجديرة بأن تهيأ طعاما مريئا للآكلين)

(لا يهمنك أن يكون عملك خطيراً أو غير ذى بال فأنك ما دمت ناهضا بأعبائه فقد حولت الأنظار نحوك واستدرجت الناظرين إلى الأعجاب بك . واعلم أن من الأعمال ما يشبه الزيت فى طبيعته لا يمكن أن يمتزج بأي سائل من السوائل)

(المرأة التى تبصر بصورتها منقوشة فى الدولار لأكثر نساء العالم تجرداً من العاطفة فاذا شئت أن تكون لها ندا وطابت نفسك لمنازلتها ومكافحتها على صعيد واحد فقد وجب أن تدع العاطفة جانبا فأن الأعمال الجدية لا يصح أن تهيمن عليها العواطف)

(ينبغى فى محادثة رجال الأعمال رعاية جملة من القواعد والمبادىء فى النهاية القصوى من البساطة وسهولة الفهم وهي : أولا أن يكون عندك من الشؤون ما تريد الجهر به . ثانياً أن تضع مرادك فى قالب مقبول من القول . ثالثاً أن تلزم الصمت بعد ذلك)

(دع الكلمة الأولى للحمقى والأخيرة للنساء)

(من لم يطع الأوامر يعجز عن إعطائها)

(تردد قبل أن يفوه لسانك بكلمة عتب ولا تدع فرصة حتى تغتنمها للنطق بالقول الطيب والكلام العذب)

وغني عن البيان أن التاجر الذى تلك غرر نصائحه ودرر حكمه البالغة لفى طليعة المجربين العارفين بأسرار الحياة والحكماء الجديرين بأن يهتدى بهديهم ويستضاء بنورهم

٣

الاعلان

لا يكفي فى نجاح التجار والزراع والصناع أن يكونوا على إرث من الأمانة والقصد وحب الترتيب وقوة الابتكار، كلا فأن هناك عاملا جديداً أقوى من هذه العوامل فى توكيد النجاح ولم يكن هذا العامل موجوداً ولا مألوفاً من قبل إذ لا يتعدى تاريخ ظهوره وإقبال الطبقة المنتجة عليه أوائل الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . وما كاد يظهر ذلك العامل حتى انقلبت العادات المرعيـة فى ترويج التجارة رأساً على عقب وثار ثائر التنافس بين المنتجين وتحول محور الأقبال على التجارة من قطب إلى قطب آخر واشتدت المكافحة فى ميدان الكفاح للحياة وتضاربت المصالح التجارية وتعارضت المنافسات على شكل لم يكن معهودا ولا معلوماً من قبل

ذلك العامل الجديد هو الأعلان المقنع الذى يساور قارئه مساورة لا يخلص من عذابها إلا بتصديق ما جاء فيه من تمجيد وإغراء بالأقبال فى نهاية الأمر على الشراء . وقد ذاع الأعلان فى أربعة أركان العالم ورضخ لحكمه كبار التجار والصناع والمنتجين وصغارهم كما أذعن بالطاعة له فريق المستنفدين ووقف بين الفريقين متسلطا على نفوسهم ومستبدا بأرادتهم كالحاكم الجائر الذى تعنو له الجباه ويمتد سلطانه فى كل مكان . وأعجب العجب أن فرنسا مع انخراطها فى سلك الدول الكبرى والأمم التى أخذت بالقسط الأوفى من العلم والحضارة ما برحت تتحسس فى هذا الميدان ، ميدان الأعلان لترويج تجارتها ، كأنها لم تقف حتى الآن الوقوف الكافى على أهميته ولم تعترف له بالقدرة والتأثير فى هذا السبيل . فترى التجار يكرهون الأعلان عن تجارتهم بل ويحتقرونه غالباً إذا استثنينا جملة من أصحاب المحال التجارية الكبرى يعدون على الأصابع وهم لم يثابروا على الأعلان عن محالهم إلا بعد أن أدركوا نفعه وأيقنوا صدق أثره ، وإلا فالسواد الأعظم منهم يعدون الأعلان عملا غير نافع فضلا عن أنه يكلف النفقات الفادحة التى هم فى غنى عن بذلها . ولقد نشأ عن هذا التهاون بل عن هذا الحرص الشديد على المال والتأخر فى ميدان التنافس التجارى أن الأنكليز والأمريكيين والألمانيين قبضوا بفضل

الأعلان على ناصية التجارة وملكوا زمام التصرف فى الأسواق فأصبحت تجارتهم فيها رائجة دون التجارة الفرنسية . وما ذلك إلا لأقبالهم على الأعلان عن متاجرهم وعدم ضنهم فى هذا السبيل بالمال مهما بلغ مبلغه

وإنه ليكفي القارىء ليوقن هذه الحقيقة أن يتصفح الصحف اليومية والمجلات الدورية فى تلك الأقطار إذ يرى أن صفحات برمتها قد خصصت للأعلان وأن طبقات التجار على اختلاف ثرواتهم مقبلون كل الأقبال عليه وأنهم لا يفوتهم النشر عن الاختراعات الحديثة مهما صغرت ولا عن أي حادث ولو تافه له مساس بالأشغال التجارية ولا عن الاستكشافات فى كل باب ومطلب، يلفتون بذلك اليها أنظار القراء ويلقون ذكرى فائدتها ونفعها فى روعهم فلا يحجمون عن طلبها إذا احتاجوا اليها . ومن الدلائل الناهضة على أن الأعلان جم الفائدة أن دائرته آخذة بالاتساع على الدوام وأن ثروة المعلنين ما برحت فى نموّ مستمر وأن أبواب الأسواق ما زالت تفتح كل يوم لمختلف البضائع

كتب المستر (ه . ويزبى) فى عدد جريدة (اندبندنت) التى تصدر فى مدينة نويورك بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٩٠٤ أن التجار والصناع فى الولايات المتحدة ينفقون على الأعلان فى كل سنة ٥٠٠ ميلون دولار أى ١٠٠ مليون من الجنيهات أى قدر ما

تنفقه حكومات الروسيا وألمانيا وفرنسا والنمسا وأسبانيا معاً على جيوشهن . وفى سنة ١٩٠٥ أخبرنا المستر (كوللنس) والمستر (هولدن) أن تقدير نفقات الأعلان بالولايات المتحدة الأمريكية يختلف من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ مليون ريال أى من ١٢٠ إلى ٢٠٠ مليون جنيه . وقال المستر (ويزبى) أيضاً : (إن الاعتماد على الأعلان يزداد باتساع نطاق التجارة فقبل الحرب الأهلية التى شب ضرامها فى الولايات المتحدة كان الناس يعدون مبلغ الثلاثة الآلاف دولار (٦٠٠ جنيه) الذى خصصته شركة (فيربانك) صاحبة معمل الموازين لترويج مصنوعاتها بالأعلان تبذيراً لا مبرر له . أما الآن فقد أصبح هذا المبلغ وأشباهه مما ينفق صغار التجار أضعافه فى هذا السبيل ، لأن تلك الشركة عينها قد خصصت لميزانية الأعلان عن مصنوعاتها ٧٥٠٠٠٠ دولار (١٥٠٠٠٠ جنيه) سنوياً . وهناك شركات كثيرة للصناعة والتجارة تنفق الواحدة منها لترويج بضاعتها بالأعلان مثل هذا المبلغ أو ما يقرب منه قلة أو كثرة . فشركة الصابون المعروف بصابون (سابوليو) تعلن عن مصنوعاتها من هذا الصنف منذ نحو الثلاثين عاماً وكانت تنفق فيه نحو ٣٠٠٠٠ دولار فى السنة (٦٠٠٠ جنيه) أما الآن (أى فى سنة ١٩٠٤) فيبلغ ما تنفقه فيه يومياً الف دولار . والمخازن الكبيرة للمبيع بالقطاعى فى الولايات

المتحدة وهي التى على نحو مخازن (البون مارشيه) و (اللوفر) فى باريس يخصص الواحد منها بمدينة نويورك نحو أربعة ملايين دولار فى السنة للأعلان عن نفسها فى الصحف . أما فى شيكاغو فالأعلاى فيها عن البضاعات أكثر ما يكون ذيوعاً بالبريد إذ ترسل الأعلانات والكتالوجات المبينة لأثمانها إلى أفراد الجمهور بأسمائهم وعناوينهم . وقد بلغ من بذل أحد مخازن التجارة المعروف بأسم (سيرس ريهوك وشركاه) أن نشر فى أرجاء العمور كتالوجاً فى شكل مجلد ضخم يزن أربعة أرطال وفيه ١٢٠٠ صحيفة فى كل صحيفة ثلاثة أنهر وقد أنفق أصحاب المخزن فى تصديرها إلى مختلف جهات العالم ٦٤٠٠٠٠ دولار (أى ١٢٨٠٠٠ جنيه)

وقد يصطبغ الأعلان أحياناً بصبغة يبدو لغير الأمريكيين أول وهلة ، أنها من ضروب التهوس فى المبالغة ومجاوزة الحد الأليق . من ذلك أن أحد الشبان الممثلين فى نويورك اعتزم التطوح فى غمار التمثيل الجدي يلتمس من ورائه المال والشهرة فتلقى من إحدى شركات الأعلان كتاباً تقترح عليه فيه ، إذا أراد لفت الأنظار اليه ، أن يذاع عنه أن اللصوص سطوا عليه ليلا مدججين بالسلاح وأن يذكر فى خبر هذا الحادث أن آثار دم استكشفت على الأبواب والجدران الخ ، كل ذلك بمبلغ لا

يزيد على مائة دولار

ومن ثم يحز القارىء مقدار تطلع الجمهور لمشاهدة ذلك الممثل الذى كاد يودى اللصوص بحياته وتشوفهم إلى تقدير كفاءته فى فنه

ومن الأساليب الأعلانية المتبعة في أمريكا أن تاجراً بمدينة بوستن ، لكي يلفت الأنظار إلى محل تجارته ويستوقفهم أمام معروضاته ، وضع جملة سلاحف تحمل كل منها على ظهرها حرفاً من أحرف اسمه ولقبه وخصص جائزة جنيهين لمن يثبت وهو واقف لرؤيتها أنه شهدها فى وضع يستطاع معه تلاوة الأسم بحسب الترتيب الطبعى لحروف هجائه . ومن ثم كان الناس يتزاحمون بالمناكب أمام حانوته

وقد يكون فى هذا الأسلوب وما يجرى مجراه من الأساليب المبتكرة للأعلان شيء من المبالغة وتجاوز الحد، ولكن القوم لم يغفلوا عن طرق أبواب أخر للاعلان ليس فيها مايخالف المعقول فضلا عما تفضى اليه من الفوائد والمزايا الجليلة . فأنما الغرض من الأعلان لفت نظر الجمهور الراغب فى الاشتراء والاستئثار بانتباهه ويؤثر ذلك فى ذاكرته أثراً لا يكون لها معه مفر من حفظ اسم الشيء المعلن عنه وشكله ولونه . ولاتنس ما لاختيار الألفاظ والجمل والعناية بالصور والألوان التى تصور

بها من صادق الأثر فى استدراج المشترى إلى الاشتراء . والقاعدة العامة فى الأعلان أن يتوافر فيه ما يحفز النفس إلى الالتفات بدون بذل مجهود عقليّ ما . ففى وسع المعلن أن يتفنن فى أساليب الأعلان بحسب ظروف الأحوال وعلى مقتضى طبيعة النشر فيوقظ فى نفس الجمهور مثلا حب الاستطلاع أو شعور الفزع أو الحزن أو يحفزها إلى الاهتمام بأمرها . وأن الكلمة الواحدة مسطورة بحيث تتراءى لعيون النظارة كأن تكون مكتوبة بأحرف مجوفة ، والجملة التى لقصرها و بلاغتها يدل مبناها فى الحال على معناها والصور المبهجة بألوانها الساطعة المتلائمة لمن خير الذرائع إلى الأعلان وأدعاها إلى رواج الشىء المعلن عنه

وهاك طائفة من الأمثلة على ما تقدم يمكن التفنن فى تنويعها :

أبدا

لن تجدوا فرصة أنسب ولا أجزل فائدة من

الأقبال على اشتراء أنواع الأقمشة

المعروضة فى محلات فلان وشركاه

انتظارك

حتى يفسد المرض صحتك ويسطو على جسمك وبحثك عن الطبيب
بعد ذلك تلتمس منه الشفاء لمن فساد الرأى وسوء التدبير

فاذا شعرت بمرض فبادر من فورك

إلى عيادة فلان فى جهة كذا

أنت مدعو الى تناول الطعام

فى مطعم كذا بشارع كذا
حيث فى مقابل خمسة قروش تستطيع أن تا كل الخ

وقد اخترع أحدهم دواء لعلاج مسامير القدم (الكالو) فجعل عنوان إعلانه عنه كما يأتى :

الى كل من له قدمان يمشى عليهما

ثم أنشأ يطنب فى مدح دوائه

يمكنك السير باستمرار ومن غير تعب

إذا اشتريت أحذيتك من محل فلان بشارع كذا

انى بصحة جيدة

فهل لك ان تقول ذلك عن نفسك

سؤال صدر به إعلان عن بعض الأدوية النافعة للصحة

لاتقرأ هذا الاعلان

إذا كنت لا تريد أن تعرف أن أجود . . الخ

واغتنم فى أيام الانتخابات لمجلس النواب أن تطبق حوادثها على إعلانك فتجعل عنوانه كما يأتى :

إن ١٤٨١٢ صوتاً

لا تفي بمدح مزايا ورنيش الجزم الخ

ولك أن تستثير فى نفس الجمهور غريزة الاستطلاع بأن تجعل عنوانك كما يأتى :

إن ما سيراه الناس اليوم

هو

العرض الكبير لبضائع . . . فى مخازن . . .

وقد نشر أحدهم إعلاناً أعرب فيه عن ارتياحه من إفلاسه إذ جعل عنوانه كما يأتى :

لقد افلسنا !

ووضع علامة التعجب فى نهاية هـذا الخبر من شأنه أن يزعج خواطر القراء وأفكارهم فيما يتعلق بالمعاملات التجارية فيكون هذا الأزعاج من بواعث انتقاشه فى ذاكرة القارىء ومبادرته من فوره إلى اغتنام هذه الفرصة التى سيكون انخفاض السعر أساساً لها

ولك أن تعتمد على آداب اللغة والسياسة فى ترويج بضاعتك على شرط أن تجعل الارتباط وثيقاً بينهما والحوادث الحاضرة . ولنطرح على نظر القارىء جملة من الأمثلة على ذلك :

فى بيوت النساجين

« . . أول ما يقع عليه النظر إذا أقبلت على بيت النساج ذاك الدجاج الجميـل وقد نشر أجنحته ليصقلها بأشعة الشمس وإنك لا تكاد تتخطى عتبته حتى ترى شاباً جالساً إلى النول تروح أجزاؤه وتغدو تنسق خيوط الحرير بألوانها الزاهية المختلفة وإلى القرب من هـذا الشاب عجوز قوّس ظهرها الهرم لا تفتأ

تدير بيدها عجلة المغزل . أما نافذة البيت فيطل الرائى منها على منظر خلوي من أبدع ما رأته العين فمن أثوار تتقاطر إلى حيث ينبغي أن تعاون صاحبها على الحراثة إلى مزارع ناضرة تمتد كبساط سندسي حتى تتوارى خلف الأفق »

وتستدرج حلاوة الموضوع وطلاوة الانشاء الروائى القارىء بعد ذلك إلى استيعابه مطالعة فلا يخرج فى النهاية منه إلا إلى الأطناب فى مدح فوائد الشراب الأمريكي المعروف بمنقوع تشاكرس

وقد يبنى الأعلان على استفزاز عواطف الرحمة في نفس القارىء فيستهل بمثل :

« إنا لنستدر الرحمة من عواطفكم الوالدية أن توافونا بكل بيان تهتدون اليه عن فتى صغير فى الثانية عشرة من عمره . لم يعد هذا الفتى إلى منزل والديه الوالهين منذ برحه فى صبيحة أول نوفمبر وكان يلبس بذلة من المخمل الأسود تطوقها حول الرقبة كلفة من المثقب (الدانتيلا) وقد شوهد فى الأيام الأخيرة بمنظرة أحد مشارب القهوة فى طريق كذا يتعاطى قدحاً من شراب — ديبونيه — »

وإذا بهذا الأعلان عن فقد غلام إعلاناً عن شراب ديبونيه المعروف . ويبنى أيضاً على ما يدخل من القول عداد المستغربات

أو المستحيلات كما كتب فى الأعلان الآتى :

« من الأنباء التى هبطت الأرض من السموات العلى أن القديس أنطوان الذى ضاعت الحيل فى استدراجه وإغوائه بارتكاب الخطيئة قد وقع أخيراً فى خطيئة الشراهة والنهمة ، فقد روي عن هذا القديس أنه نهش صاحبه من الرأس إلى القدمين . ولقد سئل عن خطيئته وعن السبب فى شراهته ونهمته إلى هذا الحد فأجاب بأنه ما كان لمعدته إلا أن تتسع لكل مأكول منذ اعتاد تعاطي شراب — فويانتين — وهو الشراب الكوثرى الذى يصنعه رهبان الدير فى ليموج »

ويبنى على الفكاهة الباريسية كما فى الأعلان الآتى عن مطعم :

« زعم جوزيف برودوم أن الاجتماع الانسانى أصبح مهدداً بالأخطار وقد شوهد يوماً وهو باسط كفيه إلى السماء يصيح بصوت تخنقه العبرة : — إلى أين نحن سائرون يارب وفى أى طريق نحن مسوقون ؟ فأجابه جافروش مستنكراً : إلى أين نحن سائرون ! وفى أى طريق نحن مسوقون ! الأمر أهون من أن تحتار فى السؤال عنه . نحن سائرون نحو مطعم بوستوك . فأى الاثنين أجافروش أم جوزيف برودوم أميل إلى الصواب ؟ أولهما بلا ريب بدليل أن برودوم هو الذى اقتفي أثر جافروش فى ذلك

الطريق . ولقد عاد من هناك وملء صدره الانشراح والسرور وعلى استعداد لأن يذهب مذهب الدكتو بانجلوس فى الحياة وأن الأحوال فى هذا العالم الأرضى جارية على خير ما تجرى عليه فى العوالم الأخرى »

ويبنى على آراء الفلاسفة والحكماء فى مثل الأعلان الآتى :

حول الزواج

آراء لوثر وسقراط وبيكون

« خلاصة رأى لوثر في هذه المسئلة الخطيرة : — أنه ليس على وجه الأرض من سعد باتخاذ حليلة له — وذهب سقراط الحكيم هذا المذهب حيث قال : — إذا تزوجت فأنك تندم وإذا لم تتزوج فأنك لن تندم أبداً — وقال باكون أكبر فلاسفة انكلترا : — إذا كنت شاباً فلا تتزوج وإذا ناهزت الشيخوخة فلا تتزوج أبداً — تلك هي أقوال أولئك الحكماء الثلاثة ، ولك أن تعمل بها وألا تعمل . فاذا عنّ لك ألا تأخذ بها ورأيت أن الزواج خير لك من العزوبة فاعن العناية كلها باختيار الزوجة السليمة البدن من العاهات والأمراض ، ذلك لأن مرض المرأة وضعف بدنها ينبوع للنزاع والشقاق لا ينضب ولأن المريض لن يكون ، ما دام متأثراً بمرضه ، رحب الصدر طيب النفس بل

يكون عصبي المزاج سريع الفيئة إلى الغضب والشر ومنغصاً لحياة معاشريه . ومن ثمّ جاءت ضرورة وجود حبوب بنك فى كل بيت وفى كل مكان . . الخ

وهاك مثالا آخر للأعلان روعي فيه ميل المرأة إلى الروائح العطرية :

« إن المرأه إذا ماست فى ثوبها الخز وسارت نحوك سيرها الوئيد ارتفع حجاب أذنيك لسماع حفيفها اللطيف، وإذا أرسلت إلى القلوب نظراتها النافذة الأشعة ففتنتك فأن أريج رائحتها العطرية تحيط بك من كل جانب فلكأنك فى جنات النعيم . وما الروائح العطرية التى ينطبق عليها هذا الوصف إلا من تركيب محل بينو . . الخ »

وتصلح حوادث السياسة كقواعد يقام عليها الأعلان كما في الأعلان الآتى :

المسيو بيشون فى تونس

« قدم المسيو بيشون سفير الجمهورية الفرنسية ومعه رئيس ديوانه والقومندان (بارّا) لمقابلة الأمير محمد ولي عهد الأيالة التونسية . ولقد تلقاه الأمير حفظه الله بمظاهر التجلة والاكرام فى قصر المرسى . وقد كان مما خلب عقل المسيو بيشون وفتن لبه

فى هذه الزيارة ما وقع نظره عليه فى هذا القصر الفخم من التحف الشرقية النفيسة كالسجاجيد والمطرزات الدقيقة وغيرها مما لا يوجد له نظير إلا فى مخازن . الميكادو . بشارع الأوبرا رقم ٤١»

وهناك ظروف دورية خاصة يكون الأعلان فيها جمّ الفوائد كأخلاء سبيل فرقة من الجنود أو تجنيد غيرها أو كابتداء السنة المدرسية أو كانتهائها فأنك إذا تفننت فى الأعلان على وجه يلفت اليه نظر هذه الطبقات المختلفة الكثير عدد أفرادها ضمنت لنفسك النجاح والرواج وحمدت غب السرى من يقظتك بدون ريب

واعلم أن الأعلان على اختلاف صنوفه ، أإعلاناً فى الصحف أم إعلاناً موزعاً على السابلة أو ملصقاً على الجدران ، قد لا يحتاج إلى مثل هذه الحيل المراد بها جذب الجمهور إلى تلاوته ، فأنه إذا كنت ذائع الصيت معروف الاسم يكفى ذكر اسمك للفت الأنظار اليه . ولا تنس أن لألوان الحبر الذى تطبع بها الأعلانات أثراً مهماً فى الاقبال على تلاوتها ، وأن أحسنها وأشدها تاثيراً فى نفس القارىء الأحمر والأخضر والأسود . ولا بأس باللون الأبيض مظللا بالسواد على رقعة زرقاء ، فأن حروف الكلم تبدو به واضحة للعين وضوحاً تاماً فضلا عن أنها لا تبرح فى المساء مرئية لها بينما تكون حروف الأعلانات

المطبوعة بغير هذه الصفة قد اندثرت معالمها وانطمست آثارها بحلكة الظلام

واحذر الأسهاب فى عبارة الأعلان لأنه مدعاة إلى اختلاط الكلم وتراكب الحروف على وجه يتعذر على العين معه استفسارها . وليكن همك التعبير عن مرادك فى اختصار وتأكيد بعبارة خالية من البيانات الفنية المعقدة ، وافسح بين السطور إذ لا بد أن يتخللها الفضاء كما يتخلل صفوف المنازل الهواء ، وذلك حتى لا تمل العين بسبب ما تستدعيه التلاوة من الجهد فى مثل هذه الأحوال . وبدهي أن الأعلان الذى يقرأه القارىء وهو سالك سبيله أو وهو راكب مركبته وبدون أن يحتاج إلى الوقوف أمامه أفعل فى النفس من كل إعلان غيره ، واتخذ لكتابة اسمك نوعاً خاصاً من أنواع الكتابة كأن يكون فى اللغات الأروبية بالحروف الرومانية أو المصرية أو القوطية الخ أنواع الحروف فى هذه اللغات . أو أن يكون في اللغات العربية أو التركية أو الفارسية بالقلم الثلث أو النسخ أو الفارسى أو الرقعة أو الكوفى أو الديوانى الخ ، ولا تكتبه مرة أخرى إلا به . ذلك لأن كتابة الاسم دواماً بنوع واحد من الحروف ينطبع فى ذهن القارىء وينغرز فى ذاكرته فيساور على الدوام خاطره بخلافه إذا تنوعت كتابة حروفه فى كل إعلان ، فأن أثره فى الذاكرة لا

يلبث أن يزول

ومن أحسن وسائل النشر وأجداها أثراً الأعلان بالمصنوعات الصغيرة الشائعة الاستعمال كالتقاويم السنوية والمراوح وأقلام الرصاص وأنابيب مناديل الطعام والمرايا الجيبية الخ فأن المرء، لكثرة تداوله هذه الأشياء وترادف رؤيته إياها وشعوره بها وهي على منضدة أو مكتب أو أي مكان بارز للنظر أو في يده أو جيبه، يزداد علماً بالشيء المعلن عنه وإقبالا عليه حتى بعد اندثارها لأن موضوعها يبقى عالقاً بذهنه أمداً طويلا

وإذا كان ما تروم الأعلان عنه عام الفائدة ويهتم به الناس كافة فخير الوسائط للنشر عنه إعلان يلصق بالجدران مع آخر يدرج في الصحف والمجلات الواسعة الانتشار. أما إذا كان مما لا يهتم به سوى الخاصة أو طبقة معينة منهـا كأن يكون من التحف الثمينة التي لا يقدر سوى الأغنياء على اقتنائها، أو أدوات الزينة والتجمل الخاصة بالنساء أو من الكتب الفنية في موضوع علمي معين فلا يكتفى بالنشر عنه في الصحف والمجلات الباحثة في هذه الشؤون كل منها على حدته بل يبعث بها بيان مستقل على يد البريد بعناوين أفراد تلك الطبقات المختلفة من الناس، فأدوات الزينـة والتجمل ينشر عنهـا في مجلات الأزياء والآلات أو الكتب الفنية في علم أو صناعة ترسل إلى الفنيين بواسطة البريد

فى بيان خاص يتضمن صورها وشرح مزاياها الخ . وكلما كانت هذه البيانات حسنة المرأى بجودة ورقها وطبعها ازداد أثرها فى النفس ولا سيما إذا تعددت الألوان والصور المتقنة

أما الأعلان الصغير المندس بين الأعلانات الكبيرة المهمة فلن يكون له أثر فى نفس قارئه إلا من ناحية كونه يحول دون ثقته به وتصديقه ما ورد فيه . والحق يقال فأن القارىء يشك فى فائدة الاقبال على محل تجارة يضن إلى هذا الحد على النشر عن الأصناف التى يحتويها . والواجب ، ما لم يكن التاجر ذائع الصيت شهير الاسم فى جميع الأرجاء ، ألا يقل ارتفاع الاعلان فى الصحيفة عن عشرة سنتيمات أى قدر ما يحتوى من عشرة أسطر إلى خمسة عشر سطراً بأحرف يحسن اختيارها من بين الأحرف الواضحة التى تلفت النظر بحسن تنسيقها . ولقد صدق من قال إن خمسة أسطر مجوفة الأحرف خير من خمسة عشر سطراً دقيقتها وأصدق منها أثراً فى نفس القارىء

وأشار أحد الخبيرين بضروب الأعلان إلى صنوف التأثير الذى تؤثر مطالعة الأعلان به فى نفس القارىء فقال :

« أول إعلان ينشر للدفعة الأولى لا تقع عليه عين القارىء

« النشرة الثانية منه يراها القارىء ولكنه لا يقرأها

« النشرة الثالثة يقرأها

« النشرة الرابعة تدعوه تلاوتها إلى التأمل ملياً فى سعر الشيء المعلن عنه

« النشرة الخامسة تستفزه للاحتفاظ بعنوان صاحب الأعلان

« النشرة السادسة تحمله على التحدث إلى امرأته فى الشيء المعلن عنه

« النشرة السابعة تحبب اليه شراءه

« النشرة الثامنة يقدم بعدها على شرائه

« النشرة التاسعة تدفعه إلى مخاطبة أصدقائه فى الشيء الذى اشتراه وإرشادهم إلى الأعلان المنشور

« النشرة العاشرة يتحدث هؤلاء الأصدقاء على أثرها إلى نسائهم فى موضوع الأعلان

« وتكون النتيجة بعد هذا كله أن الأعلان لا يأتى بالفائدة المرجوة منه إلا إذا نشر عشر مرات على الأقل »

والمثابرة ألزم فى هذا المقام منها فى غيره . وليس النجاح فيه إلا ثمرة الأناءة وطول الصبر . واجعل نصب عينيك أنك إذا لم تجهر بالقول ولزمت الصمت فقد جهل الناس وجودك وأن من يرد أن يسمعه الناس فليرفع صوته عالياً ، ولكن لا يفوتنك أن من بين الآذان آذاناً ينبغى الترفق بها فى إنفاذ صوتك إلى صماخها لأن صاحبها قد يكون ممن لا يصدقون إلا بالبرهان

المقنع والحجة القائمة فلا بد من حسن الحيلة فى تزجية مرادك إلى يقينه ، وليكن شأنك كذلك مع المتغافل وغير المكترث

وإن تكن طامحاً إلى إعلاء شأن محلك التجاري بتوسيع نطاقه وزيادة رأس ماله فضع لنفسك نظاماً لن تحيد عنه في إنماء أرباحك ومضاعفتها بقوة الأعلان عنه . واعلم أن كل الصيد فى أن تنثر اسمك فى كل مكان وتبثه بين الناس وتلقح به ذاكرتهم حتى لا ينساك أحد ، واعمل على ترويج بضاعاتك ملحاً في ذلك وملحفاً حتى تخرج عن العادة التى ألفوها ، وهي الانصراف عن الأعلان وقلة الاكتراث به . واعلم أنك فى جهودك التى ترمى بها إلى هذا الغرض قد لا تصادف النجاح المأمول ولكنه خليق بعالى الهمة ألا يدع القنوط يتسرب إلى نفسه من جراء هذا الفشل ولو تكرر ثانية وثالثة ، فأن بالمثابرة وحدها مقترنة بشيء من التشبث والألحاح فى ملاحقة الجمهور بالأعلان عن تجارتك تستطيع أن تهر النزعة التى ينزع اليها بطبيعته وهي قلة المبالاة بالأعلان . والواجب عليك أن تكون جهودك موجهة كلها إلى غاية واحدة : نقش اسمك أو العلامة التى تتخذها شعاراً لمحل تجارتك فى الأذهان . وهذه النتيجة لن تجنى ثمرها إلا بالأعلان المتتابع فى الصحف الرائجة والمجلات التى يقبل الناس على تلاوتها

القسم الثالث

فى الصحة

جودة الصحة خير من الغنى الوافر

١

النظام الغذائى

الصحة أثمن كنز يحرزه المرء فى حياته لأنها تمكنه من من مواجهة الحياة بثبات المصارع الوثيق القوي يواجه وحشاً ضارياً مقبلا عليه لافتراسه . ذلك الكنز بل تلك الهبة الربانية العجيبة بل ذاك التوازن الصحيح بين الوظائف العضوية بل الاعتدال الذى يراه العالم رأى العين من غير أن يجد له تعليلا إنما هو الذى فرطنا فيه واستنكرناه فلم نحطه بشىء من العناية والرعاية . وترانا لما اتصفنا به من جهل وغباً لا تمتد جهودنا إلى الاحتفاظ بذلك الكنز النفيس بل إلى التفريط فيه بالانصراف عنه إلى ما عداه من المقاصد ولو كانت بليغة الضرر والأذى ، فى حين أن من أقدس واجبات المرء وأولها وأولاها بالأداء الدفاع عن ذلك الأرث الجليل الذى هو خير من الكنوز والنفائس والأعلاق

وبمَ تصان الصحة ويكون الدفاع عنها ؟ برعاية أصول علم الصحة والعمل بقواعده ووضع نظام للتغذية واف بالغرض وتطبيق هذه الأصول والقواعد على الجسم فى حالتي العمل من حيث صلابته ومبلغ مقاومته ، وعلى الأهلية الجثمانية والعقلية

الواقع المحسوس هو أننا لا ندرى كيف نتنفس ولا كيف نمشى ولا كيف ننام ، وأننا نهمل العناية بعضلاتنا كما نسىء التصرف بأعصابنا ونمهد الطريق لجراثيم الأمراض تسلكه إلى جسومنا فتصيبها بشرورها وتفتك بها الفتك الذريع . لذلك كان حقاً علينا جميعاً أن نتفاوض فى خير الوسائل لوضع الخطط الكفيلة بدفع طغيان تلك الجنود المجندة من الجراثيم حتى لا تحصر حصون جسومنا وتنفذ اليها من ثغرات أسوارها ، وأن نتعلم كيف نأكل ونشتغل وكيف نستريح ونتنفس وننام . وليس هذا الأمر بالعسير علينا أن نصل إلى غايته ، فانه بصدق العزيمة وحسن الأرادة يستطيع المرء أن يصبح متين بنيان البدن وثيق أركانه وأن يكون جنديا لا يقهر فى ميدان التنازع على الحياة

اعرف ذاتك بذاتك ـ أصغ إلى هذا القول الحكيم وخذ به . فقد قيل إنه مما يخلق بالمرء أن يتحقق مزاجه الأصلى الغالب ليطبق عليه ما يناسبه من قواعد الصحة والتغذية والرياضة .

ومعلوم أن الأمزجة المثلى أربعة هي : المزاج اللنفاوى والمزاج الدموى والمزاج العصبي والمزاج الصفراوى . وقد بينا فيما تقدم الصفات المميزة لها فليرجع القارىء اليها فى موضعها ليزداد بها علماً وليستنتج من مطالعتها أنه من النادر جداً أن يكون المرء متكيفاً بمزاج واحد من تلك الأمزجة الأربعة وأنه غالباً ما يكون متكيفاً بمزاجين أو ثلاثة تجتمع فيه كلها بدرجات متفاوتة إذ تكون الغلبة لواحد منها هو المزاج الأصلى له ويكون المزاج الثانى أو هذا والثالث تبعاً له . وذاك المزاج الأصلى هو الذى يعتمد عليه فى نسبة الأنسان إلى أحد الأمزجة ويحسب حسابه فى جعل تصرفاته وأعماله وتظامه الغذائى مترتبة على ما يوافقه من الحاجيات

النظام الغذائى — إن جهلنا بنظام التغذية لمما تحمر له الوجوه خجلا واستحياء فأنك إذا سألت صاحب مطعم أو طاهياً أو ربة بيت أو أي امرىء تتوسم فيه العلم بنظام التغذية وما ينبغى للمرء أن يتطعم به وما يجب عليه أن يلفظه من الطعام، بل لو سألت أحدهم عن القيمة الغذائيه لصنف ما من صنوف الغذاء فأنك ستعجب العجب كله من إجابتهم على سؤالك ، إذ تستشف منها الجهل المطبق بحقيقة ما يعالجونه من الاغذية صباح مساء سواء من جهة الصحة أو من ناحية الاقتصاد المنزلى

والواقع أنه يمكن اعتبار المعدة موقداً والأطعمة وقوداً لها وأن ظاهرة الهضم تحدث أثناء ما يعتورها من التفاعلات الكيميائية بالاتحاد مع التنفس، الحرارة التى عليها قوام الجسم وبقاؤه ويرتبط بها تمثيل الأغذية المختلفة. وتقدر هذه الحرارة بالوحدة الحرارية (كالورى) التى يرى الفسيولوجيون أنها تتراوح من ٢٨٠٠ إلى ٣٠٠٠ وحدة فى الشاب السليم البدن من الأمراض

وهاك بناء على أبحاث الأستاذين (لاندوزى) و (لابيه) مقدار الوحدات الحرارية التى تنتجها الأغذية الشائعة الاستعمال باعتبار أن كل غذاء منها يزن ١٠٠ جرام، ومنه يؤخذ أن وحدات الحرارة التى تحدثها ١٠٠ جرام من السمك هي ١١٣ وحدة حراريه:

١٠٠ جرام من	وحدات الحرارة
السلطة	١٢
الجعة (البيرة)	٢٦
الكرنب	٢٧
الفواكه الطازجة	٣١
الخضر الطازجه	٣٧
النبيذ	٥٥

١٠٠ جرام من	وحدات الحرارة
اللبن	٦٢
البطاطس	٨٣
اللحوم	٩٤
السمك	١١٣
لحم الخنزير الطازج	١٣٣
البيض	١٥٣
الخبز	٢٥٥
الأرز	٣٤٥
فخذ الخنزير المملحة (الجامبون)	٣٥١
الخضر الجافة والنشويات	٣٦٢
السكر	٣٨٠
الشكولاته	٤١٥
الجبن	٤٦٦
الزبدة	٧٥١

ويمكن الحصول على ٢٨٠٠ وحدة حرارية بتناول المقادير المعينة إزاء الأطعمة المبينة فيما يلى :

الطعام	المقدار بالجرام	وحدات الحرارة
الخبز	٦٠٠	١٣٥٠
اللحم	٢٨٠	٢٦٣
السمك	٥٠	٥٦
البيض	٣٠	٤٥
الخضر الطازجة	٢٠٠	٧٤
البطاطس	٥٠	٤١
النشويات	٤٠	١٤٤
الفواكه	٤٠	١٢
الزبدة	٢٠	١٥٠
الجبن	١٠	٤٦
السكر	٢٠	٧٦
النبيذ	٦٦٠	٣٦٣
المجموع	٢٠٠٠ جرام	٢٨٠٠ وحدة حرارية

ومقدار ما يلزم المرء من الطعام فى اليوم يزن كيلوجرامين. والذين تضطرهم أعمالهم إلى المكوث والاستقرار فى مكان لا يحتاجون إلى مثل هذا القدر من الطعام بل يضرون أبدانهم إذا هم تناولوه. وقد يكفى الواحد منهم أن يقتصر فى نهاره وليله من الأطعمة على ما لا يتجارز المقادير الآتية :

الغذاء :	جرام
خبز	٣٥٠
لحم	١٥٠
خضر طازجه	١٠٠
بطاطس	٢٠٠
لبن	٢٥٠
سكر	٤٠
زبده	٢٥
أرز	١٥
فواكه	١٠٠
نبيذ	٥٠٠
قهوة البن	١ كأس

وهذه المواد بمقاديرها المعينة تنتج ٢١٠٠ وحدة حرارية

أما الذين تدعوهم أعمالهم إلى بذل الجهود البدنية المستطيلة المتعبة فلا بد لهم من مجاوزة هذه المقادير على وجه يستطيعون معه استحداث مقدار من الوحدات الحرارية يتراوح بين ٣٢٠٠ و ٣٦٠٠ وحدة وألا يجعلوا اللحم متكلهم في الحصول عليها لأنه لا يعطي سوى ١٠ فى المائة من المواد الزلاليـة وهيدرات الـكربون والشحم وكلها من المواد الذى يحتاج البدن إلى التغذى

بها بل على الخبز واللبن والبيض والأرز والفاصولياء والعدس والفواكه والسكر وكلها تحتوى من تلك المواد ٢٣ فى المائة . ومن المقرر أن كيلو جراماً واحداً من البقول كالفول والفاصولياء والعدس والبسلة يعدل ثلاثة أرطال ونصف رطل من اللحوم

ويحتوى الخبز واللبن والبيض جميع العناصر الضرورية للتغذية فهي حرية إذاً بأن توصف بوصف الأغذية الكاملة . ويتلوها فى قوة التغذية الأرز والنشويات واللحوم الحمراء من البقر والضأن . اما اللحوم البيضاء من العجل والدجاج والخنزير والبقول الخضراء ، فأضعف مما تقدم فى قوة التغذية إذ العناصر المغذية فيها أقل منها فى تلك

أما السكر فهو الغذاء النافع ولا فخر ، بل هو المجدد للقوى والمصلح للبدن والذاهب بآثار التعب والمعوض لما فقد من الغذاء على اختلاف صنوفه والذى تظهر آثار فائدته جلية للأنظار بدون أن يعرف الناس علة نفعه ويستطلعوا سر فائدته . ولقد أقاموا على هذا الجهل زمناً طويلا حتى برز لهم الكيميائى الكبير (داماس) معلناً لهم قوته الغذائية وتأثيره المصلح للجسم

ومن الأطعمة الجزيلة الفوائد السمك ، فأن الفصفور الذى يحتويه ينبث فى تكوين الهيكل العظمى والمجموع العصبي ومن ثمّ كان حتما على كل من يشتغل بعقله وعلى الأطفال أن يأكلوا

السمك ما استطاعوا ليعاونهم على النمو . ويؤخذ من أبحاث الأستاذ (متشنيكوف) من معهد (بستور) أن اعتياد شرب اللبن كل يوم يذهب بآثار الهرم ويطيل الحياة وما ذلك إلا لأن اللبن يحتوى جرثومة من شأنها أن تبيد المكروبات الضارة التى تعيش فى الأمعاء الغلاظ بمقدار لا يحصى عدده

ويحتوى الخرشوف مقداراً وافياً من التنين . ومن ثمّ عده الأطباء من الأغذية الممتنة للبدن والقابضة والمضادة للاسهال والمدرة للبول . أما الكرنب فلكونه عسر الهضم لا يناسب أرباب المعدات الضعيفة ، والأسفاناخ ملين شديد الفعل ولذا سموه «مكنسة الأمعاء» ومن خواصه كالكراث تنقية اللون

ومن مزايا الحماض أنه يسهل الهضم ، ولهذا يحسن بمن لهم استعداد للأصابة بالحصوة الامساك عن أكله تماماً بالنظر لما يحتويه من أوكسيد الأوكساليك بمقدار وافر . أما الطماطم ففاتح للشهية ومرطب ولكنه لعين الأسباب التى ذكرناها بشأن الحماض يحسن بالمصابين بالنقطة والحصوة ووجع المفاصل (الروماتزم) أن يمسكوا عن أكله . والكرفس إذا أكل نيئاً تعذر هضمه ولكن أكله باعتدال يفيد المرضى بالأعصاب ، وإذا طبخ أفاد المنقوطين فائدة جلى .

والهليون المعروف باسم (كشك الماز) مدرّ للبول

والواجب ان يؤكل طازجاً لتتحقق فيه هذه الفائدة . أما البطاطس الذى يميل إلى أكله أصحاب المعدات السليمة القوية فهضمه غير مستطاع لأصحاب المعدات المتعبة إلا إذا عجن عجناً . والخس مرطب ومفيد فى الالتهابات المعدية وأمراض الكلى ، والمقدونس ممتن ومهيج للعرق ومدرّ للبول وقاتل للديدان المعوية وقاطع للحمى . وهو يحرض شهية الطعام ويسهل الهضم . قال ذلك وأيده الدكتور (مونان)

وحذار من إنضاج الخضر فى الماء الغزير كيلا تفقد ما تحتويه من الأملاح والمواد الأزوتية الداخلة فى تركيبها . والشليك (التوت الأفرنكى) يحتوى مقداراً بالغاً من حمض ساليسليك ولذا كان مفيداً للمصابين بتصلب الشرايين والنقطة ، ويقول الأستاذان (بلان) و (إميل جوتييه) أن الشليك الجاف إذا نقع كان من أجود الممتنات للمجموع العصبى وأفاد المشتغلين بالأعمال العقلية إذ يذهب بكل أثر لما يتكبدونه من التعب

وخواص الشليك مجتمعة فى الفرمبواز (التوت الشوكى) إلا أن الأخير أسهل هضماً منه بكثير . وقد أوصى الأستاذ (فان سوتين) بالكرز غذاء صالحاً للمصابين بالهستريا ومضاداً للأمراض الروماتزمية . أما الخوخ فهو فاكهة المصابين بالبول السكرى والدواء الناجع فى علاج قروح المعدة . والتفاح مضاد للتشنج ويقوم

مقام البروموز والمواد المنومة . والتين يفيد أصحاب الأمراض الصدرية فائدة جزيلة لاحتوائه الكثير من البيسين . والكمثرى إذا كانت باردة خيف منها على المعدات الضعيفة . والليمون قاطع للحمى فأذا أضيف إلى قهوة اللبن الساذجة قام مقام الكينين وأفاد فى علاج داء الاسقربوط (فساد الدم)

والبرتقال أخف سائر الفواكه على المعدة . وللوز الجاف قيمة غذائية لا نظير لها فهو إذاً عبارة عن كرات غذائية صنعتها يد القدرة الالهية لفائدة الانسان . ويقول الأستاذ (أورهل) إن العنب ينبغى أن يؤكل بالطريقة الآتية : « إذا كانت صحة الآكل جيدة فليكتف بابتلاع لحم العنب دون قشوره وبذوره التى يجب أن يعرض عنها جانباً . فأذا كان مصاباً بالأمساك حسن اتخاذ العنب مسهلا بأن تبتلع البذور مع اللحم وتهمل القشور . وبهذه الوسيلة يمكن استعمال العنب طعاماً مغذياً ودواء شافياً لا يجمع بين صفتيه هاتين غذاء آخر »

وفى قهوة البن تتوافر الصفات الممتعة للجسم لأنه شراب منعش وترياق مضاد للسم . والشاى إذا تعوطي صباحاً أفاد شاربه القوة والنشاط وسهل عليه التنفس ، أما إذا أخذ عقب السير الطويل والعمل المتعب فأنه يبث فى النفس الشعور بالهناءة والاغتباط ويحرك فيها ساكن الهمة والنشاط

ويحسن بصاحب المزاج اللنفاوى اختيار الأغذية الممتنة للجسم المعوضة لما يفقده كلحم البقر أو الضأن محمراً أو مشويا واللحوم السوداء ولحم الأرنب البرى والتدارج (الديكة البرية) والحجل والخبز الجيد النضج بمقدار وافر والبقول المرة الطعم المدرة للبول مع الأقلال من الشراب . ويجوز له أن يتعاطى من آن إلى آخر قدحاً صغيراً من شراب ما على أن يكون معطراً . أما النشويات فالواجب عليه الاعتدال فى أكلها بسبب ما تحدثه من السمن فى جسم الآكل ، واللنفاوى من أكثر الناس استعداداً للسمن والأغذية غير الصالحة له بوجه عام هي الأطعمة النيئة وجذور النباتات على اختلافها والخس والشكوريا والاسفاناخ والجزر والنباتات المرطبة الملينة

أما صاحب المزاج الدموى فيحسن به التقشف فى طعامه وشرابه حتى لا يزيد عدد الكرات الحمراء فى دمه كأن يقتصر على اللحوم البيضاء كلحم العجل والدجاج والأرنب الأهلى ويكثر من تعاطى اللبن والخضر والفواكه الحمضية ويمسك عن المشروبات الروحية إلا القليل منها عند مسيس الحاجة ، وإذا كان الشراب نبيذاً فليشبه بكثير من الماء . وقهوة البن الخفيفة مصلحة لبدنه بخلاف المتبلات والعقاقير . وإذ كان بطبيعته يفرز جسمه العرق الكثير فمن الواجب ألا يعمل بطريقة ما على منع هذا

الأفراز

والأصلح لصاحب المزاج العصبي أن يقتصر على الأغذية اللطيفة اللذيذة كالبيض والدجاج والألبان وسمك الماء العذب وأن يجتنب المنبهات كاللبن والشاي والمشروبات الكحولية وأن يكثر من أكل الخس والكرفس، وذلك لأن عصارة الخس المسماة (لكتوكاريوم) مسكنة للأعصاب. ومن خواص الكرفس إذا أكل نيئاً أن يصون الجسم من الاضطرابات العصبية ويقوى الأعصاب ذاتها ويشفي خفقان القلب. وإذا طابت نفسه إلى شرب النبيذ فليتحر النبيذ الجيد والأشربة العطرية الحارة أو إلى الطعام فليقلل منه بقدر الأمكان مع إكثار عدد الوجبات والامتناع بالمرة عن حمل النفس على تعاطى ما تكرهه

والأفضل لصاحب المزاج الصفراوى اختيار الأغذية الكثيفة من اللحوم الحمراء مع الاكثار من النباتات والبعد ما أمكن عن المواد الشحمية والدقيقية. والأرز من أصلح الأغذية له كما أن قهوة البن من أضرها لبدنه. وعليه بالأشربة الغزيرة الخفيفة والأقلال ما أمكن من النبيذ والامساك بالمرة عن بقية الأشربة الروحية. ومن أوفق الطعوم لمزاجه الفواكه الناضجة اللذيذة والخس والطماطم فأنه مصلح للكبد

وأهل الاقاليم الحارة تجود صحتهم بالأغذية النباتية فهي بهم

أليق بخلاف أهل الأقاليم الباردة فمن الواجب أن يكون غذاؤهم حيوانياً والمواد الدهنية من أشد الأغذية ضرورة لهم . وليعلم أن الخبز الطازج غذاء ضار بالصحة مخالف لمصلحة البدن وذلك لتعذر مضغه فأذا وصل إلى المعدة كان وصوله اليها قبل أن يخضع لعملية المضغ وهي شرط أساسي لهضمه وإلا فأنه يتحول فى المعدة إلى كرات ضخمة لا يؤثر فيها ماتفرزه المعدة من العصير الهاضم فيبقى فيها طويلا على هذا الشكل ويكون سبباً فى أمراض المعدة

وغير خاف أن أمراض المعدة تؤدى على توالى الأيام إلى اضطراب الدورة الدموية وأوجاع الرأس والامساك والالتهابات المعدية ، وإنما الخبز الطازج الذى يقدم للآكل ساخناً ومكسواً بطبقة من الزبدة سم قاتل بلا ريب

ويحسن فى تحريض الشهية تعاطى شيء من مرق اللحم بارداً قبل الطعام بساعة ، وعلى شرط تجريده من كل أثر المدهن وذلك لأن تعاطيه بهذا الوصف يساعد على إفراز العصارة الهضمية ويحرض شهوة الطعام . ومن أصدق الوسائل نفعاً فى تحريض الشهية أن تنقع قليلا من بذور الجزر فى نصف لتر من الماء المغلى وتشرب بعض المنقوع بين طعامين ممزوجاً بشيء من العسل فأنك مع تحريضك شهيتك تتأكد هضم الطعام . ومن الأدوية التى فى متناول أيدينا فى حالة عسر الهضم المشروبات الساخنة

على اختلافها ولو كانت ماء صرفاً، فقد جاء فى إحدى الصحف الطبية ما يأتى بالحرف: « إن لتعاطى السوائل الساخنة تأثيراً مهدئاً ظاهر الأثر فى الغشاء المخاطي للمعدة ومسكناً للأوجاع التى تعقب تناول الطعام. وهو خير منبه لوظيفة الهضم. والظاهر أن جودة صحة اليابانيين وصلابتهم وجلدهم على تحمل المشاق يرجع الفضل فيها إلى اعتيادهم تعاطى السوائل الساخنة ولا سيما الماء فأنهم يرتشفونه ساخناً فى فصول السنة كلها. وهم يقولون أن الماء البارد يضغط على الأطراف وعلى تجاويف الكبد والرئة ويسبب السعال ويطفىء الحرارة الطبعية التى عليها قوام الحياة »

وراع النظام فى مواعيد طعامك فأن أعضاء الجسم تتطلبه وتنادى به لميل فيها إلى سرعة التكيف بالعادات التى تدرج عليها وإلى أن تؤدي وظيفتها بسهولة ونشاط عند تحديد المواعيد لأدائها. قال الأستاذ (إميل جوتييه) فى هذا الموضوع: « ليست الحياة فى الحقيقة إلا قصيدة شعرية متقنة الوزن منسجمة القافية وما الكائنات الحية إلا آلة متقنة الصنع مضبوطة الوضع وما الأنسان فى الحقيقة إلا أداة بالغة المبلغ الأقصى من الدقة والانتظام فكل وظيفة فيه جثمانية كانت أم نفسية أم عقلية لها حركة اهتزاز منتظمة ومجرى للسير متسق لا يتعطلان إلا إذا وقع بالأداة اختلال غير منتظر يضطرب له ذلك النظام

البديع المنسق »

« وإذا نظرنا إلى الواقع المشهود فأنا نرى أن لكل حادث من حوادث الحياة ميقاتاً وأن لهذه الحوادث تعاقباً متسقاً منظماً كتعاقب القوافى فى القصائد الشعرية . وهو أمر تتضح بداهته لك إذا ضربنا لك المثل بضربات النبض وخفقان القلب وبالتنفس شهيقاً وزفيراً »

« ألسنا نستشعر بالحاجة إلى النوم كل يوم فى ميعاد واحد؟ وحينما ننام مدة ما من الزمن لا يتغير متوسط طولها على ممر أيام السنة ، وحينما يقف بتعطيل حركة الأعضاء ونشاطها أثناء النوم تولد السموم أي المواد المتعبة للجسم وينشأ عن ذلك توازنه واعتداله أفلا ننهض من نومنا مباشرة ومن غير عناء ويكون من شأننا حينئذ ما يشبه ساعة الميقات تدق كلما قطعت مدى الساعة فى ستين دقيقة بلا زيادة ولا نقص ؟ »

« ثم ألم يكن الجوع والعطش خاضعين لمثل هذا الناموس وهل لم يكن فى قاع معدة كل إنسان ساعة كرونومترية محكمة الضبط لا يسهل على الدوام والاستمرار الخروج عن دلالاتها ومناقضة أوامرها وإرشاداتها؟ ليس فيما نستشعر به من حاجيات الحياة صغيرها وكبيرها حقيرها وشريفها إلا ويقع تحت تلك الملاحظة ، لأن الانسان من أية ناحية تأملته وعلى أي وجه قلبته

لا ترى فيه إلا أداة متحركة بذاتها حركة ناشئة عن تفاعلات ميكانيكية وطبيعية وكيميائية منتظمة ومرتبة الأجزاء بحيث تتنفس كل ثانيتين أو ثلاث ثوان وتشعر بالحاجة لتناول الطعام فى أوقات معينة وللنوم زمناً محدوداً من اليوم ولليقظة بعد انتهائه الخ . وليس لأرادته المحدودة بذاتها والموزونة بدقة الوزن فى الشعر والأيقاع فى الغناء سوى تأثير نسبي فى تلك الأداة »

وتمهل فى تناول الطعام ولا تلاحق جوفك بسرعة الازدراد كما يفعل المنهوم وجوّد المضغ حتى لا تكلف المعدة مؤنة عمل هو من اختصاص أسنانك لا من اختصاصها . وكل لقمة ترفعها إلى فمك ينبغي أن تمضغها عشرين مضغة على الأقل ، فقد ثبت أن الغذاء الذى أجيد مضغه أصلح للجسم وأكثر تغذية له من الغذاء الذى يزدرده الآكل ازدراداً ، كما ثبت أن اللعاب والعصارة المعدية ينفرزان فى هذه الحالة على أتم وجه ويمتزجان امتزاجاً جيداً بالمأكول فيسهل هضمه ويستفيد الجسم بأجزائه المغذية . وفى الأمثال الذائعة على الألسن : من أكل ببطء عاش طويلا

وهاك بحسب ما قرره الأستاذ (بومون) متوسط المدة اللازمة لهضم الأطعمة أو بعبارة أخرى متوسط مدة بقاء الأغذية الشائعة الاستعمال فى قرار المعدة :

الأرز والكروش والكوارع	١	ساعة واحدة
البيض النيء والسمك	١	« ٣٠ دقيقة
المخ المغلى	١	« ٤٥ «
الفاصولياء والبطاطس المحمر	٢	« ٣٠ «
لحم الديكة الرومية والأوز المحمر	٢	« ٣٠ «
لحم البقر المصلوق والدجاج المقطع إرباً	٢	« ٤٥ «
اللبن المغلى والبفتيك ولحم الضأن المحمر	٣	« ٠٠ «
لحم البقر المحمر والأسماك المحمرة	٣	« ٣٠ «
الخبز الطازج والبيض المصلوق والجبن بالزبدة	٣	« ٣٠ «
لحم البط المحمر	٤	« ٠٠ «
لحم الخنزير المملح	٥	« ١٥ «
لحم طيور الصيد	٤–٦	« ٠٠ «

وإذا كان تناول الطعام طبقاً للشعور بالحاجة اليه مع رعاية مقتضى مزاج الآكل عملا مهماً من أعمال الحياة فأهم منه وأشد خطراً الخروج عن هذا الواجب بأطلاق العنان للبطن تدلى اليها بكل مطعوم وكل مشروب فى كل زمان وكل مكان ، فلا يلبث الجسم أن يصاب بما لا يعدّ ولا يحصى من الأدواء الخطيرة كالأمساك المستعصى والالتهاب المعوى والزائدة الدودية وغيرها من الأمراض التى ترجع فى الواقع ونفس الأمر إلى الأمساك

الناشىء عن اختلال النظام فى تناول الطعام

فمن الواجب المحتوم إذن أن تأخذ الأمعاء بتنظيم وظيفتها لأن الأمعاء كالمعدة تلتمس الاعتياد وتميل إلى تعيين وقت لها من اليوم تؤدى فيه وظيفتها فعليك مساعدتها على التعود بهذه العادة الصحية المحمودة بأن تعين وقتاً من يومك كالصباح ، تذهب فيه إلى بيت الخلاء سواء أدعتك الحاجة إلى التبرز أم تدعك فأنك فى الحالة الثانية لا تلبث أن تتعود إخلاء جوفك من فضلات الطعام فى ساعة معينة من اليوم بما يترتب عليه نهوض الأمعاء بعبء واجبها فى وقت معين منه أيضاً . فأذا استعصى الأمر عليك ولم تستطع تعويد نفسك هذا النظام بالرغم مما بذلته من الجهود في سبيله فعليك باتباع الطريقة التى سأشرحها لك وتطبيقها على جسمك وأنت فى سريرك عقب الانتباه من النوم . استلق على ظهرك مع المباعدة قليلا بين الساقين ومدهما فى استطالة ومن غير انحناء واقبض نحو عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة فى الضغط بيديك على البطن مبتدئاً بما حول السرة ومعقبا بما يليها من أسفل البطن إلى الناحية اليمنى على أن يكون الضغط خفيفا تصعد اليد فيه من هذه الناحية إلى الناحية اليسرى فى شبه قوس وهكذا ، فأنك لا تلبث أن تحصل على النتيجة المرومة .

٣

مبادىء صحية

لا يكفى التبصر فى التغذى لحفظ الصحة ، وإنما الواجب معه رعاية بعض قوانين علم الصحة وقواعده . ومن هذه القوانين والقواعد أن تشغف بالنظافة وأن تحب الماء حباً جما تغسل به جميع أجزاء بدنك لتكفل بهذه النظافة دوام انفراز العرق من مسام الجلد . والماء البارد يضيق هذه المسام كما أن الماء الساخن يوسعها ولذا كان الماء الفاتر أصلح فى الاستحمام من البارد والساخن . وإذا كان من تأثير الماء البارد أن يكسب الجسم قوة وشدة فأن الماء الفاتر يهدىء الأعصاب ويذهب بكل أثر للتعب والعناء . أما الماء الساخن كثيراً فأنه يضعف الجسم ويذهب بنضرته

دع نافذات غرفتك مفتوحة غالبا كي يتخلل جوها الهواء

والضوء شتاء وصيفا ولا تغلق الأبواب طلبا للدفء من أيسر طرقه فأن ما تقتصده من ثمن الوقود يذهب أضعافه ضياعا فى سبيل الطبيب والدواء . واعلم أن الغرف التى يتخللها الهواء ينبوع للأمراض والأوبئة وخير مستنبت لجراثيم الزكام والالتهابات الصدرية وأوجاع الحلق والأنفلونزا . ودع الرياح فى فصل البرد تتخلل غرفتك وتمر منها وتصفر فأنها تحمل على جناحيها الغذاء المقوى لرئتيك والدواء المطهر لبيتك من العفونات

رض نفسك على التنفس فأن التنفس علم يجهله كل الناس بينما يتحتم عليهم استيعابه والأحاطة به . ألم يكن الهواء هو الذى يجدد الدم ويبث الحياة فى الأعضاء كلها ؟ ألم يكن الهواء هو العون على حفظ توازن الجسم وصيانة الوظائف الجثمانية والنفسية ؟ قال (أرنست بوسك) فى كتابه على التنفس : « إننا بتلك الحركة الميكانيكية ، حركة التنفس التى تتوقف عليها تقوية الرئتين ننشر مطويّ ما يتراوح عدده بين ١٠٠ و ١٨٠٠ مليون من الخلايا تتألف منها هاتان الرئتان . ومعلوم أن هذا العدد من الخلايا يغطى ما مساحته السطحية ١٤٠ متراً مربعا لو جعلت متلاصقة بعضها ببعض فأذا استخلصت من أبحاث كبار العلماء الفسيولوجيين أن سواد الخلق لا يتنفسون إلا من ثلث هذا السطح بل ربعه بل خمسه أيقنت أن مسطح الخلايا التى يتنفسون منها بفرض

انتشارها متلاصق بعضها ببعض لا يتجاوز ٤٦ بل ٣٥ بل ٢٨ متراً مربعاً فقط . وهو ما يتبين لك منه ضعف مقدار الهواء المخزون فى الخلايا بالنسبة للمقدار الصالح نظرياً لأن يخزن فيها »

وإنه لفى الدرجة القصوى من الضرورة الانتفاع بأكثر عدد ممكن من الخلايا ، وهو ما لا يتم إلا إذا تنفس الأنسان بملء رئتيه فيستنشق أكثر ما يمكن من الهواء بحركة الشهيق ويطرده بحركة الزفير . وينبغي أن تكون الثياب واسعة فضفاضة فى أجزائها المتصلة بالجذع حتى لا يعوق ضيقها حركة الصدر منفعلا بعاملي الشهيق والزفير . ويحسن أن يستغرق الشهيق من الزمن ست ثوان تقدرها بحسابك الأعداد عقلياً من ١ إلى ٦ ثم تنتظر ستاً مثلها والهواء منحبس فى صدرك فأذا انتهيت من عددها على المثال المتقدم فاخرج الهواء من جوفك بحركة الزفير قليلا قليلا بحيث تستغرق هذه العملية ست ثوان أخرى . والواجب أن يكون دخول الهواء وخروجه من طريق الأنف لا من طريق الفم الذى يجب أن يبقى محكم الأغلاق . ولك أن تثابر على هذه الرياضة الأولى عشر دقائق . فأذا كانت الأيام التالية جعلت مدة الشهيق ثماني ثوان بدلا من ست ومدة الانتظار ثمانيا أيضا ومدة الزفير مثلها . وتظل في هذه الرياضة مثابراً على زيادة هذه المدة شيئا فشيئا فترفعها من ثماني ثوان إلى عشر الى

اثنتى عشرة بل إلى أكثر من ذلك بحيث تطبع حالة التنفس عندك بطابع الاتزان والانسجام فى بطء واستطالة ينفذ الهواء معهما إلى ثنيات الرئتين ويشبع دمك بالاوكسجين الذى هو ينبوع الحياة والهناءة والصحة

وأفضل مكان تروض نفسك فيه على هذا الضرب من التنفس الخلوات ، تروضها عليه وأنت متمدد على الأعشاب الناضرة بجوار الأشجار الوارفة الظلال أو وأنت سائر بخطوات موزونة فى طريق يمر الهواء فيه مشبعاً بأريج المروج والحقول لا يعوقه عائق ولا تحول دونه عقبة . فأذا فعلت ذلك ، وما إخالك إلا فاعلا إن شاء الله ، فقد أكسبت بدنك صحة ونشاطاً وجعلت لنفسك سلطاناً منها عليها

واستفد بما يتبقى بعد عملك من أوقات الفراغ ، فخصص ساعتين منها كل يوم للسير على القدمين فأن هذا الضرب من الحركة لمن خير الرياضات وأجداها نفعاً للجسم إذ تجلوه وتزيل صدأه كما يزال صدأ الحديد . وهو خير واقٍ من مرضي تيبس المفاصل والضمور إذ يكسب البدن خفة وليناً ورشاقة ويجعل حركات أعضائه منتظمة ومنسجمة . وهل شهدت فى حياتك منظراً أقبح من ذى بطن متكور يعوق حركته ويسبب له العناء والتعب إذا بذل أقل جهد ويصيبه بصنوف الأدواء وفى مقدمتها

التعرض لداء السكتة ؟ أما وأنت تقضى فى السير على القدمين ساعتين من أوقات فراغك اليومى فأنك لا تخشى السمن فيبقى جسمك حافظا للنسبة الدقيقة بين أعضائه وتخلص عضلاتك وقد تقوّت بهذه الرياضة المعقولة من كل أثر للشحم المعطل للحركة فتظل على الدوام مرنة شديدة حتى فى أيام الشيخوخه

ولا تقتصر فائدة المشي على الجثمان بل تتعداه إلى الوجدان فقد ذهب شكسبير كبير شعراء الأنكليز إلى أن هناك ارتباطا وثيقا بل الرياضة بالمشي وبين نزاهة الضمير وصفاء السريرة . وقد أيد العلماء هذا الرأى إذ قالوا إن المشي يفيد العقل رشداً وسلامة ويطفيء فى النفس نار العداوات ويستل منها الأحقاد ويلهم صواب الرأى والعزيمة ، دع أنه الرفيق الذى يرجع اليه عند الاستشارة . فقد قال (لوسيان ديكاف) فى رسالته المعنونة (مدح المشي) إن خير عمل الكاتب والفنان ما يبتكرانه أثناء المشي .

وينبغي أن يكون المشي سريعا بخطوات واسعة متوسط سعتها ٧٠ سنتيا بشرط أن يكون الارتكاز على الأرض بمشطي القدمين أكثر منه بالكعبين وبشرط إعطاء الذراعين أقصى مدى لحركتهما المنسجمتين مع حركة الساقين أثناء السير . ولا تنس ما للحركات المقصود بها رياضة الجسم من الأثر النافع

فى تقويم صحة البدن بتسهيل التنفس ودورة الدم والتغذية وتأثير العناصر العصبية ومن ثمّ كان وجوبا على جميع الناس أن يلتمسوا الرياضة بالسير على القدمين خصوصا بعد اتخاذهم الأوضاع الثابتة من نوم أو جلوس أو وقوف أو اضطجاع مدة ما من الزمن

وإذا كان العمل الذى يؤديه صاحبه بانتظام وعلى وجه يناسب قوة مجهوده من غير إرهاق ولا إملال عاملا من أهم العوامل المعززة لصحة البدن فأن الراحة من النواميس الفسيولوجية التى لا مفر من الخضوع لحكمها القاهر لما يترتب عليها من توافر الموازنة بين الأعضاء وصيانتها فى حالة تستوجب الرضى والارتياح . فمن الواجب إذاً أن تتخلل هنيهات الراحة أوقات العمل لتعود الأعصاب التى أهاجها التأمل أو الالتفات أو غيرهما زمنا ما إلى سكونهما الأصلي ولتلتمس العضلات فى خلالها ما فقدته من المرونة بالجهد المبذول . ومما لا ريب فيه أن التماس الراحة ساعة من الزمن بعد العمل المتواصل أربع ساعات لا تعدل فائدته فائدة ربع ساعة من الراحة بعد ساعة من العمل . ذلك لأن تعب الجهد المبذول مدة ساعة واحدة تصلحه ملازمة الراحة خمس عشرة دقيقة بأسرع مما تصلح الساعة برمتها تعب الجهد المتواصل أربع ساعات . نعم أن هناك ظروفا تقضى على المرء بمواصلة العمل زمنا مديداً فيهمّ حينئذ ، إذا كنت قد

أتممت عملك ، أن تلتمس من الراحة كل ما يتيسر لها أن تعطيكه من القوة المصلحة كأن تعطي جسمك الوضع الذى يلائم راحته بعد أن تتجرد من ثيابك الضاغطة على صدرك وتبدل منها ثيابا واسعة فضفاضة أو تتمدد فى كرسى مستطيل مادّا إلى الأمام ساقيك وذراعيك وتسكن فى هذا الوضع مع العلم بأن سكون العضلات شرط أساسي للراحة وأن أقل حركة لها تحمل الخليات عناء عمل جديد هي فى غنى عنه . وليكن تنفسك منتظما منسجما مع غمض العينين وطرد الهموم والأشاغيل عن الخاطر وتمثل الصور الجميلة للاشخاص أو الأشياء بتذكر المناظر الخلوية التى وقع النظر عليها فى رحلة من الرحل الأخيرة مثلا . وليكن من مضيّ الدقائق وأنت فى هذه الحال ما يؤثر فى نفسك التأثير الذى لا يلبث أن يتحول إلى نعاس خفيف يحصل الجسم به على الراحة من عنائه . وحذار من قطع سلسلة هذه الاستراحة بحركة عمل أو قول فأنك إذا أديت مجهوداً ما حرمت نفسك أثرها النافع ومزاياها الجليلة . وينبغي أن تظل محتفظا بذلك الوضع نحو عشرين دقيقة أو نصف ساعة فأنك تنهض من مكانك بعدها خفيفاً نشيطاً ومتحفزا للوثبة على عمل جديد بعد إذ تكون قد عوضت بالراحة ما فقدته فى العمل من نشاط الحياة ووضعت فى أجزاء جسمك وأعضائه الزيت اللازم لحركتها بانتظام

وانساق وانسجام

ولما كان الأفراط مذموما لأنه من أشد الرذائل ضرراً بالانسان فحذار من الاسترسال في الراحة والافراط منها . لأنه إذا كان التجاؤك اليها مصلحا للبدن والنفس فمجاوزتك الحد فيها داعية إلى الضرر الذى من أقرب مظاهره الأصابة بأمراض معينة فى زمن قريب . دع أن الفراغ من العمل فى حد ذاته مفسد للصحة وضار بها أكثر من الأفراط فيه . والعمل الكثير خير بلا ريب من الفراغ الكثير

وغير خاف أن الشقة بين الراحة والنوم ليست ببعيدة ، فلننظر الآن فيما هو النوم الجامع لشروط الفائدة . يقول علماء الصحة أن المدد الزمنية اللازمة للنوم تتفاوت بتفاوت الاعمار فينبغي ألا تقل عن ١٢ ساعة لمن عمره من ٣ سنوات إلى ٤ و ١٠ ساعات لمن عمره من ٧ سنوات إلى ١٦ سنة و٩ ساعات لمن عمره من ١٦ سنة إلى ٢١ و ٨ ساعات لمن تجاوزوا هذه السن . والنوم إذا لم يكن وافيا جعل النائم عرضة للامراض المختلفة كفقر الدم وتعب الأعصاب والضعف العام

واعمد إلى النوم عقب طعام العشاء بساعتين مع رعاية ألا يكون مخدعك حار الجو وذلك بأن تفتح إحدى نوافذه وتسدل الستار دونها حتى لا يمر الهواء بالوجه والجسم . وليكن النوم على

الجانب الأيمن حتى لا يعوق حركة القلب عائق . وتعود التنفس من الأنف لتتقي جفاف الحلق وبالتالى الغطيط المقلق المرذول . واطرح من بالك عند النوم أشاغيل النهار وهمومه بل تجرد من كل خاطر فأن النوم لا يلبث أن يفرغ عليك جلبابه . وواجب الدموي المزاج عند النوم أن يضع رأسه على مخدة مرتفعة منعا لصعود الدم إلى المخ بخلاف الضعفاء وفقراء الدم فيحسن بهم جعل رأسهم أثناه النوم أوطأ ما يكون

وتحرز من وضع سريرك فى قبة أي فى مكان من المخدع يفصله عن بقيته حائل ومن إحاطته بالستر التى تعوق مرور الهواء ومن النوم على الفرش المحشوة بالريش . وعليك بالفرش المحشوة بالقش المعروف بالكرينة الملطف بطبقة من الصوف فوقه ولا تشعل ضوءاً فى غرفة نومك فأنه يتعب النظر ويستنفد جزءاً من أوكسيجين الهواء

وإذا تنفس الصبح فلا تنهض من سريرك فجأة ولا تبرحه مسرعاً بل تريث حتى تعود حياة الأعضاء إلى مستقرها ويرجع إلى المخ نشاطه الحيوي وانتظر على الجملة بضع دقائق لك أن تتمدد وتتقلب فيها ما شئت . ولا ضير عليك إن وصفت أو وصف غيرك هذا الفعل بوصف الكسل لأنه أفضل بكثير وأجدى لصحة البدن من الاسراع بترك السرير عقب اليقظة ،

وهو الاسراع الذى من نتائجه احتقان الدم وصعوده صعوداً فجئياً واضطراب الأعصاب اضطرابا يخشى منه الضرر بالجسم

صحة اللباس — للبرد تأثير بالغ فى زيادة خطورة الأمراض المختلفة ، فأنه ما من امرىء إلا ويحمل معه حتى وهو فى ملء صحته جراثيم جملة من الأمراض الخبيثة كالنزلات الصدرية والأنفلونزا وأمراض الحلق وغيرها . تتقلب هذه الجراثيم فى أمعائه ورئتيه ولعابه ، ويكفى أن يتعرض للبرد البسيط على أثر الاختلافات الجوية كهطول الأمطار أو بسبب لبسه النعال الرقيقة التى ينفذ منها الماء إلى قدميه لتصيب أنسجة الجسم وتفتك بها. ومن ثم كان لزاماً على كل إنسان أن يتحصن من هذه الأعراض بأزالة أسبابها أو سببها الوحيد وهو التعرض لتأثير البرد

وخير وسائل الوقاية والتحصن فى هذا الموضوع اختيار الثياب الحافظة للحرارة التي لا ينفذ البرد ولا الماء منها . ولا يخطرن بالبال أن الثياب السميكة من أفضل الوسائل لأصابة هذا الغرض ، فأن الثوبين الرقيقين الخفيفين يلبس أحدهما فوق الآخر يحفظان الحرارة أكثر مما يحفظها الثوب الواحد السميك . والملابس التى تصف الجسم لالتصاقها به باعثة على فقد جزء من حرارته أعظم مما إذا كانت واسعة فضفاضة ، ذلك لأن الهواء المعترض فى الحالة الثانية بين الجسم والثوب موصل

ردىء للحرارة ، فوجوده بمثابة طبقات تتخلل الثياب التى يحملها الأنسان داع إلى حفظ الحرارة وصيانتها من التبدد وفى حالة اتصال الملابس بالجسم وضغطها عليه . وقد قاس (برجونييه) العالم الفسيولوجي الشهير قياسا دقيقا درجة الوقاية من البرد فى الانسجة المختلفة كما يأتى :

غلالة راكبى الدراجات من القطن ملتصقة بالجسم	١ر١٠
صدرية من الفلانلا متوسطة القوة	١ر٣٥
قطن آجور	١ر٣٥
تريكو خفيف من الصوف	١ر٤٠
نسيج من الصوف والحرير دقيق الأسلاك مندمجها	١ر٥٠
مولتون أبيض غليظ	١ر٥٥
صدرية من الجلد مبطنة بالفلانلا	١ر٦٠
صدرية صيد من التريكو السميك	١ر٦٠
جوخ شفيوت اسود سميك مبطن بالفلانلا	١ر٩٠
ماك فرلان صوف	٢ر١٠
معطف شتاء سميك مبطن بالحرير	٢ر٥٠
صوف جبال البرنات	٢ر٥٠
المعطف الأمريكي المبطن بالفرو	٤ر٥٠

فخير وسائل وقاية الجسم بالملابس ما كان بالمعطف

الأمريكي المبطن بالفرو ، ويتلوه في هـذه المزية الأنسجة الصوفية المتخذة من صوف جبال البرنات . أما غلالة راكبي الدراجات القطنية والصدرية الجلد فأنهما لا تقيان لا بسيهما تمام الوقاية من سطوات البرد

وخليق بك أن تعني بأمر حذائك ، ذلك لأن مقداراً وفيراً من حرارة الجسم يتبدد بواسطة القدمين لاتصالهما المستمر برطوبة الأرض وأنك لتحول دون هذه الخسارة بعملية بسيطة جداً ألا وهي وضـع ثلاث طبقات من ورق اللف المعروف مخروطة بهيئة نعل الحذاء ، فان البرد لن تجد منك منالا بواسطة القدمين

وإذا خرجت من غرفة ارتفعت فيها درجة الحرارة فاعن بسد فمك وأنفك بمنديل وذلك كيلا يدخل الهواء البارد منهما إلى الرئتين فجأة بل بالتدريج . وكما أن البرد بليغ الضرر بالصحة فأن الحر الشديد ضارّ بها أيضاً إلى حد أنه قد يسبب الموت . وناهيك بمـا يتواتر وقوعه فى شهرى يوليـو وأغسطس من حوادث لطشة الشمس . ومدمنو المشروبات الروحية أكـثر من غيرهم تعرضاً لهذا العارض القتال . ولا يحسن فى فصل الصيف تعاطى المشروبات المثلجة مهما اتجهت رغبتك اليها . وعليك بلبس الثياب الواسعة الخفيفة ودع البنيقات (الياقات) العريضة

العالية فلا تستعملنها أبداً . ولا تبرز إلى الشمس عاري الرأس فاذا كان ثمة ما يضطرك إلى هـذا الفعل فوق نفسك حرارتهـا بشيء تغطى به قفاك أو باتخاذ شمسية تتظلل بها

طول العمر — قال (سنيكة) الحكيم وأيد هـذا القول بعده كل من (ستاهل) و (بروسيه) أن المرء لا يموت ولكنه يقتل نفسه . وقد تابعهم فى رأيهم العلامة (جان فينو) فى كتابه (فلسفة العمر) حيث قال إن الحياة البشرية لم تكن ثمرة القوى الميكانيكية والاتحادات الكيميائية فى الجسم ليس إلا ، فأن فوق هذه الآثار المادية قوة سامية بل أصلا رئيسياً يسيطر على هذه الآثار ويدبرها ويتصرف فيها أسماه الفلاسفة تارة بالنفس وتارة بالفكر وتارة بالعقل ، فألى هذا الأصل الرئيسي والمبدأ الفعال ينبغى الرجوع لتنظيم وظائفنا العضوية . وفى الواقع فأنه لا بدلتوافر الصحة أن تقصد إلى هذه الغاية بأرادتك وعزيمتك . وهـذه حقيقة لا تحتاج إلى تدليل إذ يكفي أن يطرأ على الأنسان طارىء نفسي يؤثر بشدة فى قلبه كي يتحول هـذا التأثير إلى مرض ما من الأمراض . ولكل من الغم والخوف تأثير كبير فى النظام العضوى يوقع به الاختلال والضعف ، كما أن للأمل والاغتباط تأثيراً مثله فى هذا النظام يفضى إلى تمتينه وتقويته . فأذا كان الانسان مريضاً تماثل من علته وانبثت حرارة الحياة فى دمه

واكتسبت عضلاته قوة جديدة منشطة . ومن ثم ترى أن للفكر أثراً بينا في حالة الجسم وأن فى استطاعة كل امرىء أن يجعل نفسه على الدوام فى حالة من القوة البدنية والصحة الجسمية تظهر عليه معها سمات القوة والشباب المبشرة بطول العمر فى حياة طيبة وهناءة ونعيم بال

قالت مدام (نوراواين) : « إن الهرم داء يصيب الانسان بمحض اختياره ولكنه لم يكن مما تتعذر الوقاية منه » . وليست مسألة السن مسألة تواريخ زمنية وتعاقب سنوات أو أيام وإنما هي مسألة ميول طبعية واستعدادات نفسية ، وماذا يهم عمر الجسم فى الحقيقة إذا بقيت الغرائز والمشاعر فى شبابها وقوتها . وليس الشباب دوراً من أدوار الحياة ولكنه صفة من صفات الأرادة وحالة من أحوال النفس كما أن الهرم ليس إلا صورة من صور الكبرياء وحب الذات »

إذن فما الذى ينبغي لنا أن نعمله لصيانة تلك الصفة حتى مع الطعون فى السن وانقضاء الشطر الأكبر من العمر ؟ الواجب أن نتخذ القناعة فى المأكل والمشرب منهاجاً لا نحيد عن جادته قيد شعرة وأن نعمل بأصول علم الصحة التى سبق الكلام عليها فى هذا المصنف على أن يكون هذا العمل مصحوباً بممارسة رياضة النفس وتقوية صحتها كما تقوى صحة البدن سواء

فنجعل من أنفسنا رقيباً عتيداً على أفكارنا وخواطرنا ونتحرز من اليأس وثبوط الهمة اللذين هما ثمرة من ثمار الغم والاستسلام إلى الخواطر الرديئة السوداء ونغلق الباب بأحكام دون الشكوك والتصورات الفاسدة التى سرعان ما تسرى عدواها وتفشو أضرارها لا سيما إذا كان موضوعها ماساً بالهرم وما يلازمه من الآفات والأمراض والمصائب وما اليها من مزعجات الحياة الطيبة والهناءة والسعادة

فهدو الفكر ونعيم البال من ألزم الشروط وأحقها بالمراعاة لأطالة العمر فى هناءة وسعادة فأن التوازن يختل فى الأنسان بالتصورات الرديئة التى تجعل الطيب خبيثاً وتفتح الأبواب على مصاريعها يدخل منها مختلف الأدواء . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه فيما خلا الموت بحادث غير إرادي يكون الموت انتحاراً حقيقياً أو جريمة ترتكبها النفس ضد الجسم ، إما لجهلها وإما لسوء تدبيرها . ومن ثم يرى القارىء أن السر فى طول الحياة يرجع إلى التحرز من الخواطر الرديئه والخيالات السوداء التى تقصر حبل الحياة وإلى رحابة الصدر واحتقار الموت وصفاء النفس . فأن تكن كذلك فأنك بالغ إلى مائة السنة من العمر فى شباب وقوة وهناء

القسم الرابع

الجمال

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

١

الجمال

هذا القسم من الكتاب أخص بالمرأة منه بالرجل ولكنا لا نرى بأساً من الكلام فى موضوعه لأنه وإن يكن كذلك ينبغي للرجل أن يلم بأطرافه ويعى ما سنورده من الحقائق فيه.

الجمال فى نظر القدماء هو ما توافر فيه توازن الأعضاء وشرف الملامح وحسن التقاطيع واتساق الحركات. وهو هبة لم تسبغ الطبيعة نعمتها على كل الناس بالسواء بل حبت بها أفراداً قليلين منهم تؤدى اليهم إتاوة الأعجاب ممن يقدرون الجمال قدره ويعرفون سره. غير أنه لم يكن لمن حرمتهم الطبيعة تلك النعمة من النساء أن ييأسن من الاندراج فى سلك الجميلات وأن يحرزن الاعجاب والاطراء بطائفة من القواعد والأصول إذا عملن بها ظفرن بالحسن كله وحصلن على ما حرمتهن الطبيعة إياه من

مميزات الجمال الجاذب للأنظار الخالب للعقول والافكار

قد لاتكون المرأة بالغة من توازن الأعضاء وحسنها المبلغ الذى تشتهيه لتندرج عداد الجميلات وقد يكون فى بعض أعضائها أو ملامحها عيب يرجع إلى اختلاف الشكل أو شذوذ الخلقة ، غير أن هذا كله لم يحل دون ظهور نساء من هذه الطبقة التى ضنت عليها الطبيعة بالمحاسن الخلقية فى مظهر من الجمال فاتن للعقول سالب للأفئدة . وإنما كان ذلك بفضل مابذلنه من العناية بأصلاح تلك العيوب وتفرغن له من محو معالمها وآثارها فى جسومهن

قال بعضهم : « لا يوجد بين النساء امرأة دميمة الخلقة إذ لكل منهن حتى تلك التى لم تحبها الطبيعة بشيء ما من المحاسن حسن خاص بها وجمال تستره العادة التى ألفتها أو يخفيه عدم الاكتراث الناشيء عن اليأس . والحقيقة أن شيئاً من العناية تبذله المرأة في سبيل الأصلاح من شأنها يكفي لرفعها فى أعين الناس من الحضيض الذى تنكست فيه إلى المستوى الذى تحرز عنده الأعجاب والاحترام . وما ذلك الشيء من العناية إلا القليل من العزيمة والأرادة تجعله رائداً لها فى الحصول على المراد

ولنذكر الآن بعض الوسائل والحيل المصلحة لعيوب الخلقة :

اللون — إذا كان لون البشرة نقياً واضحاً فى نقاء الصدف

وشفافيته فقد أنسى الناظر ما يكون فى الوجه من عيوب ناشئة عن اختلال فى توازن ملامحه وتقاطيعه وأكسبه صفات الشباب الناضر الدائم . وحسن لون الوجه دليل على جودة الصحة لان الصحة الجيدة تكسب الوجه نوراً ونعومة كأنها لمس الحرير . والمشد (الكورسيه) إذا ضغط به على الجسم ضغطاً شديداً ، والثياب إذا تعددت طبقاتها فأثقلت الجسم أضرت بطراوة اللون وبهجته . أما النظام الغذائى فينبغي العناية به على وجه خاص فلا تعالج الأطعمة بالتوابل ولا يكثر من أكل لحوم الصيد والاسماك البحرية ويراعى الاعتدال ما أمكن فى تذوق النبيذ الجيد . ولا مناص من الاختلاف إلى بيت الخلاء ولو مرة واحدة فى اليوم ، واستعمال الماء الفاتر فى النظافة والطهارة . وخير ما تطلى به البشرة من المراهم لتحسين لونها والاحتفاظ بطراوتها خليط بأجزاء متساوية من عصارة الليمون والقشدة . وماء المطر إذا نقع فيه المقدونس يؤثر تأثيراً حسناً فى البشرة . وقد يقوم الزنبق والورد وزهر البابونج مقام المقدونس فى ذلك ، فأن لهذه النباتات تأثيراً حسناً فى البشرة . وقطرة واحدة من عصارة الليمون على بثرة أو دمل يتهددان البشرة توقف نموهما وتذهب بأثرهما .

الغضون — إن أشاغيل الحياة وغمومها وهمومها وما

يتخللها من اضطرابات ومحن تولد فى الوجه الغضون أو الأسارير فيظهر صاحبه أكبر سناً مما هو فى الحقيقة . فأذا أردت أن تحفظ لوجهك نضرته وبهجته وانبساط بشرته من غير ثنيات ولا أسارير فتحرّز من الاسراف فى البكاء والضحك سواء ولا تفرط فى استعمال المراهم الدهنية للعناية بالبشرة كالدهون المعروفة باسم كولد كريم والفازلين والجليسرين لأنها تلين الأنسجة وترهلها واستعمال الماء الساخن طلباً للنظافة يفضى إلى هذه النتيجة بعينها ومن الوصفات ذات الأثر الصادق فى إزالة الغضون أن تغلى ملء الكف من الشعير فى قليل ماء إلى أن تنضج حبوبه نضجاً تاماً ثم صفه من خلال مسام قطعة من القماش دقيقة السلك ضيقة الثقوب وأضف اليه بعد ذلك بضع قطرات من دهن الطيب المكى ثم ضعه فى قنينة ورجها رجاً شديداً حتى يمتزج الدهن بالشعير امتزاجاً جيداً واستعمله فى غسل الجبهة والعينين ، فأن هذا الماء فضلا عن كونه من أصدق المركبات أثراً فى إزالة الغضون ينعم البشرة ويحسن لونها . وهذه الوصفة من أقدم الوصفات ولكنها أحسنها وأولى بالاتباع من سائرها

وقد اخترعت فى عصرنا هذا آلات للدلك بالكهرباء يقصد باستعمالها إزالة الغضون . والمعلوم أنها أتت بالغرض المقصود منها فلا بأس إذن من الانتفاع بها

وهناك وصفة أخرى لأزالة الغضون أبسط من التى شرحناها الآن وهى أن تأتى بقطع مستطيلة من التافتا الانكليزى الجيد الصمغ ثم تبسط مكان الغضون بين بعض أنامل اليد اليسرى وتلصق باليد اليمنى قطعة من هذا القماش به وتظل الأنامل فى مكانها بضع دقائق بينما تضغط بشده على القماش فى أثنائها . وتعمل هذه العملية فى المساء قبيل النوم وتبقى قطعة التافتا فى مكانها طول الليل حتى إذا أسفر الصبح أزيلت بالماء الفاتر ، وتكرر هذه العملية كل مساء إلى أن تزول الغضون

العين — كان حكم الشعوب كافة على العين أنها رمز الذكاء والعقل ودلالة القلب والضمير . وبلغ من تقدير القدماء لها أن أسموا الشمس (عين الكون) . ومهما يبذل الانسان من العناية بالعين فما هو إلا القليل مما يجب لصيانة العين والاحتفاظ بحسنها . وأغلب ما يصيب العين من الآلام الضوء الشديد وإدمان المطالعة والأمعان فى السهر . والواجب فى وقاية العين من أعراض الأمراض إذا كانت سليمة غسلها بالماء البارد قبل الرقاد وعند القيام من النوم . والأحسن إذا كان بها التهاب التحرز من الماء البارد واستعمال الماء الساخن بقدر الأمكان بدلا منه . ولا تنم تجاه نافذة منعاً لأشعة الضوء من الوصول إلى عينيك رأساً عند القيام من النوم . وإذا أحسست تعباً فيهما فضع بضع قطرات من

العرقى الجيد فى راحة كفك ودعها تتباخر بتأثير حرارة الجسم معرضاً إياهما مفتوحتين للبخار المتصاعد منها . وهناك وصفة أخرى لأزالة تعب العينين بأن تنقع طول الليل فى الماء زهر الترنجان جافاً كان أو طرياً فاذا أسفر الصبح غسلتهما بالمنقوع . وغسل العينين جملة مرات فى اليوم بمنقوع الشاي الفاتر غير المحلى بالسكر يذهب بالتهاب الجفون ويزيل الورم ويعطى اللحظ بهاء وبهجة

الشعر — إن الشعر كالنبات إذا أسرفت فى دهنه بالمراهم والزيوت مات كما يموت النبات إذا أسرفت فى ريه بالماء الغزير . والسبب فى ذلك أن مسام الجلد تنسد بهذه المواد فيعوق انسدادها نمو الشعر فضلا عن أنه يصيب الرأس بالأوجاع المختلفة من صداع وغيره . وأبسط الوسائل لصيانة الشعر وأقلها كلفة ومؤونة قصه فى غالب الأحيان ثم ترجيله يومياً بالمشط فالفرجون (الفرشة) لتنظيفه من الهبرية ، وهى تلك القشور البيضاء التى تتسخ بها الشعور ويصيبها الضرر من جرائها . وينبغى القيام بهذا العمل فى الصباح لتهويتها وإزالة ما بها من عرق الليل ، ثم يكرر فى المساء لأزالة ما تراكم فى أثناء النهار من الأوساخ بسبب الحرارة والغبير ، ولا بأس من غمس المشط بين آن وآخر فى ماء معطر بماء كولونيا مع التحرز من غمر أصول الشعر بهذا الماء حتى لا

تتأذى بالرطوبة . وهذه الطريقة إذا استعملت كل يوم باحتراس وتدبير اكسبت الشعر اللين والبهجة وطهرته من أثر الروائح الرديئة الناشئة عن تراكز العرق بين أصول الشعر . ويمكن في أثناء الصيف للوصول إلى هذا الغرض غسل الرأس مرة واحدة فى الشهر، إما بماء الردة لأزالة المواد الدهنية العالقة بالشعر وإما بالمناقيع العطرية بحسب ما إذا كان المراد تسكين ما يصيب جلد الرأس أثناء الحرارة من التهيج والتأكل أو تقوية الجذور الشعرية . وهذه المناقيع مفيدة أيضاً لأطاله الشعر

وإذ كان الشعر زينة الجمال النسوى فمن الواجب لصيانة هذه الزينة ترجيله بمشط لا باللين ولا بالشديد الصلابة ، على أن تغمس أطراف أسنانه فى ماء ممزوج بسائل كحلي لطيف كماء البرتقال ويرجل بعد ذلك بمشط متقارب الأسنان إلى الحد الذى يستطاع معه تطهير الشعر من المواد الغريبة التى علقت به فى النهار . وإذا كان الشعر دهنياً بطبيعته أو جافاً ففى الحالة الأولى يستعمل الفرجون مبللا بماء برتغال الصرف وفي الحالة الثانية بفرجون خاص دلكت أسنانه الشعرية بمرهم جيد للشعر . وليست الزيوت وأنواع المراهم بنافعة للشعر إذا أصابه الجفاف بتأثير الهرم أو الحوادث المحزنة

ولمنع سقوط الشعر وصفات عديدة نذكر هنا بعضها : إن

منقوع خشب البقس ينمي الشعر تنمية عجيبة . ونبات الأنجرة واقٍ من سقوط الشعر ، بل يزعم بعض الباحثين أنه ينميه من جديد إذا كانت جذوره لا تزال موجودة . وطريقة الاستعمال هي أن يؤخذ ما زنته ٢٠٠ جرام من جذور الانجرة وبعد قطعها قطعاً صغيرة رقيقة تغلى مدة نصف ساعة فى نصف لتر ماء ونصف لتر خل ثم يدلك الرأس بهذا المنقوع قبل النوم . ووصف طبيب هولاندى حمض اللبنيك محلولا بنسبة ٦٠ جزء منه فى ١٠٠ جزء من الماء كعلاج صادق الأثر لمنع سقوط الشعر ، وطريقة الاستعمال على ما قرره الطبيبان (باين) و (ستوكافوفتش) أنه بعد إزالة ما بالجلد من المواد الدهنية بواسطة مزيج من الكحل والأثير يدلك بقطعة من القطن المعقم بعد إشرابه بحمض اللبنيك . وقد يحدث هذا الدلك ألماً خفيفا فعندئذ يوقف الدلك ويطلى جلد الرأس بالفازلين البوريكى ويحسن غسله يوميا بمحلول السليمانى بنسبة ١ فى ٢٠٠٠

ويرى الناس فى ظهور الشيب نذيراً بالهرم فسرعان ما يلجأون إلى الصبغات يسترون بها هذا العارض الذى يعدّونه عيباً ولكن لما كانت هذه الصبغات لا تدعو تراكيبها إلى الاطمئنان وكان لا بد لمن وخطه الشيب أن يوهم بأنه يعيش فى ربيع مقيم فخير الوسائل لصبغ الشعر وأبسطها استعمال محروق قشر شجر

الفلاين فى أحد المراهم أو منقوع قشور أشجار البلوط والجوز والتوت الأسود، وبالجملة كل المواد النباتية الكثيرة مادة التنين وذلك بأن يغسل به الشعر باستمرار فيسود على توالى الأيام. ويمكن باستعمال الأمشاط الرصاصية للوصول إلى مثل هذه النتيجة من أقرب طريق

الحواجب — لا يتم معنى الوجه ويكمل حسنه سوى الحواجب الحريرية الملمس الغزيرة الشعر المستدقة الأطراف فى تقوّس منتظم. فأذا لم يكن حاجباك، لسوء الحظ، غزيرى الشعر ولا طويلين ففى استطاعتك سد هذا النقص بان تضع عليهما رماد قشر شجر الفلاين مسحوقاً ومخلوطاً بجزئين متساويين من الجلسرين وماء الورد

الفم — الفم من أحق أعضاء الجسم بالعناية إذ عليه يتوقف جمال الجسم وصحته وقد قيل: «الفم السليم والأسنان البيضاء تقى المرء كثيراً من الأمراض». وحركة عضلات الفم إذا طال تكرارها أحدثت بجانبيه غضوناً تذهب بمعالم حسنه فمن الأصلح إذن ألا يفرط فى الضحك لأنه يدعو إلى حركة العضلات فالى الغضون. ولصيانة الفم والأسنان تضع شيئا من (بى بوركس) أي ثانى البورق على فرجون (فرشة) الاسنان وتدلكها به وينبغى قبل استعمال الفرجون وضعه فى الماء الساخن مدة عشر

دقائق . وبعد هذه العملية تضيف إلى ما مقداره ملء ملعقتين كبيرتين من الماء الفاتر ملء ملعقة واحدة من المركب الآتى :
١٢٥ جراما ماء فينيكي بدرجة ١٠٠ و ١٢٥ جراما من الماء ، ملء ملعقة بن من الكلوروفورم ، ويستعمل هذا المزيج فى مضمضة الفم وهـذا العلاج كفيل لمن يتبعه ببياض الأسنان وحفظ صحة الفم والحلق ووقايتهما من الأمراض

اليدان — لا كساب اليدين لونا أبيض نقيا يكفى أن تضيف فى صبيحة كل يوم إلى الماء الذى تغسلهما به شيئا من دقيق الشعير ونشارة الخشب فأن غسل اليدين بهذا الماء ودلكهما أثناء الغسل دلكا شديداً يكسبهما بياضا وطراوة لم يكونا لهما من قبل . وغير خاف أن جمال اليد أو بعبارة أخرى العناية بها مع نظافة الأظافر دلالة على حسن التربية . وما من أحد إلا وينظر إلى يديك يستدل بهما على حقيقة أمرك . وهو بهذا النظر يصـل إلى معرفة ما خفى من أحوالك أكثر مما لو سألك عنه فأجبته على سؤاله . فكن على الدوام نقي اليدين ليحسن ظن الناظرين اليهما بك ويعتمدوا عليك

٢

خفة الروح والنجابة

خفة الروح -- إذا استرعى الجمال نظر المرء فوقف أمامه باهتاً دهشاً فأقل ما فى خفة الروح من المحاسن الفاتنة أنها تستهوى اليها النفس وتأسرها وتملك عليها حواسها . فما هو إذن سر خفة الروح وبم يستطاع تعريفها ؟ أنها لنكرة لا تعرف وعدم هو الوجود كله، إذا توافر فى المرأة التى لم تظفر بجمال الخلقة أكسبها حسناً مونقاً وبهجة وطلعة لا تمل ولفت اليها الانظار حتى من ناحية الذين لا يكترثون بالجمال ولا تخفق قلوبهم لروعته وبهجته . وإذا قلنا إن خفة الروح نكرة لا تعرف فما فى هذا القول أثر للمبالغة إذ ماعسى أن يكون التعريف العام للمحاسن الآتية متوافرة فى النفس الواحدة : لطف الأشارة وشرف الحركة وحسن الاستواء فى الجلوس وسلاسة الحديث فى لهجة رشيقة

وصوت رقيق وبسامة الثغر وتوقد الذهن وصدق النظر ودقة الملاحظة واصطناع المعروف وسلامة الذوق فى مظاهر الحياة على اختلافها . وهناك طائفة أخرى من المزايا التى ترتبط وثيق الارتباط بخفة الروح لا ترضخ لحكم التعريف والتحليل لأنها من الاسرار الكامنة فى النفس والصفات العالقة بها لن تشبه ما يقابلها فى نفس غيرها . ومن ثم كان لكل امرىء خفة روحانية ومحاسن جذابة ورشاقة خلابة خاصة به لا تتعداه إلى سواه يشعر الأغيار بقوتها الجاذبة دون أن يروا لها أثراً محسوساً ويرضخون لحكمها وهم لا يدرون من أين سرت إلى أفئدتهم تلك القوة المغنطيسية ولا كيف يستكشفون سرها الغريب

فعلى قارئات هذا الفصل إذا شئن أن تملكن تلك المحاسن الفاتنة من ناصيتها بالانجماع هنيئة عن الناس للتأمل فى أحوال أنفسهن وعرض ما حبتهن الطبيعة أو التربية به من المحاسن على أنظارهن . ومفهوم أن بعض المتملقين والمداهنين ، وهم كثر فى هذا العصر ، قد أطنبوا طلباً للزلفى منهن فى مدح بعض ما أحرزنه من المحاسن ، ثم لا بد أنهن قد عرفن عند ما يتراءين فى المرآة أى هذه المحاسن لفت اليه أنظارهن . وإذ كنا نفرض أنهن على جانب من الدراية والذكاء والفهم فأول ما نطلبه اليهن أن تضربن عرض الحائط بما سبق إلى أسماعهن من ألفاظ الملق

وعبارات المداهنة وتطرحن جانباً ما علق بأذهانهن من حسن الظن بأنفسهن على أثر ترائيهن فى المرآة وتنبرين بعد ذلك لنقد أنفسهن كما لو فعلن لنقد نساء غيرهن فأذا عنّ لأحداهن ، بعد بحث وتحقيق ومراجعة وتدقيق وتجرد من الغرض الباعث على التحيز ، أنها مجملة بشيء من تلك المحاسن فلتعمل بجد واجتهاد على تنميته بيقين من يعتقد ان الوردة لا تتفتق اكمامها بذاتها وإنما بعمل البستانى فى تعهده إياها بصنوف العناية الكفيلة بتنميتها . وماقيل عن الوردة يصدق على الصفات والمزايا والخصائص . ومن ثم كان لزاما على المراد النابهة ان تتعهد الصفات التى يلوح لها ان الطبيعة لم تضن بها عليها بما يكفل نماءها وبلوغها إلى حد الكمال ، فتمارس تنظيم حركاتها وإشاراتها وتنسيق نغمات صوتها وترتيب أحوال نظراتها وتتوفر بالجملة على تدبير شؤونها النفسية بحيث لا تترك فى كل ذلك أثراً ما للتصنع والتعمل فأن في هاتين الخلتين ما يجلب اليها الازدراء والمقت والسخرية من الناس وليس هذا هو ما ترنو اليه وتبذل الجهد للحصول عليه

ولتتحرّ فى تثقيف عقلها مطالعة المصنفات النفيسة التى تسمو بالفكر الى شرائف الغايات ولتختلف الى المتاحف ومعاهد الفنون تهذب بالنظر فى محتوياتها ذوقها وطبعها . واذا كانت هذه الممارسة واجبا عليها فاوجب منها ممارسة إيتاء المعروف واصطناع

الجميل ، فأن المعروف هو أسمى غاية يرمى المرء اليها بفضائله النفسية العالية ، ومنه تتشعب المحاسن الجذابة وسائر المزايا والفضائل . ولا عجب فاعتقاد المرء إيتاءه المعروف من يستحقه يكسب صوته نبرة قوية فعالة فى نفس السامع ونظره اتقاداً ونوراً وبهجة وحركاته وإشاراته شرفاً ونبلا وثغره بسامة ترضخ لقوة سحرها الأفئدة وعقله مرونة وسعة . فابذرن أيتها السيدات بذور المعروف تحصدن المحبة واصطنعن الجميل لا تر العين منكن إلا جميلا ولا تأنس القلوب فيكن إلا ربيعا مقيما وشبابا ناضراً ولو بلغتن أرذل العمر وأكل الدهر عليكن وشرب

النجابة — خصلة تسمو بصاحبها على الاقران وهبة نادرة تميزه عنهم بالرفعة والنبالة وما اليهما من الخصال التى لا تتوافر فى الغالب إلا من طريق الفطرة . ومن كان على إرث من النجابة وجب أن يعد نفسه من السعداء لأنها قلما تكتسب من غير ذلك الطريق وإذا اكتسبت فلا بد لاستقرارها فى النفس من الممارسة الطويلة والاختلاف إلى البيئات التى تتوافر فيها أسباب القدوة الصالحة

ومن أخص آيات النجابة وعلاماتها لين العريكة فى المعاملة وسلاسة الحديث ورفعته وضبط الحركات فى الايماء والتأنق فى اللباس بما لا ينافى الحشمة والدراية بمقتضيات الحال فى المحادثة فلا

يساق القول جزافا ودون مناسبة . تلك هى علامات النجابة المميزة لها عن غيرها من الخصال . وانما ينبغى أن تنضاف اليها طائفة كبيرة من خصال أخرى تبرز المتصف بها في مظهر من يتخذ بينه وبين الصلف والكبرياء هوة سحيقة ويتحلى بحلية التواضع فى غير استحياء ولا خجل ويتحرى الحقائق ويحفل باستكشافها فيما لم تكن له دراية تامة به من شؤون الناس واحوال الاشياء ويثبت على طباع واحدة فلا يتقلب من طبع الى طبع طوعا لما تتأثر نفسه به من العوامل الطرآنية ويتقبل من الناس بأدب جمّ وخلق رضىّ مظاهر التكريم والتبجيل ويرد عليها بأحسن منها ويكون سليم الذوق على الجملة فى العمل لما تتطلبه ظروف الزمان والمكان .

وان تكن من السعداء الذين آتتهم الأقدار بقسط من النجابة غير واف بسد مطمعك منها ففى قدرتك تحصيل هذه الفضيلة وامتلاكها من ناصيتها لا بمحض المطالعة فى كتب السير والسلوك بل بالعمل المتواصل لتنميتها فى نفسك وهو ما لا يتأتى لك الا بالتحرز والتدقيق فى اختيار معاشريك واتخاذك اياهم ممن امتازوا بالنجابة والنبالة والاجتهاد في الاقتداء بهم بالاصغاء لأقوالهم والالتفات لحركاتهم واشاراتهم . ولا حرج عليك اذا ترسمت خطواتهم فى ذلك ماداموا على إرث من الصفات والفضائل

التى ترنو الى التحلى بحلاها . ومتى كنت على استعداد للاقتداء بهم فقد هان عليك أن تطبع ماتكتسبه من خلالهم بهذه القدوة بطابعك الخاص وتسمه بالسمات التى تتفق مع ميولك الذاتية وذوقك الذى فطرت عليه . ومن ثم تخلص من قيود التقليد المحض الذي يجعل صاحبه أقرب الى القردة منه الى بنى الأنسان .

أمعن النظر فيمن اتخذته من أولئك الفضلاء النبلاء نموذجاً للاقتداء ودقق البحث فى تصرفاته جميعا من الايماءة الصغيرة الى الحركة الكبيرة ومن الكلمة المفردة تنبس بها الشفتان الى الحديث المستفاض ينطلق به اللسان وقس الايماءة والحركة بمعياريهما وزن الكلمة والحديث بميزانيهما واختر لنفسك من ذلك كله ماترى بصدق نظرك أنه فى الكفة الراجحة . ثم أعد النظر ممعنا فى لباسه فأذا ألفيت هندامه ممتازاً بتناسب الألوان وتطابق الأجزاء وأن ما يتحلى به من الجوهر والمصوغ جدير ، مع قلته والقصد فيه ، بالأعجاب لوضعه فى مواضعه اللائقة به وأن حذاءه وقفازه لاغبار عليهما وأن ما يتطيب به من الطيب لا يصل شميمه الى الأنف إلا خلسة ، فلاعليك إذا حذوت حذوه فى كل ذلك واتبعت فيه طريقته . ثم أصغ الى قوله محدثا ترأنه لايذهب بنبرات الصوت زاعقا وأنه يختار له المعنى الشريف فى اللفظ الجزل الحسن الرنين فى أذن السامع وأنه لا يراعى فى موضوعه

إلا ما يقبله ذوق السامع ويونق أذنه . فلاعليك أيضاً أن تذهب مذهبه فى حديثه لاسيما إذا كان موجها منه كمرؤوس إلى رئيسه وبالعكس أو كنظير إلى نظيره .

وأولى لك فأولى إذا لم تأنس من نفسك استعداداً للتخلق بهذه الأخلاق العالية أن تدع الاقتداء جانبا وإلا زلت قدمك فى التعمل الذى يفضل عليه ماأنت فيه من سذاجة الفطرة والبراءة من وصمة التكلف

***

قال المؤلف فى خاتمة كتابه :

الآن ، وقد بلغت إلى الغاية القصوى من هذا البحث ، لا يبقي إلا أن أشكر للقراء إصاختهم لما أوردته فيه من الآراء راجياً منهم مشاطرتهم إياى ماذهبت اليه فيه من الأمل فى تحقيق موضوعه لينشأ فى المستقبل القريب جيل من الناس عارف بواجباته ، واثق بقدرته على مواجهة مصاعب الحياة ومحنها بجنان ثبت وجأش قوى ، منحٌ عن طريقه كل مايعترضه فيه من القوى الطبعية أو الاجتماعية العمياء الغاشمة ليخلص منه الى النجاح المرجو والسعادة المأمولة والخير الوفير وما الى ذلك من الوسائل الكفيلة بنعيم الحياة .

على أننى لا أود مفارقة أولئك الاصدقاء قبل أن أوجه

اليهم كلمة وداع استمدها من عواطف ميلى اليهم وحبي لخيرهم وهنائهم .

ليست الموضوعات التى طرقت أبوابها فى هذا المصنف من الأبحاث الجديدة ولا من مبتكرات العهد الذى نعيش فيه ، وإنما هي موضوعات يرجع تاريخها الى الزمن الذى تألفت فيه هيئات الاجتماع الانسانى . ولقد تصدى لبحثها وتمحيصها فريق كبير من فطاحل الرجال وثقاتهم فقرروا فيها الحقائق وأرسوا القواعد فأذا أنا قد تصديت للبحث فيها ، فما هو إلا لتلخيص هذه القواعد والحقائق وسبكها فى القالب الذي يجعلها في متناول القراء على تفاوتهم فى الفهم والادراك .

وإذا كان قد بدا لنا من جانب الشعب الامريكى فى هذا العصر ما استفزنا الى العجب من قوته الحيوية ، وجعلنا نبهت أمام مواهبه الفكرية والعقلية وفطانيته فى الانتفاع بالمخترعات العلمية وإرضاخها لمقتضيات الحاجة فى الاجتماع ، فما ذلك إلا لأن طائفة من الكتاب والمفكرين قد وقفوا أنفسهم على تهذيب أفراده وتثقيف عقولهم وتنمية إرادتهم وشحذ عزيمتهم بالتعاليم السهلة الصريحة فى أغراض تمتاز بشرفها وجلالها . ومما لا ريب فيه أن مجال القول فى هذا المصنف مابرح متسعاً للبحث فى موضوعات شتي ترتبط بالتى أوردناها فيما تقدم ولو أننا عالجناها

فيه لبرز الى القراء أجل وأجمل منه عاطلا من حليتها . ولكننا فضلنا الاقتضاب على الأسهاب رغبة منا فى ترك هذا المجال مفتوحاً للباحثين .

فعلى القراء أن يطالعوا هذا المصنف بالالتفات والعناية وأن يعملوا بما ورد فيه من النصائح والحكم فأنهم إذا كانوا يحسون ظهورهم تنوء بعبء الحياة وإحنها ومحنها ويشعرون بأنها الكابوس الذى يضيق به صدرهم فسرعان مايبدلون من هذا الرأي رأياً آخر فتتجلى لهم الحياة كالعروس فى ليلة جلوائها بل سرعان ما تبدو لهم كالميدان البعيد مدى الأطراف تنطاق فيه الهمم فتصل منه الى أقصى الغايات وأشرفها . وإذاً يدركون سبب وجودهم في هذا الوجود وماهية الغرض المقصود من الحياة ، ألا وهو الفوز والنجاح فى معتركها .

وليذكروا أن المرء ليس بباق فى الوجود إلا بالفكر وأنه إذا فنى جسمه فما هو بفان . فليسموا بأفكارهم الى المعالى وليكسروا ما يربطها بالمادة من القيود حتى تحلق بأجنحتها القوية فوق أفقنا المحدود ، وماهي ببالغة الى ذلك الأوج ولا بمحلقة فى سمائه إلا إذا سهلوا لها الفكاك من تلك القيود التي تستحيل معها الوثبة الى قنن المعالى وذرواتها .

﴿ انتهى ﴾

فهرست الكتاب

صحيفه	
٣	المقدمة
٧	القسم الاول — الفضائل
٩	الاعتماد على النفس
١٣	ضبط النفس
٢٨	الارادة
٤٦	اختيار المهنة
٥٨	المثابرة
٦٧	الفراسة والتوسم
١٢٣	آداب وفضائل شتى
١٣٦	الصفات الجثمانية
١٥١	القسم الثانى — الوسائل
١٥٣	التجارة
١٦٦	المهن الصغيرة
١٨٥	الاعلان
٢٠٥	القسم الثالث — الصحة
٢٠٧	النظام الغذائى
٢٢٦	مبادىء صحية
٢٤١	القسم الرابع — المحاسن
٢٤٢	الجمال
٢٥٣	خفة الروح والنجابة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

بيان

الخطأ الواقع فى هذا الكتاب وصوابه

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٣	٤	للمصطفوين	للمصطفين
٣	١٢	تروّضها	تروضها
٥	٨	المقدامة	المقدام
١٠	١٦	فروّض	فرُضْ
١٥	٩	فاتهم	فأنهم
١٧	١٧	الميئسة	الموئسة
٢٨	١٣	أرده	فأرده
٣١	٢	بترويض	برياضة
٥٧	١٢	انقض	فانقض
٦٠	٨	متوافر	متوافرا
٦٢	١٤	كلاهما	كليهما
٦٨	١٠	المكائد	المكايد
٧٨	١٤	بأعلا	بأعلى
٨٧	٦	زوجيه	الزوجية
٨٩	١٨	والعون	والعيون
١٠٠	٣	خيت	خبث

صحيفه	سطر	خطا	صواب
١١١	١٣	القماش	النسيج
١٢٢	١٥و١٩	بمروّض	برائض
١٢٦	١٢	مرؤوسك	مرءوسك
١٤٥	١٩	الرقية	الرقبة
١٦٩	١٦	مذ كر	مذكرا
١٧٣	١٢	وأن	أن
٢٠٩	٦	ثلاثة	ثلاثة

The American University in Cairo
Library
April 27, 1993
0 0 0 0 0 2 7 9 4 9 2

I 14733699
B 13024863

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY